



أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuab/>

الميراث الدموي

(قراءة نقدية في الأدب الحديث)

ابراهيم الخليل

الميراث
الموفا

- * سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية - 2 -
* الميراث الدموي (قراءة نقدية في الادب الحديث)
* تأليف: ابراهيم الخليل
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى ١٩٩٦
الناشر: * دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية - ص.ب: 1018 - هاتف: 422339 - سورية
* نادي الشبيبة السورية - اللجنة الثقافية
حلب - ص.ب: 3699 - سورية
* تصميم الغلاف: الفنان اردو هامبارتسوميان

الميراث الرموي

(قراءة نقدية في الأدب الحديث)

ابراهيم خليل

تنويه:

إلى كل الذين ساهموا بإرادة طيبة أو
حماسة في إنجاز هذا الكتاب ولهم
الفضل والمحبة

ابراهيم

الأسلاف

« وأول الدماء التي يشربها رئيس الدولة من جراء هذه
الشراسة الذئبية هي دماء الأخوة وأول الرؤوس التي يأكلها
رؤوس الأخوة... »

حكمت قفلجملي
التاريخ العثماني

« ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقولون لهم الباشغرد فحذرناهم
أشد الحذر، وذلك أنهم شر الأتراك وحذرهم، وأشدهم إقداماً
على القتل، يلقي الرجل الرجل فيفزر هامته ويأخذها ويتركه وهم
يحلقون لحاهم ويأكلون القمل.. »

ابن فضالة
الرسالة

« أيها الإله القادر على كل شيء، أنعم على الترك بالصحة
والعافية وأحسن إليهم بذئب أغبر، وأشمهم برعاية مولانا
السلطان الأعظم »

من دعاء ألفتة جمعية «ترك بوردي»
للمدارس والمنازل والجوامع يرذده الأتراك

(١) - في الميثولوجية ^(١)

- من قلب تلك البلاد الفريدة.

تلك التي تشمخ بهضابها، وسلاسلها الجبلية العظيمة جبال ألطاي وسايان وخانقاي ويابلوتوفي وخنجان، بغاباتها الكثيفة التي تتوجها وتنساح سيلاً أخضر نحو السفوح والوديان الوعرة، وتشهر أوراقها الصنوبرية الحادة في وجه العصف الثائر الذي ينطلق كعفاريت طال حبسها في قماقمها، وعلى طول مجاري الأنهار تمتد أشجار الجوز والصفصاف والباتولاء.

كما تمتد براريها وسهوبها في «جوبي» كبساط رائع يطرزه ياسمين البرّ والليلك والأفستين وحشائش النجيل، في ربيع قصير الأجل، بسمة خجول، يتلوه صيف يأتي على كل شيء، ليفتح نافذة على الجحيم، جحيم من الرمال والأترية والحرارة الخانقة التي تتجاوز حداً لا يمكن لغير شعب قُدّ من حجارة أو حديد أن يصمد له، وفي الشتاء تموج تلك الأصقاع بعواصف ثلجية باردة برداً كأنه «باب من الزمهرير» كما يقول ابن فضلان الذي نستمتع إليه يحدثنا عن جحيم الصقيع هذا:

« ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت وفيه قبة لبود تركية وأنا مدّثر بالأكسية والفرى فرجما التصق خدي على المخدة، ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوتينات من جلود الغنم لثلا تتشقق وتنكسر، فلا تغني شيئاً، ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك...» ^(٢)

من تلك البلاد التي تمتد من جبال الذهب «ألطاي» إلى صحراء العشب «جوبي» أو قبشاق حيث تسرح الحيات والضواري وسباع الطير والبغاث وبالتحديد من الكهف الأسطوري «إركين كون» خرج الذئب الأغبر «بوزقورت» كما تروي الملاحم والمدونات الشفوية يعسل مندفعاً في ذلك الامتداد اللانهائي وكأنّ القدر يقود خطاه، ليلتقي بصديقه الطيبة التاوية ويمضي معها متابعاً طوافه المرسوم وكأنه في موكب زفاف سماوي مقدس، قنت له كل شيء، من شواطئ بحيرة «بايكال» إلى منبع نهر «أونون» على سفح الجبل المقدس «برقان قالدون» الذي يعتم بالثلج

والخضرة ويتربع على قمته إله السماء الزرقاء «تنكري» الذي كان شاهداً على كل شيء، وربما قام بتدبير كل شيء.

وهناك ضائع الذئب الأغبر طبيته ليحيي منها نسلأ ملأ تلك الأصقاع وتكاثر بسرعة تحت أسماء وفروع سرعان ازدهرت وهي تحمل في عروقها الميراث الأبدي للجد «الطوطم» بوزقورت، ميراث الدم والقسوة والسلطان الممدود بحدّ السيف والفساد.

(2) - في التاريخ:

لا يمكن لأي باحث أو دارس في تاريخ الإسلام أن يغفل أو يتغافل عن المكانة الخاصة بالأتراك الذين يعدّون من كبرى الفرق والجماعات التي كونت عالم الإسلام، وقد وضعهم ابن خلدون في تصنيفه ضمن العجم، حيث نص على ثلاث جماعات: العرب والعجم والبربر وهو تصنيف فيه الكثير من الموضوعية والاعتدال في إعطاء أهمية وعدم إغفال لموضوعة الأصول الإثنية ضمن الجماعة العامة.

وتسمية «الترك» أو الأتراك، تسمية فيها إحالات وتفرعات عرقية ولغوية هي من هموم مدرسين سواء على المستوى اللغوي أم الإثني أم التاريخي لا يمكن للدراسة مثل دراستنا أن تغنيه أو تنهّ بكل أطرافه، وتعرض لكل صورة، هذه الصور الموزعة اليوم في كل مكان وذاكرة وجيل وهو متباين خلفته في ذاكرة الأمم والجماعات يفيد الدارس ويقدم له موضوعاً مثيراً في مسيرة الإنسانية في طموحها لبناء ما تراه ملكاً خاصاً لها أو تدعيه كملك.

وكل ما نظم إليه أن نأخذ الخطوط الكبرى وما يعتبر أساسياً من ألوان هذه الصورة في سياق ذي عرض ما يريد توكيده في ألوانه الكبرى وأفعال الصورة في سياقها الفني وصدقها الفني سواء ما كان متخيلاً أم حقيقياً تاريخياً أم موضوعاً وهو الأدب على كل حال.

والترك كما يعرض سعد زغلول في دراسته عنهم وهو يحاول أن يتلمس أصولهم ويبحث عن نسابهم:

« فليس المقصود بالترك جنس خاص من أجناس شعوب آسيا الوسطى، وإنما المقصود كل جماعات منطقة السهوب هذه، من أنواع البدو، الذين عرفوا في إيران قديماً باسم الطورانيين، والذين يشملون الأتراك بشعوبهم المتعددة، وأسمائهم المختلفة مع ينتسب إليهم من قبائل المغول والتتار بفروعهم المتنوعة وأسمائهم المختلفة وتقسيماتهم العديدة. وبالتالي فكل مجالات البدو ومسارحهم في آسيا الوسطى هي بلاد «الترك» المعروفة في اللسان الفارسي بـ «تركستان»⁽³⁾.

أما إبراهيم الداقوقي المتخصص بالأدب التركي فيقول في تعريفهم من خلال ما يراه في دراساته العديدة:

« الأتراك هم من الأقوام العريقة التي ظهرت في التاريخ، وهم من الأقوام الطورانية التي تسمى علمياً عائلة «أورال ألتاي» كالمغول والبلغار والمجر والفنلنديين، ولعل أقدم ذكر لهم هو ما ورد في التوراة، حيث أشارت إلى ملوك عوص «UZ» وهم ملوك الغز الأتراك⁽⁴⁾.

فالترك أقوام طورانية لا خلاف في ذلك، وطنها الأم آسيا الصغرى - كما هو متفق عليه - وقد احتكت هذه الأقوام بالممالك القديمة التي جاورتها كالصين وإيران والرومان وغيرهم، وتطلق هذه التسمية في الأصل - كما يذهب بعضهم - على عشرين قبيلة يجمعها نسب خرافي - شأنها كشأن سائر الأمم - في ترك بن يافث ابن نوح، ولكل قبيلة بطون كثيرة، فهم أشبه بالعرب من حيث: توزعهم القبلي وفي طريقة معيشتهم البدوية، التي تقوم على الصيد والرعي والانتجاع طلباً للرعي والماء وكسائر البدو الرحل، وقد حكمت حياتهم المنازعات والخصومات التي تقود إلى الصراعات الدموية والثارات التي لا تنتهي، مما طبع حياتهم بالقسوة والصلابة وشدة البأس والخشونة.

ولهذا لم يكن لهم حظ من الحضارة والمدنية وقد بدا ذلك جلياً في فقرهم اللغوي وغياب مفردات كثيرة، خاصة فيما يتعلق بالزراعة، كما استعاروا الحروف من لغات أخرى كالصينية والعربية والسنسكريتية.

والمؤرخون يرون أن أقدم دولة للترك هي دولة القومانيين التي تأسست في آسيا في القرن الأول قبل الميلاد، وقد اتخذت عاصمة لها «قوموسا» بينما تذكر المدونات الصينية دولة «هيوغ - نو» كأقدم دولة أقامها الترك أجداد الهون الذين غزوا أوروبا في القرن الخامس الميلادي بقيادة زعيمهم الجبار «آيتلا» وقد رسم لهم المؤرخ «أميان مارسلان» صورة بارعة تذكر بالتركي وخصائصه الأساسية، حيث يقول:

« إنهم يندبون حدود أبنائهم حتى لا تنبت لحاهم وأن أجسادهم ربعة، والأعضاء العليا ضخمة، والرأس كبير يعطيهم شكلاً مخيفاً - ويتابع في وصفهم - وأنهم يعيشون كالحيوانات العجم، لا يطبخون، ولا يظهون الطعام، فهم يأكلون جذور النباتات البرية، واللحم الموضوع تحت سروجهم، وهم لا يعرفون الحرث والزرع، وليس لهم موطن استقرار⁽⁵⁾.

وهذه الصورة لا تختلف في كثير من مشاهدات الرحالة وكتابات المؤرخين ورواية الرواة، الذين وصفوا الترك أو مروا بهم في تنقلاتهم التجارية أو سفاراتهم السياسية، يقول الطبري:

« ولد يافث كل عظيم الوجه، صغير العينين - ثم يضيف - ليس في واحد منهم خير⁽⁶⁾.

أما المسعودي المؤرخ الكبير فيحاول الربط بين مميزاتهم وأثر البيئة في تكوينهم الجسدي والنفسي:

« إن تأثير كل بقعة من النامي في النباتات، وفيما ليس بتام كتأثير أرض الترك في وجوههم وصغر عيونهم، حتى أثر ذلك في جمالهم، فقصرت قوائمها، وغلظت رقابهم، وابيض وبرها»⁽⁷⁾

ويبدأ ياقوت الحموي حديثه عنهم بالحديث النبوي كمقدمة لما يريد أن يخلص إليه من تصور:
« الترك أول من يسلب أمتي ما خولوا...»⁽⁸⁾
ثم يعدد صفاتهم بقوله:

« لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه، صغار العين فطس الأنوف، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة...»⁽⁹⁾
ولا يبالغ كاتب مبالغة الجاحظ في وصف الأتراك فهو يقول:
« إنه لولا الحاجة إلى النوم لما نام التركي... على أن نومه مشوب باليقظة ويقظته سليمة من الوسنة...» ويتابع:

« وللتركي أربعة أعين، عينان في وجهه، وعينان في قفاه...»
ويريد بذلك الإشادة بقدرته على الإصابة بسهمه وسرعة حركته... « فإذا أدير فهو السم الناقع، الحتف القاضي...» والتركي عنده خفيف، فليس لبدن التركي على ظهر الدابة ثقل ولا لمشيته على الأرض وقع⁽¹⁰⁾...

ويظهر من رسالة الجاحظ أنه كان يريد من ورائها التقرب من الوزير التركي الفتح بن خاقان، لذا جاءت حول الصفات الجسمانية، والخاصة العسكرية. لكن العمل الأهم كان رسالة أحمد بن فضلان مبعوث الخليفة إلى بلاد الترك والصقالية والروس، فدون ملاحظاته وما شاهده أثناء تنقله من صور وعادات وتقاليد ومعتقدات.

فالرسالة تبدأ بوصول كتاب ألتش بن يلطوار ملك الصقالية إلى الخليفة المقتدر يسأله فيه البعثة إليه بمن يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبنى له مسجداً، فيقع خيار الخليفة على ابن فضلان الذي ينطلق من بغداد عاصمة الخلافة مع حاشيته يقطع الحواضر والبلدان حتى يصل خوارزم التي يتلأأ أميرها بالسماح لهم بالرحيل ضناً بدمائهم وخوفاً عليهم، وبعد مفاوضات يأذن لهم بمتابعة السفر، فيصلون إلى المجرانية حيث يبدأ ابن فضلان في تدوين ما رآه بريشة فنان تخدمه اللغة والصورة والخيال حيث يقول في أناسها:

« وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً، كلامهم أشبه بصياح الزرازير...»⁽¹¹⁾

أما عن طبيعة المكان فيقول ابن فضلان:

« فرأينا بلداً ما ظننا إلا أنّ باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة، وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بزه قال: تعال إليّ نتحدث، فإن عندي ناراً طيبة...»⁽¹²⁾

ثم يتابع طريقه لا يلوي على شيء حتى يفضي إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية..
« وإذا هم بادية، لهم بيوت شعر، يحلون ويحلون ترى منهم الأبيات في كل مكان، ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هم في شتاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة، لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئاً...»⁽¹³⁾

ويضيف بعد ذلك:

« ولا يستنجون من غائط، ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء...»⁽¹⁴⁾
أما وضع المرأة في تلك المجتمعات التركية فيقول في وصفه:

« ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، كذلك لا تستر المرأة شيئاً من بدنهما عن أحد من الناس، ولقد نزلنا يوماً على رجل منهم، فجلسنا وامرأة الرجل معنا، فيينا هي تحدثنا، إذ كشفت عن فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا وقلنا «استغفر الله» فضحك زوجها وقال للترجمان « قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه، وتصونه فلا يوصل إليه، هو خير من أن تغطيه وتمكن منه...»⁽¹⁵⁾

ولعل من أطرف الصور التي نقلها إلينا ابن فضلان صورة التركي وهيئته حيث يقول:
« والترك كلهم ينتفون لحاهم، إلا أسبلتهم وربما رأيت الشيخ الهرم وقد نتف لحيته وترك شيئاً منها تحت ذقنه وعليه البوستين فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس...»⁽¹⁶⁾

ويقف ابن فضلان في بلاد الباشغرد فيقول فيهم في دقة التوصيف وملاحظة الجزئيات:
« ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم «الباشغرد» فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شرّ الأتراك وأقذرهم وأشدّهم إقداماً على القتل، يلقي الرجل الرجل منهم فيفزر هامته ويأخذها، ويتركه، وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل، يتتبع الواحد منهم درز قرطقه فيقرض القمل بأسنانه...» أما عن عبادتهم فيقول: « وكل منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ويعلقها عليه فإذا أراد سफراً أو لقاء عدو، قبلها وسجد لها وقال: يا رب إفعل بي كذا وكذا...»⁽¹⁷⁾

ويصل ابن فضلان بعد مشاق ودسائس وأهوال إلى هدفه من البعثة التي كلف بها فترى ملك الصقالية على عكس ما مرّ بنا يعيش حياة حضرية، يأكل اللحم المشوي، ويجلس على سرير من الديباج الرومي ومع ذلك يراهم ينزلون إلى النهر عراة، رجالاً ونساء، فيغتسلون ولا يستتر بعضهم من بعض.

هذه هي الصورة التي رسمها ابن فضلان عن التركي الذي جاء فيما بعد كحرس في سلك
الجيش جيش المعتصم، ثم تدرّج بعد ذلك إلى قائد فأمير للأمراء فسلطان فخليفة... رحلة لا
زالت آثارها في الوجدان والذاكرة والتاريخ
ومن ثم الأدب... العربي والعالمي...

* * *

القسم الأول
صورة التركي في الأدب العربي الحديث

ثلاثة هم أصل الفساد:

القمل

والأتراك

والجراد.

عبد الرحمن الكواكبي

الفصل الأول

الملوك

من الحرسى إلى أمير الأمراء

. ليست ظاهرة الرقّ حديثة أو طارئة على المجتمعات الإنسانية.

وإنما هي موعلة في القدم، عرفتها الشعوب والأمم منذ زمن بعيد رغم وجهها البشع، وقد لعب الرق دوراً خطيراً سواء على المستوى الإيجابي أم السلبي، فكان الأرقاء أداة بناء ونقل معارف وعلوم من شعب إلى آخر، كما كانوا جنوداً في الجيش ارتقوا إلى مناصب رفيعة أحياناً، ومن جهة أخرى كانوا وسيلة هدم وتفكيك للأسرة والمجتمع وعاملاً من عوامل الفوضى وبث الرعب.

ومن الشعوب القديمة التي عرفت الرقّ الفينيقيون والرومان واليونان والمصريون والعرب، وتعددت طوائف الرقيق بتعدد مصادره وهي: «الحرب والفقر والجريمة والخطف وتباينت النظرة إليه...»⁽¹⁸⁾

والرقيق «إنسان تحول بالرقّ إلى مال يتصرف به مالكة كتصرفه بشيء من أشياءه، فله أن يبيعه، ويؤجره، وله أن يرهنه وأن يوصي به ويورث عنه إذا مات، غير أنه يتميز عن سائر الأموال في أنه ذو روح... وإدراك وأنه يفعل ما يؤمر به، فكانت الفائدة منه أكبر، ولذلك كان الرومان يعدونه من الأشياء النفيسة. وبالرق تسقط حقوق الرقيق القانونية فلا يحق له أن يتصرف في شيء حتى في نفسه لأنه مملوك في نفسه وبدنه»⁽¹⁹⁾...

وقد قام الأرقاء بانتفاضات وثورات لا زالت تروى كالأساطير كثورة العبيد في مصر الفرعونية، وفي اليونان، وفي روما، وفي صقلية وأشهرها ثورة «سبارتاكوس»، أما في الدولة الإسلامية فأشهرها ثورة الرنخ التي ما زالت تثير الكثير من الإشكالات عند الدارسين من حيث النظرة إليها بين مؤيد ومعارض.

ولكن الأرقاء أو المماليك كما تطلق عليهم كتب التاريخ والأدب لعبوا دوراً بالغ الخطورة في الحياة العربية منذ أن بدأوا يتسللون إلى داخل المجتمع وما يهمننا منهم هو العنصر التركي الذي فاضت به الأسواق أسواق الرقيق حتى بدا وكأن السماء تمطر تركاً.

وسنعرض لصورته كما رسمتها الرواية العربية في تجليلتها وبواكيرها ونبدأ بجرجي زيدان.

* * *

تظل الجهود الروائية التي بذلها جرجي زيدان

علامات مهمة ورائدة في مسيرة الرواية العربية وهي تشق طريقها نحو التكوين والإستواء والنضج. وعلى الأخص الرواية التاريخية لما في تاريخنا من إشكالات وتداخل في الروايات والأخبار والمناهج، وهذا الجهد لا ينكر، سواء من الذين كانوا معه أم خالفوه لسبب أو لآخر، فمن العسف أن نؤاخذ الكاتب لضعف الرواية التاريخية أو الخبر التاريخي لأنه هنا في موقف آخر يلعب الخيال دوره ليكون الصدق فنياً وإلا حملناه ما لا طاقة له به.

من هنا نقول: إن زيدان بجهده الممتاز قد طور محاولات البستاني قبله فأخرجها من الحكاية البدائية إلى القصة التي تحاول أن تبذل جهداً لتكون فنية فالحادثة التاريخية عند جرجي زيدان تمتزج بالأدب الروائي لتؤسس للقصة التاريخية التي فتنت على يديه أجيالاً من القراء وجدت فيها متعة ولذة وما زالت تقرأ حتى اليوم وتجد لها صدى بين شريحة واسعة من هواة القراءة والأدب.

وسنعرض لبعض الروايات التي نراها ذات صلة بموضوعنا فنبدأ برواية:

• عروس فرغانة⁽²⁰⁾:

يعلن جرجي زيدان منذ البداية كعادته عن هدفه من الرواية بإيجاز واختصار محدداً الفترة الزمنية، والمكان الذي تجري فيه الأحداث حيث يقول عن روايته هذه:

« تتضمن وصف الدولة العباسية وعاصمتها « سامرا » في عهد المعتصم بالله، وطمع الفرس في إرجاع دولتهم، ونهوض الروم لاكتساح المملكة الإسلامية... »⁽²¹⁾

ثم يعقب بعد ذلك « بفذلكة » تاريخية. على حد تعبيره. يعرف من خلالها بفرغانة التي هي مدينة كبيرة على حدود تركستان ثم يعرض لسنة فتحها وسكانها الذين هم أخلاط من الفرس والأتراك والطاجين - وهم السكان الأصليون - والهنود.

في فرغانة هذه تبدأ الخيوط الأولى للرواية حيث يستعد أهل المدينة للاحتفال بعيد النيروز بنصب الأعلام والزينات وتعليق طاقات الرياحين على الأبواب، وقد أوقدت النساء النيران لإعداد الأطعمة والحلوى.

وسط هذا الهرج والزينات والحشود يتقدم موكب جليل يلفت النظر بجلاله وخطورة شأن صاحبه، إنه المرزبان « طهماز »، رجل فارسي من أشرف قومه فَرّ بدينه ومعتقه إلى فرغانة، وله صبي « سامان » وفتاة « جهان » وهي جميلة فرغانة وعروسها.

وتتوالى الأحداث، وتبرز شخصية جديدة، ضرغام الشاب الوسيم والشجاع، الذي يلفه غموض في النسب، ذلك الغموض الذي يشكل لغزاً جذاباً في العمل الروائي، تقول عنه الخيزران رداً على سؤال جهان:

« يقولون عنه إنه مثال الشجاعة وكرم الخلق، عدا جماله وعلو همته وكبر نفسه ولكنهم يتساءلون عن نسيه وأنا أذكر أمه عندما أتت إلى فرغانة تحمله، وكانت في إبان شبابها جميلة الطلعة وقد خطبها غير واحد من أهل فرغانة فأبت أن تتزوج وانصرفت إلى تربية ابنها، فقد كانت على فقرها لشديدة العناية به، ثم سمع سيدي المرزبان بخبرها فدعاها إليه وسألها ما خطبها فتكتمت في بادئ الأمر ثم ذكرت أنها أخذت طفلة من حضن أمها في بادية الترك ونشأت في منزل أحد النخاسين في العراق حتى انتهت إلى رجل من أهل تلك البلاد

أعتقها فتزوجها ثم توفي قبل أن تضع حملها..» (22).

وضرغام يتدرج في خدمة المعتصم حتى يصل مرتبة رفيعة في الحرس شأنه في ذلك شأن أمثاله ممن يتجهون إلى العمل في الجيش يقول خلال لقائه بالمرزبان المتشوق إلى أخبار بغداد:

« قال:- نعم يا سيدي وقد وصلت إلى فرغانة مساء أمس

قال:- وكيف فارقت القوم هناك؟

قال:- فارقتهم في شغل شاغل بالمشكلات وكل واحد يخاف صاحبه ويحذره ويستعين عليه بجند من غير جنسه وإنما سبق للجند التركي.

فقال: علمت أن الخليفة الجديد المعتصم بالله استعان في تأييد خلافته بأخواله «الأتراك» فأعانوه وفي جملتهم الأفشين ملك أشروسنه وأنت.

فسره أن قرن المرزبان اسمه باسم الأفشين فقال: إن الأفشين عون كبير للخلافة وأما أنا فلا أستحق الذكر، فقطع المرزبان كلامه قائلاً:- إن مستقبلاً مجيداً ينتظرك لما أعلمه من بسالتك وعلو همتك، إنك لنعم القائد البطل ولا شك أنك تقدمت في جند الخليفة.

قال:- نعم أصبحت بفضل مولاي رئيساً للحرس.

قال:- حرس الخليفة؟ قال:- نعم يا سيدي. (23).

وهنا يرسم لنا جرجي زيدان صورة الحرس التركي الذي اتخذته المعتصم درعاً لدولته وبدأ ضاربة لكل حركة تمرد فيقول على لسان ضرغام:

« قال: كانوا يقيمون بها إلى عهد غير بعيد، ولكن البغداديين ضاقوا بهم، لأنهم

كانو يؤذون العوام في الشوارع، وربما قتلوا بعضهم في الأسواق...» (24)

وفي مكان آخر يقول جرجي زيدان في معرض حديثه:

« وكان المعتصم قد ترك بغداد، وبنى مدينة « سرّ من رأى » أو « سامرا » على مسافة خمسين ميلاً ليقيم بها رجاله الأتراك وغيرهم فكانت المدينة الثانية من مدن بني العباس وقسمها إلى قطائع أقطعها لرجالها وهم فرق تنتسب كل فرقة منهم إلى مواطنها فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الأتراك، وبعضهم من فرغانة وبعضهم من أشروسنه أو غيرها وجعل على كل جماعة قائداً وأشهر قواده الأفشين وأصله من ملوك أشروسنه واشناس وكان في الأصل مملوكاً لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه، وإيتاخ، وسما، وكانا مملوكين أيضاً...»

ويأتي الأفشين لزيارة فرغانة فينافس ضرغام على قلب جهان حيث يلتقي سراً بمبعوث من بابك الخرمي أحد أكبر أعداء الدولة وخصوم المعتصم، ثم يقيمه المرزبان وصياً على أهله بعد موته، ويحرم سامان من الإرث فيبدأ بالكيد ويسلم أخته لبابك الخرمي ويكذب على ضرغام وتتوالى الأحداث مزيجاً من الوقائع التاريخية والخيال حتى يسقط « البذ » معقل بابك الخرمي

ويقتل بابلك وتفتح عمورية بعد ذلك ويتكشف في النهاية دور الأفشين وازدواجيته فيحاكم ويسجن ويموت في سجنه جوعاً. أما ضرغام فيزول غموض نسبه فإذا به ابن الرشيد وآخر الخليفة المعتصم.

وشخصيات جرجي زيدان ما عدا المعتصم والأفشين والمازيار وبابلك وأحمد بن أبي دؤاد شخصيات خيالية وقد بدت شخصية التركي في عمله هذا شخصية نمطية فالممالك الذين قدموا من مواطنهم شراء أو خطفاً أو بأية وسيلة أخرى كانوا يحملون خصائص عامة كالإيذاء والكيد والتأمر والغدر والفساد، وكان شرهم موجهاً للعامة ولكن هذا الدور مع مرور الزمن المملوكي سيتطور ويتلاحق، ويصبح هؤلاء الأرقاء خطراً جليلاً على الدولة والحلفاء وليس على العامة فقط وإذا كان المعتصم بما ورث من قوة الشخصية قادراً على وضع حدّ لهم من خلال عزلهم وتلبية رغباتهم - وعلى الأخص الجنسية - من خلال تزويجهم من نسوة تركيات.. جلبن بالطريقة نفسها «الشراء»:

« ومن أغرب الوسائل التي تذرّع بها الخليفة لإبقاء الجند قوياً كما هو الآن أنه

أبعده عن أهل البلاد ومنع رجاله أن يتزوجوا منهم، ورأى أن يزوجهم بنات تركيات ابتاعهن من تركستان وقد أرسل وفداً لا يتبايع هؤلاء الجوّاري... »⁽²⁵⁾.

وتظل رواية عروس فرغانه عملاً جذاباً فيه الكثير من الجهد لإبراز مرحلة من أخطر المراحل في تاريخنا لما فيها من تحولات عاصفة دفننا ثمنها غالياً على كافة المستويات.

وتظل شخصية « التركي » فيها شخصية عامة تعبر عن شعب إختار الرقّ طريقاً إلى السلطة، والعبودية وسيلة للجلد، وإن فيما بعد إلى رصد الشخصية التركية كفرد لكنه يظل يحمل خصائص المجموع.

وفي رواياته اللاحقة نرى ذلك واضحاً.

• أحمد بن طولون⁽²⁶⁾

يعتبر ابن طولون بحق أول السلاطين الأتراك « الصعاليك » الذين اختاروا الرق وسيلة للوصول إلى السلطنة بعد مرحلة الحرسى التي رأيناها إبان عهد المعتصم... فهذا المملوك ابن المملوك الذي أدمت أذنيه أصابع النخاسين ونجار الرقيق وسامه الغنى والمفلس في أسواق النخاسة، وتعرض لما تعرض له أمثاله ممن يسرت لهم الأقدار الوصول إلى الحلم الوردي ليمارسوا أغرب سلطة في التاريخ حيث بات الأرقاء المملوكون أصحاب الأمر والنهي بينما عاش الأحرار والسادة تحت حكم عبيدهم يتجرعون كؤوس الذل والمهانة في ظروف من الطغيان والعسف لا مثيل لها.

في عهد ابن طولون كاد حتى دور الخليفة أن ينتهي فلمرة الأولى تنفصل أئمن دوة في تاج الخلافة وتتمرد على السلطة المركزية في بغداد، وتدللّ عليها بما لها من ثروة وجيش.

من هنا نرى جرجي زيدان يعرض مرحلة ابن طولون تلك من خلال روايته مولفاً بينها وبين حكاية حب بين سعيد الفرغانى المسيحي ودميانة بنت مرقص الذي ينافس على حبها اسطفانوس بن يوحنا كاتب المادرائى صاحب الخراج.

أما المكان الذي تدور فيه هذه الأحداث في البداية فهو قرية « طاء النمل » بمديرية الدقهلية في أصيل يوم من أيام سنة 264/ للهجرة، وتتوالى الأحداث ليتساوى ويتداخل ما هو تاريخي بما هو متخيل، وتختلط الشخصيات التاريخية بأشخاص الكاتب المتخيلة في نسج فني يغلب فيه التخيل.

وجرجي زيدان يوسّع من دائرة المكان لتشمل مصر وبلاد النوبة كما نرى فسيفساء أقوامية ودينية مختلفة من ترك وبدو وقبط ونوبة، ومن مسلمين ومسيحيين.. وككل قصص الحب والغرام والمغامرات التاريخية يعرض لنا جرجي زيدان مصائر أبطاله وصراعاتهم ولكن ما يهمنا شخصية ابن طولون وكيف عرضه يقول:

« كان لابن طولون في الإحسان يوم مشهور، يعرف بيوم الصدقة تفتح فيه أبواب القصر كلها، لا يمنع داخل ولا يردّ سائل، وكانت صدقاته على أهل الستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجميل متواتره وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار⁽²⁷⁾ »

وابن طولون الذي له هذه الفضائل في الكرم والجود يلجأ شأنه شأن المعتصم إلى بناء القطائع بعيدة عن الأمكنة الآهلة بالسكان المحليين ليقيم مجتمعاً متجانساً ومعزولاً عن العامة لمحايلته يقول على لسان أحد شخصياته:

« قال:- لما أفضت حكومة مصر إلى ابن طولون هذا، وهو تركي الأصل وجنده أتراك، كان عرب الفسطاط (قصة المسلمين بمصر) لا يقبلونه إذ يرون أنهم أصحاب الدولة وفيهم ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلامية وكانوا في أول الإسلام يرون الأتراك والفرس ومن إليهم من الأمم الأخرى أقل منهم ويسمونهم الموالي، فلما تغلب العنصر التركي في بغداد على أيام المعتصم انحط شأن العرب وخرجت مقاليد الدولة من أيديهم وتولاها الأتراك والفرس وغيرهم وصار العرب ينظرون إلى هؤلاء بعين البغض والحسد، ولم يعد ابن طولون القيام بينهم فعزم على أن يبنّي لنفسه بلداً يجعله معقلاً له ولجنده فابتنى بين الفسطاط والمقطم قطائع أنزل فيها رجاله...» (28)

نعم كان أحمد طولون - وهو ما يذكره التاريخ أيضاً - جواداً كريماً وعادلاً مستبداً ولكن يخفي تحت ذلك طبعه الذئبي فهو سريع إلى سفك الدماء يحب العزلة، عزلة الذئب مع قطعانه، ويجب أن يعلن عن نفسه من خلال البذخ والعمران وهذه من خصائص المعتصم أيضاً لذا يطمح إلى بناء مسجد ليس له مثيل ليعبر عن واحدة من نزواته ولا يجد من يقدر على تنفيذه سوى سعيد الفرغاني.

وتنتهي الرواية كمعظم روايات المغامرات نهاية سعيدة بزواج سعيد من دميانة.

• شجرة الدر (29)

تستمد هذه الرواية أهمية خاصة بين أعمال جرجي زيدان كونها تؤرخ لحقبة من أخرج ما مرّ في تاريخنا، تحولات عاصفة تركت بصماتها على ما جاء بعدها من مراحل وأحداث.

فالصليبيون نزلوا السواحل المصرية في حملة جديدة يقودها لويس التاسع ملك الفرنسيين، وقد استولوا على « دمياط » والملك الصالح بن الكامل يحتضر في فراشه، وقد كتمت إحدى جواريه خبر موته حتى حضر ابنه طوران شاه وتقلّد الحكم مكانه والحدود الشرقية مهددة بخطر المغول بينما الخليفة العباسي يقصف ويلهو وبغداد تكفيه.

والأهم من كل ذلك أن الرواية كانت شاهداً على سقوط آخر ملوك الأيوبيين في مصر ونهاية آخر خلفاء العباسيين في بغداد وصعود أول ملكة في الإسلام على عرش مصر، وسقوط نجم المماليك الأتراك كقوة غالبية ومسيطرة لها إمتيازاتها التي تكاد تكون مطلقة.

والمماليك الأتراك كان قد أكثر من شرائهم الملك الصالح ليكونوا قوة له وقد جمع منهم نحو ألف مملوك، وعلى طريقة المعتصم وابن طولون بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة أسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلاً من قلعة القاهرة، فلما مات وضعفت السلطة كانوا قوة على خلفائه فسفكوا الدماء واستحلوا المحارم وعاثوا فساداً.

* * *

تبدأ الرواية بالشخصية الرئيسة فيها شجرة تجلس على مقعد من الأبنوس في شرفة بأحد قصور الملك الصالح التي بناها في جزيرة الروضة ومعها جارية من اختراع مخيلة الكاتب سماها «شوكار» تسامرها في جلستها وتبثها شجونها وقلقها:

« قالت :- ولكن الناس لا يذعنون للسلطان إلا إذا كان من الأسرة المالكة أسرة آل أيوب، ولولا ذلك لهان الأمر، ولو كان طوران شاه هذا عاقلاً لاستقام الأمر، ولكنه غلام جاهل أحمق، يشرب الخمر فإذا سكر فعل ما لا يفعله الأطفال. بلغني أنه يصف الشموع في الليل أمامه ويأخذ السيف بيده، ويضرب به تلك الشموع ويقول (هكذا أفعل بالمماليك البحرية) يعني ممالكنا الأتراك وما برح منذ جاءنا - ولم يمض عليه شهران - يفضل مماليكه الأكراد الذين أتوا معه على ممالكنا، ويعرض ذلك في

مجالسه مع أن النصر في حروب الإفرنج إنما كان بفضل أبطالنا ولا سيما: عز الدين أيك، وركن الدين بيبرس، وسيف الدين قطز وأمثالهم، فأخاف أن يطول النزاع ويغتتم العدو فرصة تفرقنا فيكر علينا»⁽³⁰⁾

وتختتم شجرة الدرّ بثّها هذا بجملّة غامضة وراءها هدف:

«- ولكنني دبّرت تدبيراً إذا أفلح سلمنا من الخطر...»⁽³¹⁾

ولا تلبث طويلاً حتى يستأذن حرسى شاب من أمراء المماليك جاء يفيض حيوية، إنه ركن الدين بيبرس استأذن في إبلاغها رسالة تحمل في طياتها خيراً، ويا له من خير، طوران شاه المعظم قتل، وكان قتله على أيدي المماليك جهاراً، ويصف لها مقتله:

«... فلما كان صباح اليوم جلس في موكبته والأمراء والأكراد وأصحابه بين يديه، ورؤوس النواب واقفون أمامه بعصي كسيت بالذهب، كأنه يقول لنا إني سلطانكم رغم أنفكم، فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وبقي وحده وحضر السماط، فجلس عليه على العادة، فتقدم جماعة منا بأيديهم السيوف، فضربوه على أصابعه فقطعوها، فقام وهرب ودخل البرج الخشبي وأغلق عليه بابه فأطلقنا النار على البرج فخرج منه وألقى نفسه في البحر، وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول: «خذوا ملككم ودعوني أرجع إلي حصن كيفا»، فلم يغتنه أحد وما زال على ذلك حتى قتل فكأنه مات حريقاً غريقاً قتيلاً، فأخرجناه من البحر وتركناه على الصعيد، وسيبقى كذلك حتى لا يعرف له قبر...»⁽³²⁾

إنها نهاية عهد، وبداية عهد جديد، عمده سيوف المماليك الأتراك بالدم، دم مليكهم وابن سيدهم وولي نعمتهم، تناوشته سيوفهم فمزقته إرباً إرباً وذلك بالتواطؤ مع شجرة الدرّ نفسها.

« وقد خاب من دسّاهها... »⁽³²⁾

. هكذا حكمت على نفسها أول ملكة في الإسلام فبعد طقوس القتل التي مارسها فرسانها من قتل وحرق وغرق، كان لا بدّ من ترتيب البيت من الداخل وتوزيع الغنائم على الشركاء سواء أكانوا من العارفين أم من المتورطين لربح طارئ، فكان من نصيب عز الدين أيك منصب مدبّر المملكة إضافة إلى كونه المرشح الأول للزواج من الملكة، وكان من نصيب الشاب الناشط ركن الدين منصب الداودار ووعد بالزواج من « شوكار » الجميلة، وتباينت حصص الباقيين ممن شاركوا في المجزرة كل على حسب مكانته:

« وقبيل الفراغ من الاحتفال أشار عز الدين إلى بعض الوقوف من الداودارية فمضى وعاد ومعه الأطباق عليها صرر النقود، فأخذوا يوزعونها على الحضور، وعلى كل صرة اسم صاحبها، ولما هم الحضور بالإنصراف وقف عز الدين أيك وقال: - أيها الأمراء إن مولاتنا ملكة المسلمين اقتضت إرادتها أن تنقل دار السلطنة من جزيرة الروضة إلى هذه القلعة وستكون هذه القلعة مقرّ أرباب المناصب بدلاً من قلعة الملك الصالح في الروضة لأن السبب الذي من أجله جعلها الملك الصالح المرحوم كرسياً للسلطة قد زال... »⁽³⁴⁾

ولكن هل استتب الأمر وقضي؟!

لقد أرسل الخليفة المستعصم بالله، القابع في بغداد بين جواريه، العاكف على ملذاته بناء على مكيدة دبّرتها إحدى جوارى الملك الصالح الكرديّات كتاباً بعزل شجرة الدرّ وتنصيب أحد أطفال البيت الأيوبي مكانها وجعل عز الدين وصياً عليه، فاختلضت الأوراق من جديد ثم انتقلت أحداث الرواية لتبرز لنا ما يجري في دار الخلافة من تبذل وفلتان فالخليفة غارق في ضعفه وملذاته وابنه وولي عهده أرعن طائش ووزيره ابن العلقمي يعاني من إضطهاد أبناء ملته وقد أوشك على فقدان صبره لذا يتوجه إلى هولاء كوسيلة للخلاص وهو حلّ تفوح منه رائحة الخيانة.

وتتوالى الأحداث فيحضر ركن الدين إلى بغداد بحثاً عن شوكار فيرى مدى الضعف والفساد وانتشار الدسائس والمكائد يتوجّ كل ذلك بحضور هولاء إلى بغداد للقاء الخليفة ولقاء ركن

الدين بالجارية الكردية سلافة التي تحمل إليه خبر موت عز الدين أيك خنقاً في الحمام بأمر زوجته شجرة الدرّ، ونهاية شجرة الدرّ على أيدي الجوّاري بأمر علي بن أيك وتدوس خيل التتر آخر خليفة عباسي في بغداد ويبدأ الخراب المنتظر خراب بغداد.. ويرحل بيبرس مع آخر من بقي من البيت العباسي الإمام أحمد.

ويختصر الأحداث جرجي زيدان.. فالتتر يتقدمون إلى سورية وأمراء مصر يلتقون بهم بعد أن عاد هولاكو إثر موت أبيه ويكون النصر لهم، ويهتبل بيبرس الفرصة فيقتل قائده قطز ليحل محله مؤكداً على أن الخلافة حق موروث أما السلطة فللأقوى.

● استبداد المماليك. (35)

في هذه الرواية يشي العنوان بالمضمون بشكل مباشر لا يحتاج إلى تأويل أو تمحل فالرواية « تشرح أحوال مصر وسوريا في أواخر القرن الماضي وحكم علي « بك » الكبير، ومعاصريه من ممالك مصر وأمراء الشام والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الأمور السياسية والإجتماعية... » (36)

مما يفرح القلب أن تتواجد في تلك المرحلة بعض الأفكار التنويرية المبكرة والتوجهات من خلال تلك الكلمة الصغيرة التي يعبر فيها الكاتب عن رؤيته فيعرض لمصطلح « السياسية والإجتماعية » هذا التلازم الذي يعتبر البدايات لتلمس الشخصية - إن لم نقل القومية. فعلى الأقل الوطنية وهو ما يضع الحد الفاصل بين ما هو ديني وبين ما هو سياسي إجتماعي على الأقل، هذا التلازم الذي يعطي بامتياز لتلك المرحلة سمة أو اسم « التنوير ».

فجرجي زيدان بإحساس الفنان الملهم يوجد همته إلى طبقة تعاني من القهر والابتزاز أكثر من سائر الشرائح الاجتماعية الأخرى. فالمماليك بعد أن شيعوا من أذى العامة في بغداد والشام ومصر، وبعد أن رووا سيوفهم من دماء الخلفاء والسلطين اتجهوا نحو تلك الطبقة الصاعدة طبقة التجار من خلال أسرة التاجر عبد الرحمن (37) الذي يبدأ يوماً ليس عادياً في حياة تاجر ثري:

« أمضى السيد عبد الرحمن نهاره حتى العصر مشرفاً على العمل في متجره بوكالة الصابون كعادته، وكان ذلك في يوم من أيام 1770/ م فلما سمع أذان العصر، أشار إلى خادمه، فجاء بسجادة فرشها على دكة في ركن من المتجر ليصلي عليها العصر بعد أن توضع لهذا الغرض.

ولم يكد السيد عبد الرحمن يبلغ الدكة وهو يتمتم ببعض الأدعية ويحمد الله على ما أولاه إياه من النعم والخيرات، حتى لحق به أحد الكتبة في المتجر، وأنبأه بأن بعض موظفي « الحكومة » جاءوا يطلبون مقابلته، فاستعاذ بالله من ذلك، لعلمه بأن هؤلاء الموظفين لا يأتون إلا لطلب ضريبة أو إعانة أو توقيع عقوبة مالية بغير ذنب ولا جريمة » (38).

ويسرف السيد عبد الرحمن النظر عن الصلاة حتى لا يهيج غضبهم وانتقامهم ويتوجه إليهم وكانوا ثلاثة: الجامي (39) وهو في زي المماليك، والثاني جندي يحمل في يده دفترًا والثالث

الكاتب.

فلما دخل عليهم بالغ في تحيتهم والترحيب بهم ثم أمر لهم بالقهوة والغليون فردّ عليه الجاني بغلظة وغضب بأنهم لم يأتوا لشرب قهوته وإنما جاؤوا يطلبون « حقوق الدولة ».

« فقال الجاني: مطلوب منك أن تدفع ألف نصف مساندة للحملة الذاهبة لنجدة

شريف مكة بعد أيام. »⁽⁴⁰⁾

ورداً على سؤال عبد الرحمن:

« هل هذا المال مطلوب فوراً؟ »⁽⁴¹⁾

استشاط الجاني غضباً وضاعف المبلغ فوراً فطلب عبد الرحمن من كاتب المتجر إعداد المبلغ فأعده ومع ذلك صاح به الجاني محتداً:

« لقد أبطرتكم النعمة، ألى هذا الحد بلغ جهلكم وغروركم وقلة إنسانيتكم أم

حسبتم أننا عبيد لكم أو خدام عندكم... »⁽⁴²⁾

وبعد رجاء واعتذار قدّم عبد الرحمن « حقّ الطريق » ثم رشوة خاصة للجاني ومن معه وهو واجب « مقدس ».

وتوالى الظلامات على التاجر المسكين ويدفع غرامات وهمية من مال وسلع وحين ينصرفون متوعدين:

« فاستعاذ السيد عبد الرحمن بالله من ذلك الظلم المبين وراح يندب سوء حظ

مصر ونكبة أهلها بحكم الممالك المستبدين... »⁽⁴³⁾

وقبل أن يغلق عبد الرحمن متجره في يومه غير العادي ذلك يعاود الجاني مع جماعة من الجند فيسليه مالاً جديداً وسلعاً جديدة بحجة إعفاء ابنه الوحيد من السوق إلى الخدمة العسكرية مع الحملة الذاهبة إلى الحجاز. وما إن يغادروا الوكالة بغنائمهم الثمينة حتى يسارع إلى إغلاق متجره، والتوجه إلى منزله وفي يده مصباح من الورق يستعين به على تبين الطريق، وحين يقترب من الحارة يلاحظ أن باب الحارة مفتوح، ثم يسمع شخيراً تبين أنه شخير البواب الجريح الذي يتهم بقتله من قبل رجلين يتنازل لهما عن كل ما يملكه من أوراق ونقود وثياب ويغادرانه في حالة من الإذلال والذهول بملابسه الداخلية ولا يقف النحاس عند هذا الأمر في يومه غير العادي هذا، ففي منزله تنتظره مصيبة أخرى:

« ورأى الجوّاري محلولات الشعر، يلطمن وجوههن ناديات معولات وعلم منهن أن زوجته وحدها في غرفتها، وأنها تكاد تكون غائبة الوعي كأنما أصيبت بالذهول أو الجنون. وذلك لأن عساكر الممالك جاءوا إلى المنزل منذ قليل وهم سكارى وقبضوا على ولدتهما حسن وسافوه إلى الديوان تمهيداً لتجنيدته وإرساله إلى الحرب »⁽⁴⁴⁾.

وتبدأ رحلة العذاب والمذلة والحزن.. رحلة الضراعات والوساطات وإهانات العسكر في الطريق

حتى يصل في النهاية إلى القلعة مع المعتقلين من أبناء حارته بتهمة قتل البواب مرة أخرى وهناك:
« وهمس جاويز منهم قائلاً للمتهمين الموثقين » إن جناب الوالي (رئيس الشرطة)
لا ييالي إذا » دفع » كل منكم نصف كيس مساهمة في دية القتل فقد يقبل إعادة
النظر في أمركم ويعفو عنكم...»⁽⁴⁵⁾.

ولكن هل انتهت رحلة التاجر عبد الرحمن في يومه غير العادي هذا؟ لقد ساقهم العسكر إلى
مقر الآغا « محافظ المدينة » في القلعة بحجة إتمام التحقيق:

« كان هذا الآغا طويل القامة، هائل الجسم، على رأسه عمامة بيضاء هرمية
الشكل، وعلى كتفيه العريضتين فرو سمور، وهو كثر اللحية عريضها، تدل نظراته
الشرراء على أنه فظ غليظ القلب فلما دخلوا عليه أمر بجلدهم قبل أن يسمع أي
شيء فأخذوا يتضرعون إليه ويستعطفونه مترامين على قدميه يحاولون تقبيلهما
فركلهم وقال لهم محتاراً » إما أن تذكروا من القاتل، وإما كنتم القاتلين وحق عليكم
أشد العقاب...»⁽⁴⁶⁾.

وبعد التي واللتيا كتب لهم الخلاص من شر «الآغا» بعد أن دفعوا ما تيسر من المال فخرجوا
وهم لا يكادون يصدقون أنهم نجوا، وخطر للتاجر عبد الرحمن أن ينتهز وجوده في القلعة
ويذهب لمقابلة «الباشا»:

« ثم تردّد في تنفيذ هذه الفكرة لأنه لا يعرف اللغة التركية والباشا لا يتكلم إلا بها
ولا يعرف العربية ولكنه تذكر أن الباشا لا بد أن يكون لديه مترجم خاص...»⁽⁴⁷⁾.

وزايله تردده فمضى إلى قصر الباشا فهاله عظم بابه وكثرة الحجاب الواقفين به وحين استأذن
في الدخول قاده حاجب إلى الكتبخدا (نائب الباشا) فعرض قضيته ومترجم خاص ينقلها إليه
بالتركية حتى انتهى فوعده الكتبخدا خيراً لكن النحس يبدو أنه ظل ملازماً عبد الرحمن فما كاد
يخرج من القلعة وهو فرح مطمئن القلب حتى:

« بصر بموكب قادم إلى قصر الباشا يتقدمه شيخ ذو لحية طويلة راكباً على حمار،
وعلى رأسه عمامة غريبة الشكل، فسأل بعض الجنود عمن يكون هذا فقال أحدهم،
إنه أبو طبق لعنه الله...»⁽⁴⁸⁾.

ويتبع التاجر عبد الرحمن الموكب وأبو طبق « الأوضه باشي » يتقدمهم حتى دخل القصر
وكان الباشا يجلس مطرقاً وعلى رأسه عمامة فوق القاووق وعلى جبهته فرو سمور ويده مذبذبة من
ليف النخل، ويقف أبو طبق ليقرأ عليه قراراً أصدره المماليك بعزله ووضع قصره وكل ما فيه تحت
إمرتهم. ثم يغادر وخلفه موكبه كما جاء ويسقط عبد الرحمن في هوة عميقة من يأس وحزن.
ولم يجد عبد الرحمن في كربته من مخرج سوى اللجوء إلى الشيخ السيد المحروقي، فيلجأ إليه
لعل وعسى، وحين يستمع إلى قصته يهز رأسه بألم:

« فقال: » ومن عجب أنهم يدعون الإسلام، والإسلام بريء منهم ومن أعمالهم التي لم يأت مثلها الفراعنة والمجوس...»⁽⁴⁹⁾.

ويتوجه السيد المحروقي معه ليصل إلى علي بك الكبير « شيخ البلد » الذي يستمع إلى قصته، وإكراماً للشيخ يقرر إطلاق سراح الابن علي أن يحل الأب محله ويدفع عشرين كيساً وهكذا يكون. فيرحل عبد الرحمن مع الحملة المتوجهة إلى الحجاز بقيادة محمد بك أبو الذهب صهر علي بك، وفي الليلة الثانية ينسل هارباً، ليلجأ إلى عكا.

وتتوالى الأحداث والمصائب ويتمزق شمل الأسرة بين لبنان وعكا والقاهرة ليجتمع في نهاية الرواية أما باقي الأحداث التاريخية فمعروفة عن حملة محمد أبو الذهب نجدها في كتب التاريخ.

● المملوك الشارد⁽⁵⁰⁾:

وفيه نهاية الممالك بعد مسلسل الظلم والطغيان هذا على يد محمد علي باشا الذي أراح الشعب منهم ليبدأ مشروعه التنويري والتحديثي ومن هنا تأتي قيمته لأن شخصية التركي تتوارى على المستوى الفردي فكل عمال محمد علي من الكرد والأرناؤوط والشركس لأسباب لا تهّم خطة البحث الأدبي.

• الانقلاب العثماني⁽⁵¹⁾.

. في هذه الرواية يعلن جرجي زيدان كعادته عن قصده ونواياه وهدفه المرجو من عمله الأدبي، فيقول « تتضمن وصف أحوال الأحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية وما قاسوه في طلب الدستور.. ووصف يلدز وقصورها وحداثتها وعبد الحميد وجواسيسه وأعدائه وسائر أحواله إلى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في 23 يوليو سنة 1908 »⁽⁵²⁾.

بمعنى آخر هذه الرواية وصف للمشهد الأخير لنهاية الرجل المريض الذي عاش يحتضر مدة طويلة وقد حانت نهاية وخاتمة الفصل الأخير للإمبراطورية العثمانية العلية.

وتبدأ الرواية بوصف للمكان الذي تدور فيه « سلانك أو سالونيك من أكبر مدن المملكة العثمانية وقد اشتهرت بنيل الدستور على أيدي أحرارها وهي واقعة على البحر، وسكانها نحو 150 ألفاً، منهم ستون ألفاً من اليهود، والباقيون من الأتراك والأروام والمقدونيين والألبان وسائر الأجناس والسبب في كثرة يهودها أنهم نزحوا إليها من اسبانيا، كما نزحوا إلى الأستانة وغيرها ولا يزالون يتكلمون لغة الأسبان.»⁽⁵³⁾.

في حدائق سلانك هذه يلتقي رامز وهو شاب متنور من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بشيرين التي كانت برفقة والدتها، وشيرين فتاة جميلة ساحرة وذكية، تحب رامز وتخاف عليه مما يكتبه في الصحف، ويدور بين الاثنين حوار عن الأحوال السياسية وهنا تقول توحيدة والددة شيرين محذرة « اسكت يا عزيزي » إن للشجر آذاناً وقانا الله كيد الكائدين..⁽⁵⁴⁾.

وهي بذلك ترسم بعبارتها مبلغ الرعب والخوف الذي يطارد الناس في دولة مزروعة بالظلم والجوايسيس والقتل فيها بالظن وعلى الشبهة، وعند الغروب يحضر طهماز والد شيرين وبرفته شاب يدعى صائب بك يمثل الجيل التركي المحافظ على خصوصيته التركية فيقول عنه: فالتفت رامز فرأى طهماز ومعه شاب يعرفه من أيام المدرسة حسن البزة، قد أرخى لحيته على الطراز التركي، وعلى عينيه نظارة مذهبة، وقد ارتدى ثوباً أسود تعلوه « الستامبوليا » التي يلبسها الأتراك في المواقف الرسمية..⁽⁵⁵⁾.

ويجتهد صائب بك أن يلفت نظر شيرين بما أخذ يقصه من أحاديث عن نفوذه في دوائر الحكومة لكن ذلك لم يزددها إلا نفوراً منه، وبعد رحيله مع طهماز الذي وعده برتبة ستانيه بعد

أيام قليلة. أوى إلى غرفته في الفندق وقد أضمر التنكيل برامز ليتسنى له الوصول إلى شيرين، وبعد أن بدّل ثيابه تنازل قرطاساً وأخذ يكتب عن رامز وأعماله ضد الحكومة تقريراً قصد به ناظم بك قائد جند سلاينيك ذا العلاقة المثينة بالقصر وقال له « قد كشفت للذات الشاهانية عن شاب عنده كل أسرار الجمعية وهذا تقرير الذي كتبت في هذا الشأن فأطلب إليك باسم جلاله البادشاه أن تقبض عليه وتحبسه وتبعث إلى القصر بخبره تلغرافاً وهذه صورة التلغراف » عثر صائب بك على أحد كبار أعضاء الجمعية الجهنمية، وقد قبضنا عليه وننتظر الأمر بشأنه. » (56).

وتمّ الأمر وقبض على رامز وبدأت المصائر تأخذ مسارها والدسائس تكشف عن نواياها بشكل مبطن يليق بمرحلة عنوانها ظالم ومظلوم، قاهر ومقهور نُبل ودنس وكأحد أخوة يوسف سأل صائب بك طهماز الطامع إلى رتبة ومكانة وشرف:

- كيف فارقت رامزاً؟

فهزّ رأسه وقال: « فارقتاه بعد ذهابك بقليل.

فأصلح صائب نظارته على عينيه، وحك لحيته ثم أخذ يلعب عصاه بيده وقال « إنه شاب لطيف لكنه كثير الغرور بنفسه، فعسى ألا يجزّ غروره ضرراً عليه وعليكم، لأن الجاهل عدو نفسه، وقد كنت ولا أزال راغباً في مساندته إكراماً لبيتكم إنه ينتسب إليكم على ما أظن. » (57)

ثم يبدأ التخلّي فيتصل طهماز عن رامز ويعدّه مجرد ابن خالة شيرين ولا يهمه أمره لكي يحقق ما يصبو إليه من الوصول إلى الرتبة الموعودة، ويبدأ صائب في البحث عن أسباب لإعلان ما يتوق إليه ويتوجّ ذلك بإخراج « غلبة السجائر المذهبة » لتأكيد سطوته وما يريد قوله من أن شيرين تستحق رجلاً نبيلاً.. كامل الأوصاف، ويأتيه الجواب من طهماز « وأنت كامل الأوصاف يا صائب بك... » (58) ثم يبدأ الإعلان بعد التلميح متوجّاً بموافقة صريحة من طهماز.

وتستمر أحداث الرواية صعوداً ويتفاهم بين العائلة نفسها فطهماز وصائب في حزب هو حزب لسلطة والمصلحة والانتهازية وشيرين وأمها ورامز في حزب هو حزب المعارضة والحرية وتتوالى الأحداث يلقي القبض على رامز بناء على وشاية صائب وتخفي شيرين من المنزل مع خادمها حريستو الألباني مما ضايق صائب وهدد مخططاته بالفشل.

وسيق رامز إلى دار التحقيق مخفوراً وقد صودرت أفعه وكتاباتهِ وياشر التحقيق معه ناظم بك الذي أرسل برقية إلى الأستانة تقول بالقبض على رامز. أعضاء الجمعية وضبط أوراقه وتسأل عما يجب أن يفعلوا به وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى الأستانة ليصفها قائلاً:

« كانت الأستانة دار الخلافة ومصدر متاعب الأحرار ومرجع آمالهم وفيها قصر يلدز مدفن لأفكار الحرة، وبؤرة الجواسيس، ومسرح أهل المطامع والأغراض، وقد خصها الله بموقع طبيعي لا مثيل له، لأنها موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين... » (59).

ويتابع الكاتب وصفه للأستانة ثم يتوقف عند يلدز:

أما يلدز فليست قصرأً واحداً فخماً كما يتبادر إلى الذهن، وإنما هي قصور عدّة تتفاوت قدراً وجمالاً متفرقة بين الخماثل والغابات والبساتين والبحيرات على غير نظام...»⁽⁶⁰⁾.

ثم يخلص في النهاية:

« وهذه القصور التي أنفقت الأموال لتشييدها بغير حساب وأريقّت في سبيل بنيانها وزخرفها الدماء، قد أقيم على أبوابها وفي طرقاتها وحول أسوارها ألوف من الرجال الأشداء بأسلحتهم وأفراسهم وعيونهم كالشهب وقلوبهم كالرجم، وقد جردوا السيوف وأغمدوا الضماير وباعوا الآخرة بالدنيا لحماية رجل واحد لا تقع العين عليه إلا بعد إختراق الأبواب وتسلق الأسوار، يحسبه غير العارف متمتعاً بأشهى ملاذ الحياة وهو محروم مما يتمتع به أصغر رعاياه مع مخاوفهم ومظالمهم، أنهم ينامون بلا حراس وإذا خافوا نزوحاً وبلاد الله واسعة، أما هو فلا يستطيع نزوحاً لأنه يخاف على حياته من كل أحد حتى من أعوانه وحراسه، ومن أولاده ونسائه، يخاف من طعامه وشرابه، يخاف من فراشه ووساده لا يستقر به مضجع ولا يهدأ له بال...»⁽⁶¹⁾.

نعم إنه عبد الحميد مزيج غريب من البشر، من الخوف والجبروت، السلطة والضعف الدموية والتدين، الفسق وإدعاء القداسة (الخليفة)، المحصن والمكشوف القاهر والمقهور، الصديق والعدو، القلق والأمان سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين.

ونراه داخل قصره الحصين يتحرك مهموماً، يستمع إلى تقارير جواسيسه في طول البلاد وعرضها من « السرخفية »، وبعد أن يتمتع بفصل ضاحك من مهرجه الذي كان جاسوساً على حريمه نراه يستشيط غضباً لأن القادين ج إحدى محظياته قد حملت وهو الحريص على ألا يتم ذلك خوفاً من نبوءة تقول إنها ستلد ولداً يكون شؤماً عليه إضافة إلى ذلك فهي من طائفة طالما حمل لها السلطان مشاعر الكراهية والحقد، هي « الطائفة الأرمنية ».

« قال ألا تعرف أنها أرمنية الأصل؟

قال: يظهر ذلك من شكل أنفها وملامح وجهها، وأظن هذا السبب في نفور مولاي البادشاه منها.

قال: لا لا ليس السبب في ذلك أنها أرمنية، أو أنني أكره هذه الطائفة بعد ما كان من تمردهم ودسائسهم ولكن...؟»⁽⁶²⁾

ثم يبرز لنا الكاتب تناقض هذه الشخصية الغريبة فبعد أسطر يعود السلطان إلى القول:

« اسمع يا نادر أغا يقولون إن والدتي أرمنية الأصل.

قال: نعم يا سيدي هكذا يقولون.

فقال السلطان: فكان ينبغي أن أحب الأرمن من أجلها.

فقال: نعم أفندم.

فأخرج السيكار من فيه وتنهّد وقال: ولكنني أكرههم لأنهم ألدّ أعدائي»⁽⁶³⁾

ومن خلال الحوار الذي يستمر بين السلطان ونادر آغا نكتشف أصل تلك النبوءة التي تنبأ بها له منجم من أهل صيدا اسمه عبد الرحمن، هذا الرجل بشره بالسلطنة لكنه حذره من عشيرة أمه وهكذا كان يطارد الأرمن ويحاذرهم ويحمل لهم الحقد والكراهية ويحترس منهم، فكانت مذبحة الأستانة.

كما نكتشف إحدى طرق التجسس للسلطان على كبار رجال دولته الذين يشك في ولائهم فقد كان يرسل لهم الجوّاري والمخبطيات كهدايا لينقلن له أسرارهم إذ يعتمد إلى استعادتهم من جديد، وقد كانت القادين ج واحدة منهن استخدمها للتجسس على أهلها وبني جلدتها وها هو اليوم يريد أن يضحّي بها والسبب ورقة صغيرة، فالقادين ج حامل من السلطان، والورقة تقول:

« لا ينبغي للسلطان أن يطمئن لأهل أمه بعد أن طاردهم وذبحهم فإن ما كتب في صحائف الدهور كائن والخطر سببي من طفل أمه أرمنية وأبوه سلطان..»

بعد كل هذه العرض لما يجري في يلدز يعود بنا الكاتب إلى رامز الذي وصل إلى الأستانة مع أوراقه التي أرسلت إلى السلطان وظل هو قيد التوقيف في قصر مألطة، وحين يعجزهم في الوصول إلى شيء يعهد السلطان إلى عزت باشا بالتحقيق معه، إلغزت هذا ذكاء ودهاء جعله موضع ثقة السلطان خاصة وقد أنقذه من عواقب مذبحة الأرمن، ويستدعي عزت باشا رامز إلى قصره وبعد حوار طويل يرفض رامز أن يقول ما يريد قوله إلا للسلطان بالذات ويستجاب طلبه ويقابل السلطان وبعد حوار وشرح يعاد إلى سجنه ولا يعلم أن شيرين قد لجأت هي الأخرى إلى السلطان الذي يقابلها ويستمع إلى كلامها الذي يتشابه مع كلام رامز ثم يطلب من نادر آغا بعد ذلك أن يخفيها عن الأنظار يرثما ييت في أمرها ثم يلعب السلطان لعبته مستغلاً سذاجة رامز وتحمسه فيرسله يعرض على أعضاء الجمعية الاجتماع به فيخفق

أما شيرين فيكلف القادين ج الإهتمام بأمرها والكشف عن دخيلة نفسها حين يسلمها إليها. ورغم كل محاولات عبد الحميد المستميتة لإيقاف تدهور وإنحلال الامبراطورية فالنهاية مرسومة.. ونعرف ما حدث بعد ذلك من إنتفاضات وثورات في كل مكان.. وكانت النهاية حين أسدل الستار على الفصل الأخير من حكاية الرجل المريض الذي عاش على الدم والجريمة والغدر والبطش فقط كجدار متداعٍ ليحدث دويّاً وخراباً جميلاً له ما بعده.

الهوامش:

(1)- يراجع بشأن ذلك: رنية غروسيه «جنكيز خان» ترجمة: خالد أسعد عيسى: نشر دار حسان دمشق 1982

(2)- رسالة ابن فضلان. تحقيق الدكتور سامي الدهان - إصدار وزارة الثقافة - دمشق .

(3)- سعد زغلول عبد الحميد - الإسلام والترك في العصر الإسلامي الوسيط مختار من عالم الفكر (1) -

- دراسات إسلامية - 1984 ص 146 .
- (4) - إبراهيم الداقوقي - عالم الفكر - المجلد الثالث عشر - العدد (1) - الأدب التركي ص 57 .
- (5) - سه' رغلول عبد الحميد - من استشهاداته - المرجع السابق .
- (6) - المرجع السابق نفسه .
- (7) - المرجع نفسه .
- (8) - المرجع نفسه .
- (9) - المرجع نفسه .
- (10) - المرجع نفسه .
- (11) - ابن فضلان - رسالة ابن فضلان - تحقيق الدكتور سامي الدهان . مطبوعات وزارة الثقافة - دمشق 1978 .
- (12) (13) (14) (15) (16) (17) المرجع نفسه .
- (18) - «الرق» . د. عبد السلام ترماني. سلسلة عالم المعرفة. الكويت.
- (19) المصدر نفسه .
- (20) - جرجي زيدان - عروس فرغانة . المكتبة الأدبية بيروت .
- (21) - المرجع نفسه .
- (22) - عروس فرغانة - جرجي زيدان ص 13 .
- (23) - عروس فرغانة - جرجي زيدان ص 33 - 34
- (24) - المصدر نفسه .
- (25) - عروس فرغانة - جرجي زيدان ص 31
- (26) - جرجي زيدان - دار مؤلفات زيدان - بيروت لبنان.
- (27) - ابن طولون - جرجي زيدان ص 77 .
- (28) - المصدر نفسه ص 11- 12 .
- (29) - شجرة الدر - جرجي زيدان - دار الهلال - القاهرة .
- وشجرة الدرّ في الحقيقة شخصية يعترّ أصلها بعض الغموض فمنهم من يرى أنها تركية ويذهب آخرون - وهو الأرجح - أنها أرمنية . أما جرجي زيدان في الرواية فقد عدّها تركية .
- (30) - شجرة الدر - جرجي زيدان - ص 13
- (31) - شجرة الدرّ . ص 13
- (32) - المصدر نفسه ص 16
- (33) - آي من القرآن. سورة الشمس (10)
- (34) - شجرة الدرّ ص 39
- (35) - جرجي زيدان - استبداد الماليك - المكتبة الأدبية - بيروت .
- (36) - المصدر نفسه: ص 1
- (37) - شخصية متخيلة .
- (38) - جرجي زيدان - استبداد الماليك ص 5
- (39) - ينتمي الجاني إلى السلطة الثالثة التي رأى السلطان سليم أن يجعل إدارة مصر مقسمة إلى ثلاث سلطات، سلطة الباشا الوالي الذي يرسله عن الأستانة أو سلطة البكوات من بقايا الحكام ومعظمهم من

الأتراك، وسلطة الوجاقات وهي القوة العسكرية ممثلة بالإنكشارية كقوة رئيسة ومن واجباته الضرائب والإعانات والقرامانات وغير ذلك ...

- (40)- المصدر نفسه ص 7
- (41)- المصدر نفسه ص 7
- (42)- المصدر نفسه ص 8
- (43)- المصدر نفسه ص 10
- (44)- المصدر نفسه ص 16
- (45)- المصدر نفسه ص 21
- (46)- المصدر نفسه ص 22
- (47)- المصدر نفسه ص 23
- (48)- المصدر نفسه ص 24
- (49)- المصدر نفسه ص 27
- (50)- جرجي زيدان - المملوك النشارد - المكتبة الأدبية - بيروت .
- (51)- الإنقلاب العثماني - جرجي زيدان - المكتبة الأدبية - بيروت .
- (52)- المصدر نفسه ص 2
- (53)- المصدر نفسه ص 3
- (54)- الإنقلاب العثماني ص 7
- (55)- المصدر نفسه ص 7-8
- (56)- المصدر نفسه ص 10
- (57)- الإنقلاب العثماني - جرجي زيدان. ص 10- 11
- (58)- المصدر نفسه ص 11
- (59)- المصدر نفسه ص 43
- (60)- المصدر نفسه ص 45
- (61)- الإنقلاب العثماني ص 48
- (62)- المصدر نفسه ص 72
- (63)- الإنقلاب العثماني ص 72

على باب زويلة^(١)

كان لكتابات جرجي زيدان التاريخية - كما أسلفنا - مذاقها الخاص وهو مذاق البواكير على ما فيها من جهد ممتاز وريادة واجتهاد وإيدان بإطلالة فجر القصة التاريخية العربية، هذا الفن الوليد الناشئ الذي بدأ يتلمس طريقه إلى الظهور مع بدايات الدعوة النهضة العربية ممثلة بأبرز دعائها ووجوهها المعروفة.

لكن هذا الفن في مسيرته الدؤوبة للارتقاء والتقدم اتخذ على يد الكاتب محمد سعيد العريان مجرى أعمق، وكان له مذاق جديد هو مذاق النضج وامتلاك الأدوات الفنية، فارتقى من الحكاية البسيطة والخبر التاريخي إلى القصّ الفني بشروطه الراقية، ولا أدلّ على ذلك من شهادة الدكتور طه حسين في تعريفه بالكتاب:^(٢)

”كتاب رائع بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها في آن واحد، كتاب نادر من هذه الكتب النادرة التي تظهر بين حين وحين فتحيي في النفوس أملاً وتردّ إلى القلوب ثقة واطمئناناً لأننا نشعر حين نقرأه بأن الحياة الأدبية في مصر ما زالت خصبة قوية قادرة على الإنتاج أو الإنتاج القيم الممتع...“

وقد نتساءل: من أين تأتي قيمة هذا الكتاب؟ والرأي مرة أخرى للدكتور طه حسين، ولرأيه مكانة كبيرة، تبوأها بما عرف عن آرائه من تمحيص وموضوعية وسلامة منطق وحجاج. يقول:^(٣)

”وقد أراد الأستاذ العريان أن يعرض طرفاً من تاريخ مصر. من تاريخها العسير المؤلم الذي تكثرت فيه الحوادث وتلتوي بالمؤرخين وبقراء التاريخ جميعاً، وهذا الطرف هو الذي يمثل انقضاء سلطان المماليك في مصر، وزوال الاستقلال المصري بأيدي الفاتحين من الترك والعثمانيين...“

نعم فقدت مصر كما فقدت كثير من الدول العربية استقلالها لتبدأ مرحلة من أشدّ مراحل تاريخنا العربي ظلمة وجهلاً وتخلفاً لا زلنا إلى يومنا هذا ندفع ثمنها ونحمل مغارمها.

من هنا يكتسب هذا الكتاب قيمة فنية وتاريخية كما يعرض من جهة أخرى صورة من أصدق الصور عن سيرة المماليك وأقدارهم التي قادتهم إلى مصائر ذاقوا خلالها ثمرة مجيد ما حلموا به

وهوان لا يتصوره عقل بشري فمنهم من وقع في الرق مرغماً ومنهم من اختاره بنفسه كوسيلة للوصول إلى السلطة والمجد.

"على امتداد الطرف في أرجاء الغور المنبسط بين جبال القبيج، القوقاز كانت تقيم قبيلة من أشد قبائل الشر كس بأساً وأعزهم نفساً، وأقواهم شكيمة في الحرب والسلم وأحرصهم على الغلبة وإدراك الثأر.." (4).

إذن يبدأ الكاتب قصته من الغور الذي كان برأي الدكتور طه حسين:

"مستودعاً يجد فيه تجار الممالك مادتهم من الرقيق الذين يختطفون أو يختلسون، أو يؤخذون عنوة ثم يجلبون إلى القاهرة، ليتعلموا فيها فنون الحرب والحكم، ثم ليصبحوا جنداً وقادة وأمراء وملوكاً وسلاطين.." (5).

وهكذا كان الأمر فطومان الصغير الذي ذهب به خاطفه من حضن أمه الحزينة "نوركلدي" من مضارب عشيرته في الغور إلى بلاد الروم وفي خان يونس في ظاهر مدينة قيسارية من تلك البلاد حيث كان ملتقى لكثير من تجار المشرق الغادين أو الراحين إلى حلب ودمشق والقاهرة أو إلى أرمينية وبلاد الكرج وما وراء الجبال. هناك كان يأوي أبو الريحان الخوارزمي بفلمانه، وأبو الريحان لم يكن تاجراً من تجار الرقيق بالمعنى المعروف بين التجار وإنما كان "نحاساً" جاسي القلب، يسرق أبناء الحرائر وبناتهن ليبيعهم في أسواق الرقيق، وهو الذي جاء بطومان من حضن أمه مع رفيقته مصرباي الحاملة الصغيرة الجميلة.

وتبدأ سيرة الغلامين مع بيعهما إلى تاجر جديد هو جقمق الأشرفي نسبة إلى الأشرف قايتباي الذي وكله بشراء الممالك لحسابه، ليكون منهم جيشاً قوياً يردّ به عادية الأمراء الطامحين إلى السلطة، ولا سلطة آنذاك إلا للقوي القادر.

وتبدأ خطوات الزمان تدبّ، فيباع طومان إلى أمير القلعة في حلب ثم يمضي مع سيده الجديد الذي سيصبح عمه فهما من المكان نفسه، ويصعد سلم المجد خطوة خطوة مع صعود نجم مولاه حتى يرقى ذلك الرجل - وهو مملوك سابق، مثله مثل طومان - سدة الحكم ويصبح حاكم مصر، ويصبح طومان مستشاره الأمين ثم خليفته حين يتوجه لحرب العثمانيين.

ويخسر السلطان حربه مع ابن عثمان الذي يتابع طريقه إلى مصر والقاهرة، وقبل مغرب شمس سقطت القاهرة في أيدي العثمانيين (6)...

"فلما كان يوم الجمعة خطب في مساجد القاهرة باسم السلطان سليم خان ابن بايزيد العثماني، ملك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وخادم الحرمين الشريفين.." (7)

ولم يستسلم طومان لابن عثمان خاض حرباً ومناوشات ضد السلطان سليم الذي لجأ إلى طريقة أسلافه في حروبهم... (7)

"وطيف برؤوس القتلى من عسكر السلطان طومان باي منصوبة على سوار من

خشب في شوارع القاهرة ينادي أمامها المنادون، وألقيت سائر الجثث في النيل، فلم تأت ليلة المولد حتى كان في كل درب من دروب القاهرة مآتم ونواح..."

وحين يطبق الجند في النهاية على طومان باي ويحمل إلى السلطان فيقف أمامه شامخاً مرفوع الرأس وبعد حوار عاصف ومشاورات يأمر به ليعاقب على الطريقة العثمانية الرحيمة دائماً "بالصلب على باب زويلة".

وجلس على عرش مصر خائن ترفرف على رأسه الراية العثمانية.

الهوامش:

- (1) - على باب زويلة - رواية - محمد سعيد العريان - دار المعارف بمصر.
 - (2) - مجلة الكاتب العربي - أبريل 1947.
 - (3) - مجلة الكاتب العربي - أبريل 1947.
 - (4) - على باب زويلة - ص 13.
 - (5) - المصدر السابق نفسه ص 8.
 - (6) - على باب زويلة ص 326.
 - (7) - المصدر نفسه ص 348.
- عرض لنهاية طومان باي ، محمد فريد أبو حديد في قصته "آخر السلاطين" من مجموعته "مع الزمان".
- يمكن الاستفادة منها والرجوع إليها ففيها وجهة نظر أخرى.

قطر الندى^(١)

قد يكون هذا الكتاب صالحاً لإتمام ما بدأه جرجي زيدان في روايته "أحمد بن طولون" بل تأخذ شخصية ابن طولون مساحة غير قليلة. وقد توالى فصوله مع مرحلة من أهم وأخرج مراحل تاريخنا العربي حيث التمزق والافتتال والمنازعات الداخلية والأهواء والضعف المذل.

وهو يروي قصة فتاة عاشت في مصر، ولدت لأب ملك وجدّ ملك وكان أخوها ملكاً. وكانت هي ملكة على عرش بغداد ولا زال عرسها الأسطوري إلى اليوم في الذاكرة تردده المأثورات الشعبية في الأعراس وهو حلم كل فتاة "الحنة.. الحنة.. الحنة يا قطر الندى" نداء فاجع يدل على مبلغ ما دفعناه في تاريخنا من غرم فادح وثمن باهظ ودم ثقیل.

يبدأ الكاتب روايته بالفصل الأول بعد المقدمة وقد عنوانه "أحمد بن طولون" وفيه وصف لهذه الشخصية وعصرها:

"وكان أبوه طولون من عمال السلطان لعهد الخليفة المتوكل، فلما مات أبوه فوّض إليه الخليفة ما كان بيد أبيه من أعمال السلطان وقد كان أمر الدولة كله يومئذ إلى الموالي من الترك والعجم.." ^(٢).

ويتابع الكاتب وصفه التاريخي لتلك المرحلة..:

"وقتل المتوكل على سريه بأيدي مواليه من الترك والعجم، وتولى بعده ابنه المستنصر فلم يستتم على سريه بضعة أشهر ثم هلك وبويع بالخلافة بعده ابن عمه المستعين، وبلغ الموالي مبلغهم في الطغيان والعسف واجتمعت لهم أسباب السلطة حتى لا يكاد الخليفة يملك مخرجاً ولا مدخلاً، ولزم قصره في بغداد يتربص بنفسه كيد الموالي، ويتربصون به.." ^(٣).

وسارت الحوادث وكان باكبك التركي هو السيد الأمر في قصر الخليفة المعتز، فسأله أن يشرفه ولاية مصر: فولاه. فأناوب عنه ابن طولون.. ولكن مامعنى ولاية مصر؟:

"كانت مصر يومئذ أئمن درة في تاج الخليفة يباهي منها بما يملك لا بما يحكم، فليس يعنيه من أمرها إلا مقدار ما يؤدى إليه من خراجها وما يهدى إليه من طرائفها، وكذلك كان اعتبارها في أعين من يتقلدها من الولاة، فهي عندهم ضيعة للاستغلال

لا شعب يقتضي حسن الرعية..”(4)

وبدأ نجم ابن طولون يعلو وساعدته الأحداث التي توالى سراعاً وهمته العالية، فقتل الخليفة المعتز وبويع المهتدي بالخلافة، ثم قتل بأكباك وآلت إمارة مصر من بعده إلى يارجوخ التركي صهر ابن طولون فأقره على ما بيده وبسط له الرقعة فامتدت ولايته إلى الاسكندرية والصعيد وبرقة. وقتل المهتدي وتعاقب الخلفاء بعده يقتل بعضهم بعضاً أو يقتل الأتراك بعضهم ولم تمض سنوات حتى كان لابن طولون في مصر عرش وسلطان:

”وإنه ليفتن كل يوم فنوناً في تحصيل المال، حتى لقد فرض الضرائب على الكلاّ المباح، ومسايد البحر، وصخور البرية..”(5).

وبعد أن يحقق حلمه في استقلال مصر وربطها اسماً بدار الخلافة المركزية يموت أحمد بن طولون وقد خلف لولده خمارويه دولة ثبتت أركانها على ثلاث دعائم: حب الرعية وقوة الجيش والغنى بالمال، وحين تقدم ليحصي ما خلفه من مال وجد في حساب الخازن:

”عشرة آلاف ألف دينار - (عشرة ملايين)، وسبعة آلاف مملوك، وبضعة عشر ألفاً من الأفراس والجمال والبغال ودواب الحمل، وبضع مئات من المراكب الخاصة والعامة وأربعة وعشرون ألف غلام، بينهم أربعة آلاف من السودان ذوي الأيد والنجدة، وعشرة آلاف بدره مختومة.. و...”(6).

عند ذلك خاطبه خمارويه طالباً إليه أن يوزع في الجند للبيعة رزق سنة - تسعمائة ألف دينار - باسمه اسم ملك مصر وبرقة والشام والثغور وجلس على العرش.

وفي الفصل الثاني المعنون (خمارويه ابن طولون) يبدو وكأن الكاتب يؤرخ للدولة الطولونية أكثر مما يتابع الحدث الروائي، استغفقه المؤرخ على عكس ما رأيناه في ”على باب زويله“ حيث العناية الشديدة باللغة والفن الروائي والمعمار الفني المتألق والجذاب.

وتمضي الأحداث وكانت ”ثورة الزنج“ قد استنفدت معظم مقدرات وقدرات الدولة المركزية، كما فتت الأحداث والفتن الأخرى من عضد هذه الدولة فبانَت مجهدة، لذا حين بدأت الحروب الداخلية بين الخلافة والطولونيين كان ابن طولون هو الأطهر لما عنده من ثروة وعدة ورجال وكانت الدسائس تنمو وتفترخ في الزوايا المظلمة وتنطلق لتعيث في جسد الدولة والكل لا يعبأ بغير مصلحته الخاصة ومن بعده الطوفان... وبعد حروب طويلة ومناجزات عسيرة استتب الأمر لخمارويه وعقد صلحاً مع الخليفة، ثم انصرف إلى مباهاج الحياة ومتعتها..

وهنا يستعرض الكاتب كيف تتحول دموع الشعب ودماءه وأوجاعه إلى ترف وقصور خيالية للسلطين:

”فما هي إلا أيام حتى تمّ بناء المجلس الذي اشتهته، وسماه الأمير ”دار الذهب“

وكانت داراً عجيبة لم تشهد لها الدنيا مثيلاً في قصر من قصور الملوك، قد طليت حيطانها كلها بالذهب واللازورد، في أحسن نقش وأبدع زينة، وجعل في حيطانها مقدار قامة ونصف صور بارزة من خشب محفور على صورة الأمير وصور حظاياه والمغنيات اللاتي يغنيهن في أحسن تصوير وأبهج تزويق وجعلت على رؤوسهن الأكاليل المرصعة من الذهب والجوهر وفي آذانها الأقراط الثقال ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة.⁽⁷⁾

وحين اشتكى الأمير إلى طبيبه كثرة السهر وطول الأرق وأشار عليه بالتكيس لم يطق أن يضع أحد عليه يداً.. لقد تحول الجسد الذي كان مملوكاً رقيقاً إلى "تابو" محرم للمس.. يستشرف عن بعد فقط.. لذا وضعت الحواجز والأستار ووضع الحجاب وارتفعت شرفات القصور ليبدو السلاطين منيعين حصينين وكأنهم من أبناء السماء لا من أبناء الأرض.

"فأمر بعمل فسقية من الزئبق تبلغ خمسين ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملأها من الزئبق جاء به وكلاؤه من المغرب وخراسان، لم يبخل عليه بثمن ولم تثقل عليه مئونه، وجعل في أركان بركة الزئبق سككاً من فضة خالصة، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة، ثم عمل فرشاً من آدم ينفخ بالمنفاخ حتى يمتلئ هواءً ويصير حشية من آدم وريح. فإذا انتفخ أحكم شده وألقي في الفسقية على سطح الزئبق وشدته زنانير الحرير إلى حلق الفضة، وينزل الأمير على ذلك الفراش في بركة الزئبق فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه... فإذا كانت الليالي القمرية كان ثمة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق وتنسرح الروح بين السماوين مصعدة في أودية الأحلام ولا يزال الزئبق تحت الأمير يرتج ويتحرك..."⁽⁸⁾.

ولكن ماذا في الجهة المقابلة؟ ما الذي يجري في بغداد عاصمة الخلافة ومركز الدولة؟

"أما أمر الدولة يومئذ في بغداد فكان مختلفاً جداً، فلم يكن ثمة ملاعب السباع ولا برج الساج ولا خرجات الصيد والطرود... لا شيء إلا الأمير السجين في عداوة بني طولون يكاد يخرج من جلده غيظاً، وإلا أبوه الكهل قد أضناه طول السفار لمجاهدة أعداء الدولة على أطراف البادية، وإلا الخليفة المعتمد بين الندمان والقيان يترشف ثمالة الكأس وإلا ولده وولي عهده من بعده "جعفر" المفوض لا يكاد من خموله وضعف همته يجري له ذكر على لسان أو يطيف بخاطر إنسان وقد خلت خزائن الدولة فليس فيها أبيض ولا أصفر..."⁽⁹⁾.

ويتوالى الخلفاء حتى يؤول الأمر إلى المعتضد فيتأهب خمارويه ويأخذ حذره ويعدّ للأمر عدته مبهين وبين الخليفة الجديد حزازات لم تمخها الأيام حين التقيا سيقاً لسيف، وقرّ قراره على أمر رأى به خلاص والنجاة والعزّ والسودد.

* * *

أما في الفصل الثالث المعنون "عروس من القاهرة" فيظهر لنا ما قد قرره خمارويه وأعدّه فلم يكبد الناس في بغداد يفرغون مما كانوا فيه من لهو ولعب يوم حتى بهرهم موكب قادم من مصر على رأسه الجوهري "الحسين بن الجصاص" وياله من موكب جذب انتباه بغداد كلها:

"وأقبلوا ينظرون "زرافة" قد أقبلت تنهادى من ورائه مستعلية برأسها في زهو وخيلاء، ووراءها بغل أشهب قد شدّ إلى ظهره صندوقان قد غلغا برقائق الذهب وأغلغا على ما فيهما من غيب لا يدرك سرّه، يتبعه عشرون نجياً عليها سروج محلاة بالذهب والجوهر وفوقها رجال قد لبسوا الديباج وانتطقوا مناطق محلاة لو سيمت منطقة منها في سوق الجوهر لكانت غنى من فقر أو فقر من غنى وبأيدي هؤلاء الركب جراب من فضة قد سال عليها شعاع أصفر كأنما خرجوا بها من معركة الشمس..."(10).

ويتوالى المشهد في استعراض بالغ للثروة وسلطة المال وهيبة المالك الذي يستعرض ما لديه عن رغبة ورهبة، فوراء كل ذلك عشرون بغلاً موقرة بأحمال من حرير دمياط وديق تيس ومن الغاليه والعرط والطرف الي لا توصف، يتبعها عشرة غلمان بيض من مولدة الروم، ورائهم خمس دواب بلجم من ذهب واثننا عشرة دابة بلجم من فضة ثم سبع وثلاثون بجلال مشهورة.. ويمضي الركب إلى القصر فتفتح له الأبواب ويمثل الجصاص بين يدي الخليفة يحمل رسالة خمارويه إليه ويعقد مجلسه للشورى وبحث الأمر، فابن طولون كشف عن مراده فهو يخطب ابنته قطر الندى إلى ولي العهد "علي" ابن الخليفة، وهو عليل ضعيف. ويكون ردّ المعتضد صاعقاً للمجلس فقد أعلن بعد كل المداورات وتقليب الأمور على وجوها أنه هو الذي سيتزوج قطر الندى، فقطع بذلك الطريق على ابن طولون فأنت تزوج سليلة طولون خليفة قوياً غير زواجها من خليفة في المستقبل ضعيف وهذا بيت القصيد.

ويبدأ الاستعداد للعرس الأسطوري، عرس قطر الندى:

" واجتمع لقطر الندى من الجهاز ما لم يجتمع لعروس قط وحسب الواصف أن يكون في الجهاز من أدوات المطبخ ألف هاون من الذهب ومن أدوات الثياب ألف تكة سروال ثمنها عشرة آلاف دينار، وكان بين الجهاز سرير أربع قطع من الذهب، عليه قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة..."(11).

ويمضي الركب بقطر الندى الجميلة إلى بغداد، فتزين لها المدينة المبهورة بكل ما تراه من ترف أسطوري وثراء لا يتعلّق به الخيال، وحين يلتقيها الخليفة المعتضد تتسلل كالنسمة الرقيقة إلى نفسه، وتتمكن بذكائها من أن تنبؤ قلبه، فينسى أمره مع أبيها، ولا يصحو إلا حين يأتيه نعي ابن طولون.. لقد مات خمارويه، وثب عليه غلمانه فقتلوه في قصره بأسفل

دير مروان بالشام، إنه ميراث الدم، ميراث الذئب الأغبر الذي يظلّ في دماء أولئك فإمّا قتلاً أو مقتولاً..

وفي عمر الورد تذبل قطر الندى.. تذوي ولا تلبث أن تلحق بأبيها تاركة في القصر وفي قلب خنيقة فراغاً قاتلاً.

* * *

الهوامش

- (1) - قطر الندى - رواية - محمد سعيد العريان - دار المعارف.
- (2) - المصدر نفسه ص 11.
- (3) - قطر الندى ص 13.
- (4) - المصدر نفسه ص 18.
- (5) - المصدر نفسه ص 27.
- (6) - قطر الندى ص 58.
- (7) - قطر الندى ص 154 - 155.
- (8) - قطر الندى ص 155 - 156 - 157.
- (9) - المصدر نفسه ص 157 - 158.
- (10) - قطر الندى ص 173 - 174.
- (11) - قطر الندى ص 212 - 213.

الأمير بدر الدين بيليك^(١)

قصة قصيرة من حيث الشكل لا تعدو بضع صفحات، تقرؤها في عجلة ولكن ما تتركه في النفس بعيد الغور، عميق المضمون، والدلالة، فهي قصة أهواء وضلالات ونزعات وحشية.. ولا أصدق من المقدمة التي وضعها كاتبها لها:

”عندما تعصف الأهواء بالحكمة.. كم من ضحايا ذهبت في سبيل الأهواء الصغيرة التي مهدت طريق الأمم المنحدر نحو الفناء...”⁽²⁾

والقصة أو الحكاية التاريخية هذه تقف على النقيض من كل الطبائع الإنسانية ومن كل ما عرفته حياتنا العربية التي قامت على كثير من الشيم والشمائل النبيلة من وفاء وكرم وحرمة ما زالت تتداولها كتب الأدب والتاريخ، وهي وإن جرت على أرض عربية، فإن أبطالها ليسوا من العرب.. إنهم من مماليك الترك الذين تسلموا إلى حياتنا فعكروا صفاءها، وحولوها إلى غابة. والقصة تروي عودة موكب السلطان بيبرس من غزوة مظفرة وقد حمل كثيراً من غنائم أرمينيا وأذربيجان وآسيا الصغرى والقوقاز ولكن السلطان لم يكن على رأس الجيش، وكانت المحفة البديعة المزركشة بالأبنوس والعاج والصدف تسير متتدة فوق أعناق الإبل والأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة يسير مطرقاً إلى يمين المحفة التي تحمل القائد الذي صرعه المرض. وحين اشتد الحر والتعب بالفرسان أمر الأمير بدق الكؤوس مؤذناً بوقوف الركب للراحة، وأنزلت المحفة في رفق، وحين انصرف الفرسان للراحة، رفع الستار عن المحفة وانحنى الأمير في خشوع وكأنه يحيي مولاه ولكن المحفة كانت خالية، وبعد قليل جاء إليه صديقه الأمير قلاوون صهر السلطان ومعه الطبيب، فعلا كما فعل بدر الدين ثم تراجعاً وأسدل الستار من جديد.. ثم سار الموكب بالمحفة الخالية والأمير بدر الدين يكشف عنها الستار في كل يوم مرتين ثم يذيع في الجيش أن السلطان في طريقه إلى العاقية. حتى بلغ الموكب إلى القاهرة وكان الأمير محمد بركة بن بيبرس ينتظر الموكب ومن حوله أمراء الدولة.. ودخل نائب السلطان مطرقاً وحيث.. وساد الصمت وفتح الحاضرون أعينهم دهشة حين رأوا نائب السلطان يحيي ولي العهد مثل تحية السلطان العظيم.. ورفع بدر الدين يديه بالدعاء قائلاً:

”حفظ الله مولاي وأحسن عزاءه” وشاعت الأنباء سريعة في القاهرة أن السلطان بيبرس قد

دفن في دمشق وإن الموكب كان يحيط بمحفة خالية، وبعدها اعتكف الأمير بدر الدين يستريح من سفره الطويل ولم يذهب لعزاء السيدة الوالدة في زوجها العظيم..

"جلس الأمير بدر الدين على مقعد في الصدر وجعل إيجيل بصره في التحف التي تحيط به، فهذه ستارة من الحرير المذهب من غنائم أنطاكية، وإلى جانبها جوشن أهدها إليه السلطان اعترافاً ببسالته في حرب التتار عند حلب، وذاك سيف يعيد إليه ذكرى قاسية، فهو سيف "ليفون" الشاب ابن ملك الأرمن الذي تصدى له في موقعة "سيس" على نهر الفرات وكاد يقضي عليه لولا أن عثر الجواد بالفتى فأوقعه على الأرض واكتفى بدر الدين بأن أخذ منه السيف بعد أن أسره.."⁽³⁾

وسط هذا العالم الأسطوري وما فيه من طرف وترف وأبهة ملكية كان يسبح بدر الدين وما يث أن جاءه رسول السلطان يدعوه إلى مقابلته وأسرع بدر الدين للمشول بين يديه مسروراً نعطف مولاه الحديد عليه الذي تلقاه بترحاب وبالغ في إكرامه حتى أذن له أن يذهب إلى قصر السيدة الوالدة ليعزيها بنفسه، وذهب بدر الدين ومن وراء الستارة رحبت به، شكرته على وفائه وإخلاصه وأرسلت إليه كأساً ذهبية على صينية رائعة الحسن لم تقع عين على مثلها، وكان في كأس شراب مثلج يفوح منه عطر زكي:

"وقالت السيدة من وراء الستار:

- هذا شراب صنعته بيدي أيها الأمير العظيم أقدمه لك إيفاء بحقك وآية مني على شكرك. فدعا الأمير لها وقبّل الأرض تحية لها ثم شرب الكأس، الكأس التي تعودت القصور أن تقدمها للذين يؤدون الخدمات الجليّة للسلطين حتى لا يبقى أحد يحس أن له فضلاً على سيد البلاد.."⁽⁴⁾

وفي اليوم التالي ارتجت القاهرة لجنازة الأمير بدر الدين بيليك بطل الحرب وصاحب "الفضل" في المحافظة على ملك بيبرس.. وسار مندوبون عن السلطان القاتل والوالدة المجرمة في جنازة خادم المخلص الذي حفظ لهما العرش وهكذا كان جزاء الوفاء..

الهوامش

- (1) - قصة قصيرة من مجموعة "مع الزمان" - دار المعارف بمصر - ط3 - محمد فريد أبو حديد.
- (2) - المصدر نفسه ص 1.
- (3) - بدر الدين بيليك ص 169.
- (4) - بدر الدين بيليك ص 171.

الفصل الثاني

مقدمات للعصر الحديث

”إن الوحدة والمركزية تتجسدان في الشخص الأوحد المعروف باسم الباديشاه، ولكن يبدو هذا الباديشاه كما لو كان يحكم دولتين اثنتين لا دولة واحدة هما:
- دولة المركز (دولة العاصمة الباي تخت).
- دولة الريف (المملكة - البلاد).

التاريخ العثماني - حكمت قفلجمللي
تعريب: فاضل لقمان.

العنقاء (١)

تؤرخ الرواية لمرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الحديث وطلائعه التي كان لها تأثيرها في كل ما يجري اليوم وتبرز إلى جانب شخصية التركي شخصية أخرى هي شخصية اليهودي وتفصح بأساليب الأخلاقية التي يلجأ إليها لنيل أوطاره وتحقيق أهدافه، أما مسرحها وهو ما يهمنا بالغ أهمية فلسطين. غزة تحديداً.

تبدأ الرواية بوصول يونس البدوي إلى غزة بعد أن باع في تبوك ألفاً من نوقه العصافير وباع ألفاً ثانية في غزة، حيث انطلق مع عبيده وفي طليعتهم مقدمهم "جوهر" إلى المدينة، فعاوده حين رأى أمه التي جاء بها مريضة فعاجلتها المنية فاضطر إلى دفنها في وادي الزيت من أرباض حيفا.

وفي الصباح يقودهم إلى الحمام، حيث يجد شمعون اليهودي نفسه وقد أحاط به هؤلاء البدو وكبهم الشياطين فينزعه منهم ويغادر الزبائن هارين وأمام رنين الذهب ينسى كل شيء ويظل وحده مع يونس الذي صرف رجاله وانفرد به.

يبدأ حوار طويل بين الاثنين يعلن فيه شمعون أن عمال الأتراك نزعوا ملكية وادي الزيت كلها من يدهم عجزوا عن دفع ما عليها من الضرائب للملتزم الجديد شيخ المشايخ: "تيمور الضرغام" الذي يخطط لشراؤها بثمن بخس يعادل ما عليها من الضرائب في المزاد الذي سيتم غداً صباحاً في سبويه" ويستمر الحوار:

"- أعرف يا سيدي لو كان القانون يجيز تملك اليهود للأراضي الزراعية لاشرتيت نوادي كله؟ أي ثمن بخس هذا الذي سيدفع مقابل الوادي!

- ولماذا لا يجيز القانون تملك اليهود للأراضي الزراعية؟

- أراضي الشام يا سيدي تعتبر من أراضي الفتح التي تعود ملكيتها لبنت مال المسلمين، ولذلك فهي تابعة لأمر المؤمنين أو الخليفة، ويعمل الفلاحون عليها لقاء نسبة بسيطة من الدخل تدفع لبنت المال، ولما كان السلطان العثماني هو الخليفة الآن فإنه يجبي خراج هذه الأرض، والفلاحون عاجزون عن دفع الخراج تنزع منهم الأرض وتعطى لغيرهم، في معظم الأوقات كانت نسبة الجباية معقولة بالقياس إلى

دخل الأرض، حتى بدأت الدولة تباع الالتزام بجمع الضرائب إلى ملتزمين جشعين من أمثال تيمور الضرغام، تفننوا في مضاعفة المكوس وأثقلوا كاهل الفلاحين الذين أخذوا يفرون على وجوههم، تاركين الأرض لقمة سائغة لهؤلاء الطغاة الذين أصبحوا مالكين لمساحات هائلة منها وصار الفلاحون محض أجراء عندهم. لقد حاول اليهود مراراً مع الباب العالي ووسطوا سفراء وقناصل الدول الصديقة لتغيير هذا النظام دون جدوى، ومن يدري ربما يلين الباب العالي ذات يوم فيجد أموالنا جاهزة لشراء بر الشام كله...⁽²⁾

هنا يعلن يونس عن رغبته في شراء وادي الزيت ويطلب المساعدة فيدله على سارة فهي الوحيدة القادرة على تدبير الأمر مع متصرف غزة التركي درويش باشا، وذلك لقاء عمولة خاصة، وحين سأله يونس:

"كم عدد اليهود في هذه المدينة يا شمعون؟

- أربع عائلات فقط يا سيدي وسارة وأمها، عائلة كوهين تتاجر بالذهب والفضة، وعائلة عدس تتاجر في الغلال وعائلة روكز وهم يتاجرون في القماش، وعائلة يعقوب وهي عائلة محسوبك أفقر العائلات جميعاً.

- الذهب والفضة والغلال ماذا تركتم لعشرين ألفاً يسكنون غزة وقراها؟

- تركنا لهم الصحة والستر، لا نسمعهم يطلبون في صلاتهم غيرها يا سيدي...⁽³⁾

وتتم الصفقة ويشتري يونس الأرض مقابل ما دفعه من رشوة إلى الباشا وعمولة إلى سارة وشمعون، كاشفاً بذلك عن التحالف بين اليهود والباشا التركي:

"لقد باعني نفسه اليوم يا أبا الطايغ، وباعني الباشا وقبض الثمن، بالله قل لي: ما هي العلاقة بين هذا اليهودي وبين الباشا التركي؟

- اليهود يا سيدي لديهم المال، والباشا لديه القوة، والمال دائماً يحتاج إلى القوة لتحميه وتسهل انتقاله وتكاثره. فهل كانت سارة هي الواسطة هذه المرة أيضاً؟
أطرق يونس برأسه وأوماً بالإيجاب.

- إذا أبشر بالقبول يا سيدي فالباشا لا يرد لها طلباً...⁽⁴⁾

وتدور حول يونس القصص والشائعات التي تصل إلى سمع الباشا فيقرر أن يستدعي مشايخ الحارات ليستطلع منهم جلية الأمر وكان الواصل الأول شيخ حارة المشاهرة أكثر المشايخ حماسة وحماقته هذه هي التي تدفعه للوقوع في شرك الباشا التركي الذي ينسى غرضه الأصلي من استدعاء الشيخ ويتمجه إلى البحث عن وسيلة لابتزازه، فقد ظن الشيخ المسكين أن استدعائه كان بسبب "الطوشة" التي وقعت أمس فبادر دون أن يسأل: مظالم يا باشا، والله العظيم مظالم..

وبسرعة البرق أدرك الباشا أن وراء الأكمة ما وراءها وأن الفرصة سانحة لاحتلاب نقود الشيخ لأبله وبعد محاوره ومداورة اتفق معه على ألف قرش وبعد أن اطمأن على الألف قرش أمر بإدخال باقي المشايخ وبدأ التداول بأمر يونس فمنهم من وقف معه ومنهم من عدّه قاطع طريق مثل تيمور الضرغام وقرّر قرارهم في النهاية على زيارة يونس في أرضه والاطلاع على أحواله. وبعد أن انفضّ الجمع انصرف الشيخ تيمور من المجلس وقد تذكر غلامه "يلماز" فحث خطاه لنقد تعلق بالغلام حتى أنساه نساء الأربع وجواريه، وعزّج في طريقه على زين الدين العطار دُعاه صرة وطلب منه أن يسلم على عصفوره يلماز، فتابع لا يلوي على شيء.

* * *

في الصباح ينطلق المركب الرسمي، درويش حسين باشا متصرف غزة التركي، القاضي معروف على يمينه وعلى يساره التفكجي باشي رئيس القرقول، وخلفه مشايخ الحارات وحين يصرون يلقاهم يونس بالترحاب والذبائح والإكرام ويدور حوار بينه وبين القاضي حول محمد بن عبد الزهاب.. إذن هذه هي غزة.. باشاوات أتراك ومشايخ حارات تابعون، وقضاة من جهة وفلايح وناس بسطاء مضطهدون من جهة أخرى، شهبان العاشق لمريم بنت الشيخ محمود وجوش الأعمى مؤذن المسجد وخضرة التي اغتصبها عسكر شيخ المشايخ تيمور فهامت على وجهها بين الحارات الخرائب تذكر الجميع بعارهم.

وتتشابك خطوط وأحداث الرواية اليومية العادية والعامية، فسالم يريد أن يتزوج للمرة الرابعة. شهبان يقدم على الانتحار حتى يستطيع في النهاية الزواج من مريم ويونس يوفق في الزواج من وصمة التي كان سالم يريد الزواج منها، أما على المستوى العام فقد وصل القاضي معروف إلى عك بدعوة من واليها الذي جمع كل القضاة والعلماء في بر الشام دون استثناء وفي الاجتماع غس الوالي أنه المهدي المنتظر فأسرع الجميع إلى بيعته ما عدا القاضي تاج الدين الخروبي الذي أمر بـ"نفي بناء على نصيحة معروف الذي أصبح مقرباً منه.

* * *

وتنداعى الأحداث ليبرز مرة ثانية اليهودي موسى عدس محتكر الغلال في غزة وقد استدعاه حرم لاجتماع سرّي وطلب منه مساعدة أبناء الطائفة من الفقراء فيهبس بعد عودته من المقابلة:

"مالي أنا وفقراء الطائفة؟ لماذا لا يسأل الرب أن يعطيهم مالاً بدلاً من أن يأخذ من مالي ويوزعه عليهم، طرّ يا طائفة طائفتي هم أولادي.. أولاد موسى عدس فقط.."⁽⁵⁾

نفسية اليهودية بكل ما تحمله من تراكمات وأثقال وحقد يطال كل شيء ولا يريد أن يعطي شيئاً لأنه تعلم الأخذ لا العطاء.

ولأن السمك الكبير يأكل السمك الصغير دائماً في عالم تفوح من أركانه رائحة الرشوة، بغفونة والغدر والخيانة، ولأن الكبير يستصفي مال الصغير قبل أن يستصفي ماله لكي لا يكبر،

لذا بعث الجزار يطلب من درويش باشا، هكذا أعلن الكلاغاصي نظمي أفندي في المضافة:

"- لقد علم أحمد باشا الجزار والي عكا بما أصاب عامله على غزة المتصرف درويش باشا من الثراء فأرسل يطلب منه فدية لرأسه مائة ألف قرش أو يحضر لعكا فوراً، وقع الخبر على درويش باشا وقع الصاعقة فلطم وحثى التراب على رأسه موقناً أن منيته قد حانت، ولما زايله الروع واستعاد وعيه طلب إليه شيخ المشايخ، أشار عليه تيمور الضرغام أن يقسم المبلغ على مشايخ الحارات لجمعه من الأهالي." (6).

وحين حاول مع مشايخ الحارات لم يستطع درويش باشا أن يأخذ حقاً ولا باطلاً قالوا له "أنت الدولة ولديك الصبوانية والأسبيلية، وعسكر القبيقول فدونك والأهالي". لذا جمع كبار الملاك والتجار ووضعهم في السجن وقرر على كل رأس فدية لا يخرج إلا إذا دفعها.. وهكذا كان، الوحيدون الذين تجنبهم درويش باشا هم اليهود لأنّ الجزار عيّن أميناً لخزائنه المعلم "حاييم فارحي" اليهودي.

* * *

وتستيقظ غزة على قرع طبول كبيرة وزعت على مآذن المساجد من الصباح الباكر.. ويفهم الجميع أنها الحرب، ولكن أية حرب؟.. ويقرأ الشيخ محمود الفرمان السلطاني:

"من أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين السلطان سليم خان حامي حمى الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين:

أما بعد:

يا جماعة الموحدين، وملة المسلمين، اعلموا أن الطائفة الفرنسية جعل الله ديارهم دارسة وأعلامهم ناكسة..

سكت الشيخ محمود حتى يؤمن أهل الحارة على دعاء السلطان فأمنوا بأصوات متفرقة وبدون حماس فتابع الشيخ القراءة:

لأنهم الكفرة الطغاة والفجرة البغاة، لا يؤمنون بوحدانية رب السماء والأرض ولا برسالة الشفيع يوم الفرض، بل تركوا الأديان كلها ونكروا الآخرة، ولا يعتقدون يوم الحشر والنشر، ويزعمون أن لا يهلكنا إلا الدهر..." (7)

وبعد سلسلة طويلة من المهددات والمبررات يخلص الشيخ محمود إلى مراد السلطان وهو إعلان الجهاد على الكفرة الفرنسيين، وبدأت الاستعدادات للحرب والتأهب للقاء بونايرته، وقد اتخذت هذه الاستعدادات أشكالاً متعددة ولكن أظرفها ما اقترحه البيك بناء على نصيحة القاضي:

"تابع البيك: - اقترح مولانا القاضي أن يخرج الدراويش وأهل الطرق بالعدة والصاجات والطبول وأن يطوفوا بالسيد هاشم ويتضرعوا له ويقعوا في عرضه حتى يقوم بحماية "مدينته" (8).

ويلقى يونس ساخراً من هذا الاقتراح "هكذا إذاً ضمنا النصر على الفرنسيين" أما الأهالي ففروا بأولادهم إلى المغاور والكهوف قائلين:

"الجهاد يا شيخ الحارة في سبيل الله وليس في سبيل تيمور الضرغام وعصابته." (9)

هكذا يكشف الحس الشعبي عن مقاصده بعفوية وصدق فالمعركة ليست معركة ولم تكن كذلك في يوم من الأيام، فالصراع الذي يذهب وقوده الناس كان صراع مصالح شخصية ومظامع شخصية ولكن أين تيمور الضرغام شيخ المشايخ؟:

- شيخ المشايخ تيمور الضرغام اصطحب غلامه يلماز وهرب إلى الشام تاركاً نساءه الأربعة للدفاع عن المدينة.

تمتم يونس بغیظ:

- الفئران تتراكم خارج السفينة الفارقة... (10)

وحين تبدأ المعركة تسقط المدينة بيد نابليون ويقتل يونس في الهجوم ويجد الفائح بانتظاره سائقين والمداهنين فأصحاب المآرب وسارة.

وما بقي من صراع بين الجزائر ونابليون معروف تذكره كتب التاريخ ولكن ما يهمنا منه:

"تقدم نابليون إلى حيث جلس تاج الدين وتربع أمامه مباشرة

- لماذا تحرض العامة علي؟ لقد سجنك الجزائر وأطلقت أنا سراحك.

- أطلقتني من السجن الصغير إلى السجن الكبير.

- منحتك الحرية.

كيف يكون الإنسان حراً في وطن مستعبد؟

- لقد نصرني الله عليهم هؤلاء الأتراك، وإن من قضاء الله وقدره أن تطيعني.

- لم يكن قتالك معهم قتالاً بين حق وباطل لكي ينصرك الله عليهم أو ينصرهم

عليك، كان قتالاً بين باطلين فغلب الباطل القوي الباطل الضعيف... (11)

هكذا بدت الصورة عارية والافتراق واسع بين هذه الجماهير وسلطاتها الاستبدادية - حينة، فالقيم باطل والقادم باطل إذا لم يكن من أهل هذه الأرض التي أعطت ومنحت سحء.

4. صورة بشعة ومروعة لما عانته إنسانية إنساننا من قهر واستلاب على أيدي حكام دخلاء - بهم قلوب ولا أخلاق.

الهوامش

- (1) - العنقاء - رواية - عبد الكريم السباعي - دار سيل للطباعة والنشر - استراليا.
- (2) - العنقاء . ص 13.
- (3) - العنقاء - ص 14.
- (4) - المصدر نفسه ص 15.
- (5) - العنقاء - ص 154.
- (6) - المصدر نفسه ص 154.
- (7) - العنقاء ص 178.
- (8) - المصدر نفسه ص 187.
- (9) - المصدر نفسه ص 187.
- (10) - العنقاء ص 186.
- (11) - المصدر نفسه ، ص 228 - 229.

• في سبيل الحرية^(١)

قصة كان بدأها الرئيس عبد الناصر.

وهو طالب في المدارس الثانوية عن معركة رشيد سنة 1807م، وعبد الناصر حين عاد إلى تلك مرحلة التاريخية - بالتأكيد - لم يكن عن عبث، إنها عودة إلى الينابيع والأصول لاستحياء الماضي قريب أو البعيد من خلال نقاطه المضيفة وربطه بالحاضر المتشوف إلى بناء مشروعه القومي في علمه تحكمه شرائع القوة والتكتلات.

فمصر منذ أن سقطت تحت سنانك خيل الغزاة الترك بالغدر والخديعة عاشت الجماهير فيها عزلاء من كل سلاح يمكن أن تدفع به أو تدافع عن نفسها ضد الظلم الواقع عليها، ولم يكن ظلماً فحسب، كان نبي أكثر من الظلم والتعسف والاستلاب حيث يتحول في جوه العفن الكريه إلى شيء آخر غير الإنسان:

”لم يستطع عربي في بلادنا أن يطلق بارودة أو يضرب بسيف، أو أن يتنطق بخنجر، إذ كان البارود والسيوف والخناجر في أيدي الترك والمماليك دون غيرهم وقد تحالف هؤلاء وأولئك على تجريدنا من كل سلاح من أسلحة الهجوم أو من أسلحة المقاومة، ووضعوا أيديهم على كل ما نملك من ذلك ليحتموا به منا، ويزعمون أنهم حماتنا..“⁽²⁾

هكذا كانت حالة شعبنا في مصر، مما جعله عرضة لأطماع الطامعين بخيراته ومع ذلك منزع هذا الشعب المستلب الأعزل والمعزول عن العالم مدة طويلة أن يهزم الحملة الفرنسية نفس خصائصه الأصيلة وإحساسه الذي لم يخمد بحريته وكرامته.

وفي عام 1807 م ظن الانكليز الفرصة سنحت لهم للاستيلاء على مصر ونهب خيراتها، وصمها إلى التاج البريطاني فجهزوا حملتهم.. فماذا جرى؟

* * *

فإن أن نبدأ بعرض الأحداث نحب أن نعرض للشخصيات كما فرزها المؤلف فمنها ما هو حقيقي ومنها ما هو متخيل. وقد أطلق على الشخصيات الحقيقية تسميه:

• يمكن الاستفادة من عملين آخرين تناولوا الحادثة نفسها:

- علاج الأحرار - نجيب الكيلاني

- عدة رشيد - علي الجارم.

- الشخصيات التاريخية وهي:
علي بك السلانكلي : حاكم رشيد.
السيد حسن كريت : نقيب أشرف رشيد.
سليمان آغا: قائد حامية المدينة.
أحمد آغا الخازندار: ضابط شجاع عرف بين المصريين ببونابرتة الصغير.
اسماعيل كاشف: قائد قوة أرسلها محمد علي لمساعدة رشيد.
طبوز أوغلي: كنتخدا محمد علي (نائبه).
جنرال فريزر: قائد الحملة الانجليزية على مصر.
بتروتشي: قنصل إنجلترا في رشيد.
جنرال ويكوب: قائد الحملة الانجليزية الأولى على رشيد.
جنرال ستيوارت: قائد الحملة الانجليزية الثانية على رشيد.
كولونيل ماكلود
ميجور ماكدونالد
ميجور وجلسند
ميجور مور
كابتن تارلتون

- أما الشخصيات المتخيلة أو ما يسميها "روائية"

اسماعيل آغا
فزدوغلي آغا
- من الممالك

المقنع: شخصية فذة تعمل لصالح المصريين.
السيد طاهر الإدكاوي: من أعيان رشيد.
السيدة أمينة: زوجته.
ابراهيم: ابنه البكر.
محسن: ابنه الأصغر.

نور الدين
الشيخ علي الطويل
مصطفى الاسكندراني - أصدقاء محسن
عثمان النحراوي
المعلم لطف الله

محمود الحلبي: ابن شيخ تجار الحرير بالشام وصديق نور الدين.
قطان باشا: جاسوس أرمني عميل للانجليز يعرف باسم هاجويان الشجاع في الرواية.
نورهان: "صوفيا" ابنة هاجويان الشجاع الأصلي وليس المزيف.
السيد أحمد عاصم: من أعيان رشيد.
وداد: ابنته.

لاجين آغا: قائد الانكشارية في رشيد.
الشيخ خليل الرشيد: من رجال الدين المسلمين.
الأب بولس: من قساوسة القبط.

المعلم هاشم الزيني:
المعلم ميخائيل: من تجار رشيد.

اسماعيل بك آغا كشميش:
أحمد بك حمامجي أوغلي آغا:
رضوان بك كشكش: أسماء تنكرية لأعوان المقتنع.
سليمان بك أبو نبوت:

تبدأ الرواية بوصف ما يعانيه الشعب من ظلم وقهر على أيدي السلطة وأزلامها من المماليك كما نرى في شخصية اسماعيل آغا الذي اعتاد على سلب عائلات الموتى ما يملكونه من مال نزر. وثلاث رخيصة بحجة دين قديم أو حديث له في رقبة الميت وشهوده دائماً حاضرون وإلا لجأ إلى حد وتعذيب أولياء الميت.

"فقد كان لاسماعيل آغا هذا - وهو أحد عتاة المماليك - شغف كبير بأموال الموتى،

فلا يكاد يسمع صوت رجل حتى يبادر إلى مهاجمة بيته، ويطالب ورثته بدين كان له عند المرحوم، ومع أنه لم يبرز مرة واحدة صكاً مكتوباً يثبت هذا الدين المزعوم، فإنه كان يجد من الشهود العدول عشرة على الأقل يقسمون بأغلظ الأيمان على أنهم رأوا اسماعيل آغا يعطي المرحوم هذا الدين قبل وفاته بساعات أو بأيام حسبما يقتضي الموقف. ولم يكن اسماعيل ينتظر حتى يحكم له القاضي بتحصيل الدين من ورثته - مع أن القاضي لم يكن ليتردد في إصدار الحكم بهذا أمام أيمان أولئك الشهود العدول وأمام اسماعيل آغا وبطشه - بل كان يبادر بتخفيف بيت المرحوم من كل شيء ثمين وأحياناً كان يثقب الجدران ويحفر الأرض بحثاً عن مال مخبوء يأخذه وفاء للدين الذي لا يحدد قيمته إلا بعد أن يضع يده على النفائس والأموال..⁽³⁾

ولكن ما موقف السلطة أمام هذا النهب؟! علي بك السلانكلي⁽⁴⁾ الحاكم يخشى اسماعيل آغا كما يخشاه الأهليون، يخشى ممالكه، ويخشى أكثر من كل ذلك حظوته عند الباشا الذي اصطفاه ليستعين به على ممالك الألفي المتمردين. إذاً لا حق هناك ولا باطل.

ظل بعد ذلك تصرف الأهلين الذين يبادرون بعد موت الميت إلى تهريب ما في البيت من أموال وذخائر - إن وجدت - قبل البكاء عليه، فالبكاء يصبح بأوان وحسب الميقات، فإذا جاء اسماعيل آغا ولم يجد ما ينهيه حينها يأمر بجلد أكبر أبناء الميت الذي كان دائماً يتحمل الجلد بصبر عجيب.⁽⁵⁾ وهذا ما جرى مع أبناء المرحوم حتى اضطرت زوجته إلى إعطاء المذكور مصوغاتها ليكفّ بلاه عنهم ولكن المقنع يردّ هذه المصوغات إلى العائلة ويتكفل بتلقين المذكور درساً لا ينساه جزاء تعذيبه للفلاحين.

وفي المقطع الثاني من الجزء الأول يلتقي ابراهيم بن السيد طاهر الإدكاوي بنورهان على شاطئ البحر في خلوة من خلواته الروحية وقد هزّه الموقف، ويعقب ذلك اعتراف قطان باشا لنورهان بأنه هاجوبيان الشجاع راوياً لها كيف أخفقت ثورته ضد الأتراك في أرمينيا؟ وكيف قتلت أمها؟ وينبئها بوجود سبعة قدور مملوءة ذهباً مودوعة باسمها عند الأب أصلاًنيان في أرمينيا.

"كان آرتين معي في الخيمة، وكنا وحدنا عندما فوجئنا بالأتراك يقتحمون المعسكر من كل ناحية، وحاول آرتين أن يخرج ليعيد تنظيم صفوف رجالنا، فصرعته رصاصة على باب الخيمة، وسقط تحت أقدامي يتخبط بدمه، وفي هذه اللحظة وصلت أملك إلى المعسكر، كانت قد علمت بأمر هذا الكمين ولم تجد أحداً ترسله لتحذيرنا فجاءت بنفسها، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان، ورأيتها بعيني هاتين وورصاص الأتراك يمزق رأسها وصدرها..! كان الموقف عصيباً، ولكنني تذكرت وجهك البريء في هذه اللحظة، فنحيت صورة أملك وصورة آرتين جانباً، وأخذت أفكر في مصيرك، لم يكن بد من أن أعيش لك بعد أن قتلت أملك فاتخذت هذا القرار الخطير، كان

آرتين يشبهني في القامة ولون الشعر، فأسرعت أخلع ملابسه وأرتديها بعد أن ألبسته ملابسي، وهكذا تبادلت معه الشخصية" (6).

وتتوالى الحزنيات فابراهيم يمضي على مضض إلى بيت نور الدين ليتحقق من شخصية نورهان وبعدها يخبره والده كيف أن فردوغلي آغا نهب حقول الأرز التي يملكونها في أبي مندور، ويأخذ الحديث بعد ذلك مساراً آخر فتعرض السيدة أمينة تزويج ابراهيم من وداد.

وهنا تبرز شخصية بروتشي فنصل إنجلترا في رشيد الذي يقوم بزيارة قطان باشا طالباً منه التجسس لحساب الانجليز على المصريين الذين يعيش بين ظهرائهم وقد وافق في النهاية على العرض.

وفي جلسة أنس يوزع محمود الحلبي ابن أحد شيوخ التجار في الشام مناديل حريرية على الحاضرين ولكن موسى الماطلي يستطيع أن يستبدل منديله بمنديل ابراهيم وفي نفسه غرض خفي، ثم يشترك بعدها الحلبي مع ابراهيم في تأديب فردوغلي آغا ويفعل المكر الشعبي مكره بعدها. هكذا إذن هي الحياة في وسط شعبي لمدينة متوسطة في ذلك العصر يختلط العادي والمألوف بغير العادي ويتحول إلى أسطورة أو خرافة أو جن، هكذا روح الشرق تحاول أن تتناول على لسيط وتعالى على ظالمها دون أن تنقص أو تنكسر.

محسن ينقذ وداد من كلب عقور - بناء على قانون المصادفة - ونور الدين ومحسن يعتذران من ابراهيم ومحمود. ثم يتفق محسن ووداد على الزواج، بينما يصل فردوغلي إلى رشيد في الفجر فراراً من المقنع، وقد أحرق الفلاحون خيامه، وسط كل ذلك من الأحداث والملابسات والشخص البسيطة التي عرف المؤلف كيف يمهدها ويرسمها بريشة فنان، وبعد أن يضم بروتشي موسى الماطلي إلى قطان للتجسس على المصريين طالباً إليه أن يرشو "لاجين آغا" قائد الكشاية ليساعد على تسليم رشيد تأتي الأنباء بأن الانجليز يحتلون الاسكندرية ويندرون - يرحف إلى رشيد.

* * *

في الجزء الثاني يتحدث الكاتب عن معركة رشيد الأولى، واصفاً سير الحياة فيها عند التهديد - مرور، فقطان باشا وموسى الماطلي يحتالان للقاء سرّاً حيث يعلن موسى صديقه:

"- الفصل قلق لتأخر في مسألة لاجين آغا، فالجيش احتل الاسكندرية مقابل ثلاث آلاف جنيه، أخذها حاكمها أمين آغا، ويريد الجنرال فريزر أن يحتل رشيد سريعاً حتى يتفرغ لاستقبال جنود الباشا في مصر.

- حسن لقد انتهينا من هذا الموضوع، قل له إن لاجين آغا الكشاية قبل أن يسلم رشيد إلى ساري عسكريهم إذا سلمناه الليلة ألف جنيه..

فقال موسى الماطلي مستكراً: - ألف جنيه؟ هذا كثير!!... (7).

أما نورهان فانصرفت إلى تصفح وجوه الأهالي السمرء النبيلة والقلقة على مصير بلدها المههدد بغزاة جدد:

”وشردت بخواطرها إلى وطنها الذي لم تره منذ كانت في الثانية من عمرها، إنها تحب وطنها ذلك البعيد، وقد وهبت حياتها لتحريره من أقدام الغزاة الجابرة، وتذكرت في هذه اللحظة أن من يطأون وطنها بأقدامهم هم أنفسهم أولئك الترك الذين يحكمون هؤلاء الفلاحين..“⁽⁸⁾.

إنه التلاحم بين قضيتين السفاح فيهما واحد، والعدو مشترك وهكذا شأن الآلام فهي تجمع القلوب. ويعقب ذلك جفوة بين وداد ومحسن لأنه أخفق في التجارة ورفض التطوع للدفاع عن رشيد، بينما يعلن حاكم رشيد علي بك عن دعوة لعقد مجلس شورى من كبراء المدينة للتباحث في خطة الدفاع عن رشيد، وفي الجلسة يحاول لاجين آغا عرقلة الخطة، يعقب هذا التطور مشهد مساومة موسى المالطي للاجين آغا إنهما مرة أخرى التركي الغبي واليهودي الخبيث يلعبان الدور كما في رواية العنقاء:

”فنظر لاجين إلى موسى في ذلة وقال في أدب:

- أنا تحت أمرك يا خواجة.

فقال موسى:

- المغربي أخبرك بما نريد منك.. ستأمر عسكريك بالفرار عند وصول عسكرينا.

فقال لاجين آغا مطرقاً:

- نعم يا خواجة اتفقنا على هذا.

وصمت موسى لحظة قبل أن يقول:

- وسندفع لك مائة جنية.

وكان وقع الرقم على كل من لاجين وقطان رهيباً، فلاجين اتفق على ألف، وقطان

كان يعلم أنها ستمائة، أما مائة هذه فرقم جديد عليه..“⁽⁹⁾.

وبيراعة اليهودي وخبثه يستدرج موسى لاجين ليكشف له عن خطة الدفاع عن الرشيد التي تم وضعها في قصر السلانكلي ومع ذلك لا يعطيه أكثر من مائة جنية واعداء إياه بمائة أخرى إذا سكن ساري عسكري الانجليز في قصر حاكم رشيد.

رغم كل الحذر الذي اتصف به الجاسوسان لم يشعرا برسول المقنع الذي كان خلفهما وقد اكتشف خيانة لاجين آغا بينما فرّ قطان باشا دون أن تنكشف شخصيته ومن هنا زار المقنع السلانكلي وغُيّرت الخطة، ورغم ذلك تجري الأمور مجرى آخر لصالح الآخرين يحدث ذلك عندما يقترض السيد طاهر الإدكاوي مبلغاً من المال من قطان باشا الذي يستشير فيفشي له سر الخطة الجديدة.

ويندم السيد طاهر على ذلك فيقوم محسن و ابراهيم بإبلاغ السلانكلي ذلك بينما يعرض المعلم ميخائيل قرصاً للدفاع عن المدينة على طاهر، وفي الجانب الآخر تكتشف نورهان سر قطان باشا الذي يكتب رسالة بسر الكمين ليحملها موسى إلى فريزر، ويخرج موسى بالرسالة مع علمه بكثافة الحراسة على مداخل المدينة لمنع خروج أي إنسان، وينجح في التسلل ولكن المقنع يهاجمه في الطريق ويسجنه جريحاً في منزل عباس.

* * *

إنها ليلة المعركة في المدينة.

الانجليز يزحفون بقواتهم إلى رشيد في الصباح ولاحين آغا يفزّ بجنوده ثم يستسلم، بينما الجنرال ويكوب يرفع العلم الانكليزي فوق قصر الحاكم، ويكوب يصرع وتبدأ المعركة، ثم تتطور مجرياتها، فطاهر وعاصم في قتال المنازل، و ابراهيم ومحمود الحلبي في قتال الشوارع، ومحسن وأصحابه يأسرون عدداً من جنود الغزو وفي النهاية سحق المعتدين.

* * *

أما في الجزء الثالث وعنوانه : معركة الحماة (21 أبريل سنة 1807).

فترى موسى المالطي يتمائل للشفاء من جراحه ويستطيع خلال ذلك الكشف عن شخصية المقنع، وقطان عند فريزر في الاسكندرية، والانجليز يعدّون العدة لحملة انتقام بقيادة جنرال فريزر تتأّر لهزيمتهم في معركة رشيد الأولى وقد اقترح قطان باشا أن يزوج نورهان من ابراهيم لتتجسس على قوات المصريين وخلالها كان السلانكلي يعقد مجلس حرب جديد. ويظهر بونا برته الخازندار في مصر.

وترفض نورهان في البداية هذا الزواج الصفقة فيشير قطان ذكرى أمها ويعدها فريزر بأن تساعدتهما إنجلترا في تحرير أرمينيا فتقبل. وهكذا يتم هذا الزواج بعد مداولات ومدخلات عديدة وبعد حفل القران يعقد السلانكلي مجلس حربه وأهل المدينة يقررون مقاومة الحصار حتى تصل أمداد من القاهرة للمساعدة وتكون مفاجأة ل ابراهيم حين يعلن له بونا برته أنه كان على رأس القوة التي حاربت في أرمينيا لإخماد ثورة هاجوبيان الشجاع.

وتتوالى الأحداث متسارعة في الجزء الثالث، فتعدل نورهان عن التجسس على ابراهيم، ويقصف الانجليز رشيد بالمدافع، ويحاول قطان باشا ردّ نورهان إلى التجسس ثم تكون نهاية موسى المالطي، ثم ينكشف سرّ المقنع ل ابراهيم، كما ينكشف سرّ قطان باشا الذي خدع الجميع حتى صوفيا أو نورهان كما سماها ابنة سيده هاجوبيان الشجاع الذي قتله فانتحل شخصيته طمعاً بثروته المودعة في أحد الأديرة:

”إنه ليس أباك يا صوفيا، إن أباك مات في المعركة كما يموت أشجع الفرسان، أما هذا، فهو آرتين القدر الذي خانته وسلمه لنا، ثم فزّ بك، وبثروته بعد أن قتل أمك.“⁽¹⁰⁾.

هكذا تبدأ الخيوط تتكشف ورشيد تنهياً للمعركة الجديدة، بينما طوبوز أوغلي يمتنع عن المشاركة في الهجوم، وتباد أمداد ستيوارت، ويصرع ماكلود ويفرّ ستيوارت إلى الاسكندرية. ويحاول طوبوز أوغلي أن ينسب هذا النصر إلى جنوده كما يحاول نهب رشيد كالعادة.. ولكن الحياة في النهاية تصفو لنورهان وابراهيم ويتسم المستقبل لوداد ومحسن.

الهوامش

- (1) - في سبيل الحرية. قصة بدأها الرئيس عبد الناصر - أنقها عبد الرحمن فهمي.
- (2) - في سبيل الحرية - المقدمة - محمد سعيد العريان ص 2.
- (3) - في سبيل الحرية ص 34.
- (4) - السلاطيني: يبدو أنه نسبة إلى "سالونيك".
- (5) - في الإسلام يجلد أصحاب الكبائر وتقطع يد السارق أما في عرف الدولة العلية فالمسروق هو الذي يتحمل عدم تمكن السارق من سرقة فيقام عليه الحد فيجلد وربما يقتل.
- (6) - المصدر نفسه ص 58.
- (7) - في سبيل الحرية ص 187 - 188.
- (8) - المصدر نفسه ص 189.
- (9) - في سبيل الحرية ص 252.
- (10) - في سبيل الحرية ص 648.

صخرة طانيوس (١)

قبل الدخول إلى عالم هذه الرواية الرائعة الشفافة بكل ما فيها من ذكاء وقدرة واستخدام لأدوات القصّ والإحالات التراثية والتاريخية، وتصوير الأجواء العامة في نهايات الدولة العثمانية، لا بدّ من إبداء بعض الملاحظات التي نراها ضرورية:

- 1 - رواية صخرة طانيوس كتبت بلغة فرنسية رغم أن أحداثها وشخصوها والأمكنة التي تجري فيها عربية. فهي إذن تنتمي إلى "الفرنكوفونية" فكاتبها عربي بلغة فرنسية.
- 2 - إنها رواية شخصيات نمطية، كل شخصية تؤرخ لشريحتها الاجتماعية التاريخية لا لذاتها الخاصة في الإطار العام.
- 3 - لا تظهر فيها الشخصية التركية بمقدار ما تظهر شخصية الدولة التركية المتفسخة.
- 4 - إنها تاريخ لآلهة السلطة الصغيرة التي عمل الاستبداد الشرقي العثماني على صناعتها وتصديرها إلى العواصم والمراكز والقرى بأسماء وألقاب تمّ قبض ثمنها.
- 5 - إنها لعبة طالت كل شيء واشترك فيها أطراف عديدون وكانت الثمرة المحرّمة مرّة في كل لأفواه.

في المعبر الأول كما سماه الكاتب وأطلق عليه عنوان "تجربة ليا" كانت هناك ضيعة مملوكة بأسرها لسيد إقطاعي واحد، وريث سلالة طويلة من المشايخ، ولم يكن من المتنفذين الكبار فبين السهل الشرقي والبحر، كانت عشرات الأملاك الأكبر من ملكه، ومع ذلك يملك "كفر يقدا" وبعض المزارع المحيطة بقرية، ومن أنداده كان أمير الجبل، وفوقه باشاوات الولايات. باشاوات طرابلس والشام وصيدا أو عكا وأعلى بكثير من كل هؤلاء، قرب السماء كان هناك سلطان استانبول.

هكذا تبدأ السلسلة التي تطوق أعناق بشرنا، من الشيخ فالأمير فالباشا فالسلطان، سلسلة ثقيلة صدئة، وأبهة تحيط بهؤلاء تقرّبهم من المقدسات.

فالشيخ في قصره، والأهلون يتجهون غالبيتهم إلى القصر، يجتمعون في المشى الذي يوصل إلى غرفه، وحين يظهر يستقبلونه بسيل من عبارات الدعاء بأصوات تصاحب كل خطوة من خطواته،

وكثيرون يرتدون على شاكلته، سروالاً أسود منفوخاً، وقميصاً أبيض مخططاً، وقلنسوة بلون التربة:

”وكان الكل أو أغلبهم يبرز الشوارب الكتنة ذاتها، المفتلة بفخر نحو الأعلى في وجوه جرداء، فماذا كان يميز الشيخ إذن؟ فقط تلك الصدرية ذات اللون الأخضر التفاحي، المزينة بخيوط ذهبية، والتي كان يرتديها في كل الفصول مثلما يرتدي غيره فروة زيلين⁽²⁾ أو يحمل صولجاناً، ولكن حتى بدون هذه الحلة ما كان يصعب على أي زائر أن يميز السيد في وسط العامة، بسبب تلك الانحناءات التي كانت تؤديها الرؤوس كلها واحداً تلو الآخر لتقبيل يده في تقليد تكرمي يستمر حتى الردهة ذات الأعمدة، وإلى أن يجلس في مكانه المعهود على الأريكة ويضع بين شفتيه الطرف المذهب لنبريج نارجيلته..“⁽³⁾.

هكذا كان الحال في ”كفر بقدا“ شيخ له أبهته وهيبته، وموكبه الذي يشعره بأهميته، ورعية مسخت على شاكلته من حيث المظهر، تقدم له كل الخضوع والطاعة. ولأن للشيخ الحق في التصرف كما يشاء بأملاكه من الأرض والبشر والأنعام فله الحق أيضاً أن تكون له حرابه الخاصة:

”فمن موقع التفاخر بعرف قديم، حصل لأتباعه على حق المقاتلة تحت رايتهم الخاصة، بدلاً من تجنيدهم مع بقية الجيش وهو امتياز هائل بالنسبة إلى إقطاعية في مثل هذا الصغر لا تستطيع أن تعني في أحسن الأحوال أكثر من أربع مئة رجل. على أن الفارق كبير بالنسبة إلى أهل الضيعة فهذا يعني الذهاب مع الأشقاء والأبناء وأبناء العمومة يامرة الشيخ نفسه، الذي كان يعرف كل واحد باسمه، ويعني الإدراك بأن أي جريح لن يترك في أرض المعركة، وأن كل أسير سيفتدى، وكل ميت سيكفى عليه ويدفن بلباقة كما يعني أن أحداً لن يرسل إلى المذبحة إرضاء لأي من الباشاوات الفاسدين..“⁽⁴⁾

وكان يمكن لهذا الشيخ بمواصفاته تلك أن يكون نعمة ربانية حباها الله لتلك القرية لولا عيب فيه لا يغتفر يقضي على أنبل صفاته ويجعلها فارغة من كل مضمون:

”النساء! قال لي جبرائيل العجوز وفي وجهه العصفوري تنوقد عينان ضاريتان. النساء! فالشيخ كان يشتهيهن كلهن، وكان يغوي واحدة منهن كل مساء!..“⁽⁵⁾.

ولكن هل يعتبر الشيخ هذا الأمر عيباً؟ لقد كان على غرار أسلافه وعلى غرار وشاكلة الأسياد الآخرين حتى الكبار جداً منهم، وفي جميع المناطق، يعيش في اقتناع تام وبدون أي شعور بالإنثم أو الحرج، بأن جميع النساء في أملاكه هن ملكه، مثلهن في ذلك مثل البيوت والأراضي وأشجار الثوت وكروم العنب، ومثل الرجال من جهة أخرى.

والشيخ ذكي لمّاخ في ذلك، فهو لا يخرج يجول في الضيعة مع أزلامه بحثاً عن طرائده.. كلا، لقد كان يعرف كيف ينصب أفخاخه الجميلة المحكّمة، فإذا كان على كل رجل أن يصعد ولو مرة واحدة في الشهر ”لرؤية يد الشيخ..“ فإن على النساء أن يقضين نهاراً في القصر للعمل فيه:

”كان القصر خلوة نساء، حيث كن ينهمن في الشغل ويثرثن، ويتسلن أيضاً. وأحياناً ”وقت القيلولة“ حينما تكون الضيعة بأسرها غارقة في حالة من الاسترخاء كانت واحدة أو أخرى من هؤلاء النسوة تختفي بين الأوراق والغرف لتعود فتظهر بعد ساعتين وسط التهامسات.“⁽⁶⁾.

ولأن كل شيخ مهما كان لا بد أن يتزوج، فقد تزوج الشيخ في النهاية وهو على عتبة الأربعين من ابنة زعيم إقطاعي أقوى منه بكثير هو سيد الجرد الكبير، وقد أنجبت الشيخة صبياً سمي ”رعد“، وكانت الشيخة إنسانة ضعيفة لم تستطع أن تغير من طباع زوجها شيئاً.

وهنا تظهر في حياته ”لميا“ الجميلة التي تحمل جمالها كصليب، والتي يخالها المرء على الدوام مبللة بالنور، ”لميا“ زوجة، وزوجة وكيل أملاك الشيخ جريس، ويبدأ الشيخ في التحضير لنصب أفخاخه الجميلة الماكرة التي يعرف كيف وأين يقيمها؟ خاصة إذا لم تكن الشيخة موجودة في القصر، وهذا ما كان:

”في الخارج كانت غيمة كثيفة قد حجبت الشمس على الأرجح لأن الغرفة أصبحت معتمة للغاية، كان ذلك أول العصر، والليل على وشك الهبوط، فنهض الشيخ واختار من أجمل العناقيد أكبر حبة وقربها من وجه لميا ففتحت شفتيها قليلاً. وبينما كانت العنبة تنزلق في فمها، همس لها الرجل:

- أريد أن أراك تبسمين.

فابتسمت، وهكذا شاركها فاكهة أيلول كلها...“⁽⁷⁾.

إنه الإغواء، مهنة يتقنها هؤلاء الشيوخ، كما يتقنون فنون الظلم والقهر والاستلاب الأخرى، ويحملونها معهم كخواتمهم الذهبية وسبحاتهم الكهرمان وألوان عيونهم وجلودهم.

* * *

في المعبر الثاني ”صيف الجراد“ ولد طانيوس أو عباس كما سماه الشيخ أول مرة وكانت حياته سلسلة من المعابر والمآسي، ودارت كدولاب ناعورة ثقيل أيام القرية، وسط ظل من شك يعذب نفس جريس وسكون حذر تتصنعه لميا، وتبدأ حرب بين الشيخ وصهره والد زوجته وكانت حرباً عجيبة حقاً. إنها حرب ”الجراد“.

ففي الأسبوع الأول من شهر آب رجعت ”الشيخة“ إلى كفر يقدا يرافقها والدها وأشقاؤها خمسة، إضافة إلى ستين فارساً وثلاث مائة رجل من حملة السلاح والوصيفات والخدم أي حوالي ستمائة شخص تقريباً، فتلقاهم الشيخ بالترحيب.

في اليوم الأول أقيمت وليمة للترحيب بالضيوف على عادة أهل ذلك الزمان وفي اليوم الثاني كن لا بد من إطعام هؤلاء الناس، وكذلك في الأيام التالية فنقدت احتياطات القصر بسرعة كبيرة، فلا زيت ولا عرق أو نبذ ولا طحين أو بنّ أو سكر ولا قطعة لحم محفوظ مما جعل أهل

القرية يشعرون بشبح المجاعة وهم يرون الحيوانات تذبح كل يوم، وكان الضيوف يتفننون في حربهم التي يخوضها أكبر أكايلهم لا أشجع فرسانهم، كانت حرباً باردة وغريبة تلك التي شنها شيخ الجرد الكبير، وكان هدفه كرامة الشيخ لا حياته وشاعت النكات القاسية تحاول أن تنال من الضيوف الغزاة، وهكذا متى شاعت النكتة تكون الأمور قد وصلت إلى مرحلة منذرة بالخطر:

بيسألوني ليش عم برثي لشاني

كإني بحياتي كنت عاني

عملول غزي الجراد حقلي

بس جراد عملول يا عمي

بعلمي ما كان ياكل لحم ضاني..”(8)

وبتحريف بسيط أصبح اسم أهل الجرد "الجراد" واسم شيخهم "سيد الجراد الكبير"، وحين يرحل الضيوف يكون الوضع في كفر يقدا في أسوأ درجاته وترحل معهم الشيخة، تاركين القرية لشتاء قارس آخر من الجوع والحرمان والبرد.

ولا تعود الشيخة بعدها فلقد وقعت فريسة لمرض السل الذي اعتبره الناس جزاء عادلاً لما فعلته بهم. وتتوالى المعابر في حياة القرية والناس، وفي حياة الشيخ وطانيوس وجريس، وتموت الشيخة، بينما يعود عدو الشيخ من مصر ووكيل أملاكه السابق الذي اتهمه بالاختلاس، وتبدأ حرب خفية من جديد، كما تدور حرب أخرى بين الشيخ والبطرك بسبب القس الانجليزي الذي افتتح مدرسة بموافقة الشيخ وتلتهم كل ذلك حرب جديدة هي دخول المصريين لبنان وارتكاب جريس لجريمتهم وفراره مع طانيوس إلى قبرص.

تتعاقب المعابر والأحداث لترسم لنا في النهاية صورة للدولة التركية كما قلنا لا للشخصية، ولا نريد أن نطيل ففي ما قلناه كفاية وفي العودة إلى الرواية استكمال وفائدة ومتعة.

الهوامش

(1) - صخرة طانيوس - أمين معلوف. ترجمة: جورج أبي صالح. منشورات: ملف العالم العربي - بيروت. لبنان 1994 - ط1.

(2) - حيوان مفترس من السنوريات يكثر في سيبيريا وهو فاخر الفرو (م)

(3) - صخرة طانيوس ص 20.

(4) - المصدر نفسه ص 22.

(5) - صخرة طانيوس ص 24.

(6) - المصدر نفسه ص 25.

(7) - صخرة طانيوس ص 47.

(8) - صخرة طانيوس ص 73.

الفصل الثالث

الغول

* السفر برك

* الجوع.

* الحرب.

* الموت.

وكل ما يدور في فلكه من أحزان.

افتتاحيات:

يا درب الشام لا تغير دلافيهم⁽¹⁾
وبصدر البيت علكنا حساويهم⁽²⁾
أنا لعاتب الترزى وأكل له
مجل عيد خيط لي كساويهم
أنا لعاتب الصايغ وأكل له
يا صايغ ليش ما تفصض ردايهم
أنا لعاتب البيطار وأكل له
يا يطار ليش ما تحذي مجاديهم.
أنا لعاتب سليمى عتابا يا سلمى ليش الكصية يمز ييهم

حربي على شكر الشوارب.. حربي⁽³⁾

يا سباع الغربت ع الزيزفون..
يا بنات ميثمة، إيت يجون..
يا بنات الغربت وأمشي باثرها
يا ويلاه ميثمه وتريد أهلها
نويل ويلى على الولي والموت خلص لي هلي

يا سباع الغربت وأمشي باثرها
يا بيوت مجيبة وتريد أهلها
من بكائيات الناس في رثاء الزاهيين
إلى "السفر برك" - في الجزيرة.

* * *

مريم يا دلي
عسكر عثمانلي
والشعر متدلي
خطفوها مريما
"من رثاء المخطوفات في كل مكان"

* * *

الأرمن ترى أهل القلات
طردوهم إلى بر الفلات
سبعين ألف خانة مثبتات
يسوقوهم إلى نهر الفرات
يرموهم به يا سامعينا
ماتوا كثير منهم بالطريق
ووصلت عنا فرقة طليقي
إلى يم الجنوب بكل ضيق
تشوف إذا مشيت بكل طريقي
رم ورجال ونساء ونينا
جاؤوا لقلب والشام جمعا
وحافتنا ترى يا ناس صرعه
يفييعوا لا نسا هم والبنينا
عن "سفر برك"
أيام الجوع: ممدوح عدوان - ص 232.

* * *

الهوامش

- (1) - رداء من الجوخ يلبس فوق الثياب.
- (2) - عباءة رقيقة طويلة.
- (3) - لازمة تردّد في المآثم والمعادات والمقصود بشقر الشوارب: العسكر العثماني.

مدخل:

لم تكن يوماً وما كانت حربهم، ومع ذلك خاضوها بأظافرهم وأسنانهم وبطونهم الخاوية، جاؤوا بهم من أحضان أمهاتهم أو زوجاتهم، ومضوا بعيداً، إلى بلاد لم يحلموا يوماً أن يروها، وما سمعوا باسمها، قاتلوا بلا هدف أو دافع سوى الدفاع عن النفس.

طوى البرد والجوع والثلج والعواصف فريقاً منهم، وضاع فريق آخر بين القرى والدروب لا يعرف أين يتوجه، وكانت الدولة العلية في لحظة الاحتضار، عجوزاً تتزين بجماجم أبناءها وترقد على عظام ضحاياها، وتبتسم عن هوة من الظلام والبحر النتن تنتظر من يطلق عليها النار.

والدول الأخرى تتسلى بالمسألة الشرقية وتحسب المغام والمكاسب بعد موت العجوز المحتضرة، وقد ماتت فكان الورثة أسوأ، تلك كانت البداية في بداية هذا القرن، كان الأولاد يذهبون ولا يعودون كأولاد الحكايات والخرافات الشرقية ومن عاد يعود بلا روح..

وظلت الذكريات تعاود ناسنا في كل مكان كالعطابات من نار ودم، في كل قرية من سوريا أو لبنان أو فلسطين خاصة، لذا نجد ما أنتج من أدب في تلك المرحلة، هو الأدب الأصدق والأكثر واقعية وحدة، وهذا الكم الذي يتكاثر اليوم عن مرحلة الموت والجوع والظلم تلك.. مرحلة السفر برلك.. مرحلة ستبقى طويلاً يرويها الأحفاد عن الأجداد.. ولن ننسى مهما مرت الأيام.

من ينسى سارق عمره وضحكته ومستقبل أبنائه؟!

من ينسى سارق الدم...؟! أو سارق الرغبة؟

• الرغبة⁽¹⁾

الزمان: كانت الحرب العالمية الأولى تطحن العالم.
المكان: قرية من قرى جبل لبنان، وفي حانوت من حوانيته كانت وردة كسار عابسة طوال ذلك اليوم:

”فقد جاء الدرك في الصباح، وفتشوا البيت مرة أخرى، فقلبوا الأثاث وأزاحوا الخزائن والمقاعد ورموا الفرش واللحف إلى الأرض، ونزلوا إلى المراح، فبعثروا أشياءه العتيقة وأقاموا لها الحانوت وأقعدوه، فلم يدعوا صندوقاً إلا كفأوه ولا طبقاً، ولا إناء، كأن من يطلبونه يستطيع أن يواريه طبق أو يغطيه صحن. وزادوا فكانوا غلاظاً، فشتمها أحدهم وهددها الآخر بعقب بندقيته، واستهزأ بها الثالث وهي فلانة التي تستهزئ بالناس أجمعين، وكان كبيرهم أشدهم تجنياً وأبلغهم نكاية بها لم يعرها التفاتة، ولم يقل لها خيراً ولا شراً، ظنته فاضلهم، فإذا به يمدّ يده وهو خارج، ويأخذ من البرتقالات أكبرها لا إذن ولا حياة..“⁽²⁾.

مشهد صارخ للعسكر العثماني في ممارساته اليومية التي دامت قروناً تلعب بأعصاب الناس وتلهو دون رادع من إحساس أو ضمير، بل قل هي نظرة ”العثماني“ العثماني إلى الآخر، إنها أشبه ما تكون بالنظرة اليهودية التي تعدّ الآخر ”يوكيم“⁽³⁾ لا يتسحق الشفقة أو الرحمة.

هذه هي بداية الفصل الأول الذي أطلق عليه الكاتب ”التربة“ وهي في الحقيقة ”تربة“ البواكير الأولى للليقظة القومية العربية التي بدأت تأخذ طريقها إلى الوجود.

وتمارس وردة ما مارسه العسكر عليها من اضطهاد على السكير الوحيد الموجود في الحانوت، إنه أبو زيد، مدمن وناقه، فتمنع عنه العرق رغم ضراوته ورجائه اللحوح.

ولأن الحياة في القرى تقوم على المصادفات الغريبة رغم رتابة الحياة فيها فإننا نجد ضيفاً طارئاً أو زبوناً طارئاً يدخل الحانوت. رجل عظيم إفرنجي ومظلة وطربوش ووجه مجذور ونظارة، جلس يستمع إلى الحوار الدائر بين الاثنين وحين هدد أبو زيد وردة قائلاً ”وحدي أنا أعرف السر“ ارتعش الغريب وقرر التدخل فطلب برتقالة له وعرقاً لأبي زيد قدر ما يشتهي ثم وضع مجيداً على

الخوان.. وحين خرج ترك كومة من البشالك وقذف بواحد منها إلى الصبي طام ليشتري به حلوى.. هذا خليل المعلا.. وخرج.

* * *

في المساء يتوافد زبائن كل ليلة، فيحفل الحانوت بالقلايق ودخان السيكرات وخليط النكات والعريدات تركية وعربية ووردة تقود هذه السفينة الغارقة بحذق وبراعة ابن الصنعة، وبعد خلاف قصير بين وردة وأحد العسكر، يقفر المكان إلا من خمسة زبائن وقبل أن تغلق الباب تلمح شبح رجل يحمل مظلة يستدير ويمضي، ويتوي الأربعة الباقون على طاولة العرق والقمار، وفي الصباح يغادرون، ويلتقي خليل المعلا بأبي زيد الذي يحاول التهرب منه فيدعوه إلى الغداء فلا يستطيع مقاومة هذا الإغراء فيشترط أن يكون الغداء في مكان غير دكان وردة، وبعد غداء ولعبة قمار يتعارك الاثنان فيهرب أبو زيد ويقي خليل المعلا الذي يلتقي بالصبي طام ابن وردة فيحدثه طام عن صداقته لراسم بك الضابط التركي ويسأله خليل:

"راسم بك الضابط راسم بك؟! ألا تخاف من جزمته التي تطلق؟"

- أنا أخاف؟! أذهب عنده كل يوم، أمسح بكفي على خديهِ وأقول له:

"أبانا الذي في السموات" كل مرة أقولها بحفنة زبيب وجوزتين." (4).

وبعد هذا الحوار، يحاول خليل كسب ثقة الطفل، ثم يسأله عن الخواجه سامي وفي أي دير هو فيحذره الطفل ويهرب منه.

بينما تكون زينة في طريقها إلى مخبأ الخواجه سامي المطلوب للدولة بتهمة المعارضة والتمرد، وهناك يحدثها عن قصته مع العسكري التركي الذي اضطرت الظروف على مضض إلى قتله ويتابع:

"هل يستحق الإعدام شاعر ينظم القصائد؟ أنا لو كنت رئيس الديوان العرفي وجاؤوني بواحد اسمه سامي عاصم لقلت له.. أتعلمين ما أقول له؟! اسمع. ما اسمك أنت؟ سامي عاصم - أنت متهم بعصيان الدولة العلية والثورة على السلطان، أتذكر؟ - لا. لا أنكر التهمة لأنها فخر لي وشرف... وهنا يا زينة لا أعلم بالضبط ما يكون موقف رئيس الديوان العرفي لأنني لست الرئيس، ولكنني لو كنته لتابعت وقلت: ماذا كنت تعمل يا سامي عاصم لأجل تحرير وطنك من "ظلم" الأتراك ولأجل استقلال بلادك؟ كنت أنظم القصائد.."(5).

نعم هو الحلم والخيال والثورة والحب يجتمعان في مغارة من جرود لبنان بين آدم يريد أن يكون وطنه حراً لا تدنسه أقدام الغرباء الظلام، وحواء تستمع وتضحك وتطلع إلى الأمام.. حيث الأرز والحيال والبذور التي تحاول أن تمتد برؤوسها الطرية من بين الصخور.

وتدخل المشهد شخصية الجاويش كامل أفندي المضطهد، الحاقد على الأتراك، المتدين وابن نيبث الدمشقي العريق، الذي تفوح من أجوائه رائحة الكتب الصفراء، وقد تعرض لإهانة بالغة

على يد راسم بك حيث ألقاه سامي في بيت العجوز جد زينة فهو قد جاء لوداعهم وقد جرى التعارف بينهما حين سأله سامي:

”هل أنت محموم؟ هات كفك.

وضغط سامي بسبابته على كف الجاويش ضغطة قوية فقابله بالمثل، وحملق كل منهما بالآخر هنيهة واضطرب كيانه سامي، ثم سحب يمينه وألقاها على ساعده الأيسر مظهرًا السبابة والوسطى ومخفياً أخواتهما، فأخذ الآخر يرفع رأسه عن الحصير، ثم رفع كتفيه فظهره، واستوى قاعداً هاتفاً ”هه“ فأجابه سامي ”لام“ وكامل ”ألف“ وسامي ”لام“ وهجم أحدهما على الآخر يتعانقان

تلك الإشارات والحروف هي علامة التعارف بين أعضاء ”الجمعية القحطانية“ إحدى الجمعيات السرية التي كانت منتشرة في معظم الأقطار العربية وبين ضباط الجيش وجنوده العرب خاصة، يدبرون في الخفاء معدات الثورة ويهيئون يوم الانتفاض على الدولة. وتواعدا إلى الغد.

وفي الفصل الثاني الذي أعطاه الكاتب عنواناً ”البذار“ معلناً بذلك عن بداية الحياة والخصب التموزي الذي لا بد له من عودة إلى موطنه، لتعود معه كل أسباب النماء والعطاء والخير العميم. يبدأ الفصل بمفاجأة غير سارة، ففي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي يطوق جنديان تركيان وأربعة جنود من الدرك على رأسهم راسم بك مغارة الحورية ويعتقلون سامي عاصم.. وتبدأ رحلة السجن والتحقيق إلى عالية.

وترحل وراءه زينة حيث يتكشف للقارئ مدى ما وصلت إليه الأمور في الدولة العلية من ترهل وتفسخ ينخر في كل شيء، الرشوة، والجنس والرذيلة والمنافع الصغيرة والدسائس، وتلتقي هناك خليل المعلا الذي يوصي بها رشدي بـ رئيس التحقيق ويدلها على قصره.

وبالمال اليسير الذي تملكه ”زينة“ استطاعت أن تشق طريقها إلى سامي في سجنه، فسألها عن كامل أفندي وطام وعن خالتها في القرية وفجأة تناهى إلى سمعها:

”يا أفندي بادي شاهم جوق يا.. شاه!“

فأدارت زينة وجهها وقد فاجأها الصوت المذعور الأبح يشق فضاء السجن.. فقال سامي:

”أبله يظن أنه لو نادى بحياة السلطان عَفَوْا عنه، ولو رحموا لاكتفوا ببلاهته وأطلقوا سراحه، سيسكت الساعة لقد دخل الحارس بسوطه لينهال عليه به حتى يغمى عليه، فإذا عاد إلى وعيه عاد إلى الصراخ: بادي شاهم. إن منظر هذا المسكين يؤلمني أكثر مما يؤلمني سجنه، أنا وصوته بأذني: بادي شاهم..“⁽⁶⁾.

صورة فاقعة لما يمكن أن يتحول إليه الإنسان في السجن تحت سياط الجلادين حيث يحاول الضحية بصورة تدعو إلى الرثاء إذا كان هشاً ضعيفاً أن يعبر عن تعلقه "بمثّل" جلاده، وانحيازه إلى ما يدعو إليه.

ويسير التحقيق مع سامي عاصم في مجراه التعسفي، فهو ليس تحقيقاً كما يمكن أن توحى به الكلمة، حيث لا حقوق للكائن الإنساني، وإنما هو محاولات متعثرة لإرهاب وابتزاز وتقويل المتهم ما لم يرد أن يقوله، وإن لزم الأمر، إصااق تهمة التخابر لدولة أجنبية، وهذا ما حدث مع سامي. وبعد التعذيب يغطّ سامي في غيبوبة طويلة لا يصحو منها إلا وتكون قد بدأت المجزرة.. إعدام شهداء بيروت ودمشق في السادس من أيار على يد السفاح جمال باشا التركي⁽⁷⁾:

"... وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية "السلطة العثمانية" وجعلها أمانة مستقلة فحكم على من يأتي ذكرهم هنا بالإعدام:

شفيق بك أحمد المؤيد العظم، الأمير عمر ابن الأمير عبد القادر الجزائري، عمر مصطفى حمد، رفيق بن موسى رزق سلوم، محمد حسين الشنطي، شكري العسلي، عبد الغني محمد العريسي، عارف محمد سعيد الشهابي، توفيق أحمد البساط، سيف الدين أبي النصر الخطيب، الشيخ أحمد حسن طيارة، بترو باولي، جرجي موسى الحداد، سليم محمد سعيد الجزائري، علي حاجي عمر، رشدي أحمد الشمعة، أمين لطفي محمد الحافظ، جلال سليم البخاري.

"... ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم: شفيق بك العظم، الأمير عمر، شكري العسلي، عبد الوهاب الانكليزي، رشدي الشمعة، رفيق رزق سلوم، هؤلاء قد جرى إعدامهم في هذا الصباح في الشام في 6 أيار، والآخرين جرى إعدامهم في بيروت وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منقاهم وجبوسهم.

"... وعلى هذه الصورة تقرر في سوريا وفلسطين السكون والأمن إلى الأبد..."⁽⁸⁾

قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال

أي صورة هذه الصورة التي رسمها جمال باشا السفاح لما يجب أن يكون عليه الوضع في سوريا ولبنان؟! صورة الموت والدم والمشائق.

وفي الفصل الثالث وعنوانه "الغيث" وهل الغيث هنا غير دماء الضحايا ودموع الحزاني الذي

هطل لينمو البذار ويمدّ أعناقَه إلى النور والشمس في تلك التربة المعطاء، تربة الوطن؟! الوطن الذي كان على الدوام وطن العزة والكرامة:

”كنت طفلاً لا عهد لي بالروزنامة، ولكنني علمت فيما بعد أن الجيش التركي دخل وطني الصغير لبنان، ووصل إلى قريتي الجميلة في تشرين الثاني سنة 1914م، وأدركت أنه لم يدخل دخول الفاتحين إلا في البلاغات الرسمية التي أذيعت في استانبول وغيرها من العواصم والمدن وأنّ قواده كانوا يخشون قيام اللبنانيين بوجههم ويحسبون لهم حساباً، لما اشتهروا به في سالف الزمان من الرجولة والمروءة ولما تمتعت به جبالهم من مناعة وشموخ واستكبار . مشّت الحملة فلم يقف في طريقها إلا العواصف، والثلوج، فأفنت فريقاً، وأهلك ”الجوع“ فريقاً آخر، وحامت الغربان فوق بلادِي، ووقعت على تلك الأودية تفتات لأول مرة من جثث الأتراك...”⁽⁹⁾

وشاع خبر إعدام الشهداء في طول البلاد وعرضها فأحدث دويّاً وسخطاً على كافة المستويات، وأمام السجن تسمع زينة بخبر فرار سامي عاصم مع رئيس الحراس شفيق أفندي العلالي ولكنهما لا يفلتان من مطاردة العدو فيقتلان، هكذا فهمت وهكذا رأت الجثتين.

وتعود إلى القرية، وتبدأ دورة من ملاحقات ومضايقات راسم بك حتى تضطر في النهاية إلى قتله انتقاماً، وتهرب، ويزج طام ووردة في السجن حيث يتعرضان لمضايقات قاسية وصعبة خاصة بالنسبة لصبي في مثل عمر طام، وتفقد وردة عقلها. وتكون الأرض والبيت قد ذهبا إلى مراب قدر، هو ابراهيم فاخر لقاء دين بسيط فترك الاثنان لقدرهما القاسي، للجوع والذل والبرد.

* * *

في الفصل الرابع ”السنابل“ حيث بدأ الموسم على الأبواب، موسم حصاد زرع الثورة، لأن الجوع كان قد بدأ ينشر أجنحته وظلاله على الوطن بكامله جوع ومصادرة ونهب وموت في كل مكان، ويسقط خليل الملا في يد زينب وطانيوس كسار، وهنا يعترف أمامها:

”صدقيني.. صدقيني! لقد طالما كذبت، ولكن كلمتي في هذه الساعة فيها من الصدق ما يخسف بكل ما كذبت في حياتي أنا جاسوس مطلع على كثير من أسرار الدولة، وواقف على سير الثورة العربية في الصحراء، إن العرب يتقدمون من ظفر إلى ظفر، وستقلص ظل الأتراك قريباً عن هذه البلاد سامي عاصم وشفيق العلالي هما في طليعة الثوار وقد تقلد كل منهما رتبة ضابط في الجيش العربي. إن التقارير الواردة إلى الأتراك من ميدان القتال تؤكد ذلك”⁽¹⁰⁾.

وتتقدم بعد ذلك طلائع الثورة العربية تكتسح كل ما يقف في طريقها من فلول الترك المبعثرة المهزومة.

* * *

ونأتي إلى الفصل الأخير "الحصاد" وهو حصاد بحق كان بعده الرغبة، رغبة الحرية والأمل والحياة الكريمة(*).

الهوامش

- (1) - الرغبة - توفيق يوسف عواد - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت.
- (2) - الرغبة : ص 11.
- (3) - عبرية : أجنبي أو غريب.
- (4) - المصدر نفسه ص 38.
- (5) - المصدر نفسه ص 49.
- (6) - الرغبة ص 80.
- (7) - جمال باشا : سفاح العرب وقاتل أبائهم أشهر من يعرف بين مجرمي الحرب.
- (8) - الرغبة : ص 113 - 114.
- (9) - الرغبة : ص 8.
- (10) - الرغبة ص 196.
- (*) - هناك قصة للكاتب بعنوان "حتون" تتناول مجاعة عام 1917 وتعالج الموضوع نفسه يمكن الرجوع إليها.

شروال برهوم (i)

الرواية مكتوبة بلغة عذبة، لا تلتزم خطّ الفن بمقدار ما تنحو منحى التوثيق أنيقة أناقة امرأة كتبتها بوجي من أنوثة وأمومة ووطن، وطن عانى ودفع ثمن تكوينه وكونه، ترى في الإهداء إنسانية: "إلى كل الذين ماتوا جوعاً" وهنا الإشكالية، فالموت جوعاً يكون من الندرة أما من الكثرة فذاك العجب العجيب، إلا إذا عرفنا السبب، شيخوخة امبراطورية عاشت مثل "دراكيولا" على دماء الآخرين، وحين فسد الدم حتى في عروق الضحايا تحوّل إلى سمّ زعاف.

تبدأ الرواية بتحديد الزمان: إبان الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918م.

المكان: بلاد الشام.

الاسم الزمني لتلك الحقبة الزمنية: السفر برلك.

وكأنّ تدفع الشرّ بالتعاون والرقى، كإنسان من ذلك العصر - وأصرّ على العصر تحديداً - لخرافة الحادثة كمثيلاً تطرح التساؤل:

"كيف حصلت كل تلك الأمور؟ كيف انقضت الصواعق؟ الحرب والعسكر والضربة الغافلة الغشيمة التي هجمت علينا!

سترك يا ربّ العالمين.. ما أتعسنا.. وما كان أتعسنا!!" (2)

وبلا تردّد تدخل الكاتبة موضوعها، لتتحدث عن امرأة هي بطلة القصة (3) امرأة، هي بانتظار برهوم لا "جودوت" قبل أن يخلق جودوت هذا، ولعبة الانتظار هذه لطولها عانينا منها، انتظرنا المهدي، والمطر، والخلاص، والعودة وخروج الآخرين.. وكان سلاح البطلة، ويا له من سلاح!! البطلة صبية من صبايا الشام، عاشت طفولة غريبة، وحين يفتع جاءها النصيب ففاحت كعطرية أو ياسمينية من الغوطة الخضراء. وتتوالى الصور في ذهن مشوش، غارق في الخوف وخيوط الألوان والمخز والجوخ الأسود..

"تمزّ القطارات التي حملت أهل البلاد إلى سفر برلك.. ومن ثم بعد سنين.. مرت نفس القطارات، وسمعت يومها أن العثمانيين يهربون من الشام.. وأن نساء الباشوات الثريات يتبرعن بحليهن المرصعة بالزمرد الصافي الخضرة، يوزعنّها على عسكر الترك.." (4)

وتتوالى الصور، والتساؤلات، والبحث عن المعاني للكلمات ودلالاتها وهي في الأغلب دلالات ساذجة سذاجة تلك الصبية الدمشقية التي تخلق في نور الشادروان:

"ثم تسطع علينا الشمس الحارة، فينضج تفاح الشام ذو الخد الأحمر، ونأكل الدراق الزهري الصغير الحجم والخوخ والأجاص وبرقوق الشام وتلمظ ورؤوسنا مشدوهة مشدودة نحو الدوالي العالية تنتظر نضوج العنب وتلويحه حبة بعد حبة." (5)
ثم تأتي الحرب، حيث تتصارع أمم الأرض، وتدخل الدولة العلية الحرب كواجب لا بد منه..
وتعرض لنا الكاتبة صورة القادة أولي الأمر من الترك:

- جمال باشا:

"سألت: - من هم هؤلاء الرجال وما هي صفاتهم؟.

- أما جمال فقوي شرس.. ليس فيه لطف أو إناس.

سألت: - وعيناه؟

- عيناه يا مريم سوداوان قويتان تحترقان الصدور.

- قلت .. ويلي.. وهل هو مثلنا أعني هل يضحك أو يتسم

- ضحكته وحشية يا مريم.

- هل يحبنا؟

- المعروف أنه شديد التعصب لتركيبته ويكره بقية الشعوب.."(6)

- طلعت باشا:

".. لا أحد يعرف شيئاً عن أغراض هذا الرجل فهي خفية، ويساعده على إخفائها حلاوة وجه وطلاوة حديث.."(7)

- أنور بك:

".. أما أنور بك.. فيقال إنه رجل ذو شجاعة نادرة وصورة حسنة.. لكنه شرير

النوايا.."(8)

ومن عقد القران إلى ليلة العمر التي تنتظرها مريم ومن عادة أهل الشام أن تقدم العروس هدية إلى عريسها تحضرها في صندوقها المصدّف، وهل هناك أجمل من أن تقدم العروس شروالاً أسود تحيكه بنفسها؟ ولكن ما عكر الفرصة اثنان: السفر برلك والجوع.

تمثل السفر برلك في السوق الاعتباري ممثلاً في شخصية رهيبة طالما خافها الناس حتى باتت خرافية السمعة "أبو لبادة".

"كانت المدن والقرى محصورة بالأسواق، وكانت البلاد يومها تحت حكم جمال

باشا.. وكان الأتراك يرسلون إلى كل مدينة وقرية في بلاد الشام واحداً من

عساكرهم يغلب أن يكون من أهل [قونية] يتقنع بلبادة يضعها على رأسه وهو بمثابة الشرطة العسكرية أما تسميته في الجيش فكانت "قانون شاويش"، وكانت مهمته البحث عن الهاربين وملاحقة المتخلفين عن الخدمة العسكرية..⁽⁹⁾

أما كيف التخلص من أبي لبادة فكان ما إن يظهر في الشارع أو السوق حتى يصرخ أحد الناس عباية.. عباية فيكون الفرار.

* * *

وتمضي الأحداث في مسارها المجهود، يرحل برهوم وتظل العروس تنتظر وهي تطرز الشروال الأسود الذي أعدته للعرس ولم تكن تعرف أنه للحداد.. ويعود قلة بينما الانتظار عالم يرفرف في الأعالي وتمضي الأيام، يرحل الترك والغريان والجوع:

"أما شروال برهوم فانتقلت إلى متحف قصر العظم الأثري كتحففة فنية من فنون التطريز في بلاد الشام.. وبنات الشام. اللواتي تعلمن غرز "الصليب" من بلاد الشام..

يا للوعة التي عانتها مريم في شادروان تلك الأيام⁽¹⁰⁾

ولكن من صنع اللوعة لمريم.. ولكل الذين على شاكلتها.. وهم أكثر من أن تعدهم السجلات..

الهوامش

- (1) - شروال برهوم "أيام من سفر برلك" - ناديا الغزي - دار الشادي - دمشق 1993.
- (2) - المصدر نفسه ص 13.
- (3) - قصة، رواية مصطلح لا زال يحتاج إلى تدقيق في خطابنا.
- (4) - شروال برهوم ص 15.
- (5) - المصدر نفسه ص 27.
- (6) - المصدر نفسه ص 33.
- (7) - المصدر نفسه ص 34.
- (8) - شروال برهوم ص 34.
- (9) - المصدر نفسه ص 57.
- (10) - المصدر نفسه ص 141 - 142.

جدتي (١)

المجموعة بشكل عام تعتبر قصة واحدة ذات فصول وهي تحمل خصوصية البيئة اللبنانية وما فيها من تميز وطعم.

وما يهمنا نحن من المجموعة تلك القصص التي تناولت موضوعنا عن الشخصية التركية. ففي القصة الأولى "جدتي" يعرض لنا الكاتب صورة لجدته في أخريات أيامها، امرأة عجوز، طيبة، حريصة على ثروة وهمية كشأن العجائز في حب التملك، من قروش بيضاء، وهذه الجدة مملوءة بهاجس قديم وهو القادر على إخراجها عن طورها، فتسب وتلعن، إنه "الترك" أي الأتراك كما يحلو لها أن تسميهم.. وكانت تسأل:

"نحن ولاد عرب يما "ترك" (هكذا كانت تسمي الأتراك).

وأفهمها أننا عرب ولسنا أتراكاً فتنبسط نفسها"⁽²⁾

وكانت هذه الجدة مفتونة بسرود وقائع حياتها، وكان "الترك" يحتلون من قصصها الحيز المرموق:

"وكانت جدتي حين تقص علينا قصة من قصص الحيات - هكذا كانت تسمي قصص الترك - تسترسل في الحماسة، وتحتشد في وجهها رواسب من دم لا هو أحمر ولا أصفر، حتى إذا ما بلغت من قصتها الذروة ضربت وجهها بكفها وقالت:

- الله لا يعيدها هاك الأيام، الله لا يعيدها.. يخرب بيتن ما كان أظلمن.

والحقيقة أن أمارات الاحتقار لم ترسم أمام وجهي يوماً مثلما كانت ترسم في وجه جدتي وفي كلامها حين تتحدث عنهم."⁽³⁾

ولا يأتي موقف الجدة عن عبث فلا زالت كلمة "الترك" ترتبط بصورة فظيعة من الممارسات لظالمة، فهم الذين "شمشطوا" زوجها إلى المجلس العرفي، وأعادوه قشبرة على عظم، كما كانت ترميهم بالمعاصي فهي لا تصدق أن شراً يمكن أن يحدث إلا ويكون وراءه "الترك".

"فالجراد من أعمالهم، والموت من أعمالهم، وإفقال باب البحر من أعمالهم..

وعندما تنتهي من سرد "مخازيهم" وقد احتقن الاحتقار في عينيها وشفيتها: - الله يحقهن.. كنا نطعمهن كمان.. يطعمهن كاسات العمى..⁽⁴⁾
إنها صورة لا تحتاج إلى كلام. فالبقية معروفة من القصة.

* * *

أما في قصة "في سبيل اللقمة" فتبدأ بمقدمة تكشف عما تريد أن تقوله من خطاب:
"لم ينقطع سيل الأقدام والحوافر طوال الليل..
كانت القوات العثمانية تنصب من "حمانا" إلى "بحنس" عبر الوادي الذي تقوم
على كتف من أكتافه..⁽⁵⁾
إذن إنه العسكر التركي، صورة دائماً تؤرق أي مكان يعبر منه أو يقترب وهكذا كان حال
تلك القرية:

"أرقت القرية تلك الليلة، فجمدت عيون أنبائها وتسمرت أهدابهم، وعلقت في
حلاقيهم غصص ترحلقها صعوداً وهبوطاً أنفاسهم المترجرة المتردة، ووجفوا من
أن تخترق جدرانهم خفقات قلوبهم فتصك آذان الجنود فيتوقفوا.. ويا ويل للقرية إن
فعلوا، ويا ويل سكانها والبيوت وما تبقى فيها..⁽⁶⁾
في هذا الجو المترقب الخائف المنذر بالشر، لم تغفل عينا "جريس" رغم كل محاولاته، فكل
حافر ترنج لها الأركان، وكل أمر يقصف به ضابط تنقذفه الجدران، وخيالات الدواب والبشر
تنعكس على الحيطان، يزداد جريس التصاقاً بأخيه الذي يلتصق بأمهما، الأرملة التي فقدت
زوجها، بسبب الجوع.
وفي الصباح تصحو على طرقات المختار الذي بدأ يدور على القرية يجمع طعاماً للجيش
السلطان المنصور على سبيل الهدية:

"هي تعلم جيداً أن السلطان ليس منصوراً، وتعلم أن الأتراك والمتركين يروجون
للإشاعات تهويلاً وتزييناً، وتعلم أن ما يقدم للجنود ليس على سبيل الهدية والمكافأة
بل على سبيل إسكات الجوع الذي طوح بالجيش كما طوح بالسكان، ولكنها لا تعلم
بأي منطق وأي حق يُطلب إلى جائع إطعام مجوعه الجائع..⁽⁷⁾
وفي الصباح يذهب "جريس" ورفاقه لاستطلاع المعسكر فيلمحه جنديان ينظران بشغف إلى
ما في يده، ولم يكن في يده سوى رغيف خبز.. وتبدأ المطاردة.. الجنديان من جهة وجريس من
جهة أخرى حتى يستوليا على الرغيف من يد الطفل الجائع الذي لم يمتنع منه إلا بقضمة صغيرة.

* * *

أما القصة الثالثة "عتر"

فبطلها حمار.. لكنه لا يشبه الحمير إلا من حيث الشكل، ولعنتر هذا سجل حافل بالمخالفات والمشاكل:

”عنتر لبط الولد، عنتر قلب جلّ البصل رأساً على عقب، عنتر هاجم حنا مستقتلاً...“⁽⁸⁾

ولو اقتصر سجل عنتر على هذه المخالفات لما حفل صاحبه بذلك، فقد كان ينصرف أحياناً إلى أفعال غير لائقة أخلاقياً:

”فهو إذا ملح حمارة تميم ينصب أذنيه فوق رأسه وكأنهما عمودان، ثم يبدأ بالمهممة، ثم يطلق نهيقاً حاداً يتضمن كل ما يختلج في صدره من لواعج الحب، أما إذا لم يكن أحد يسك بحبله فإنه يسارع إلى غانيته بالقضم والتقبيل ولو أدى ذلك إلى إجفال الحمارة، فينقلب الحمل أو الشخص عن ظهرها..“⁽⁹⁾

ولأن الأتراك كانوا في الضيعة، وهم يصادرون الحمير، لذا باتت مشكلة ”بو محجوب“ وهو صاحب الحمار كيف يستطيع أن يخفي حماره، هذا الحمار المشاكس.

ولأن الأتراك في الضيعة كان هناك جوع وظلم وطغيان:

”يا بو محجوب الدنيا ثقيلة، والأيام صعب، والأعصاب أمست فقاقيع صابون، أقل خاطرة تعكرها، حتى اللا شيء يعكرها اعذر تسرعني يا ابراهيم، إنما ألعن هؤلاء الترك“ الأنجاس الذي انقضوا على خيراتنا جراداً ذليلاً خبيثاً. أمس صادروا آخر مسمنة عندنا إنهم نكشوها من الثبان، فلشد ما هو قوي ربحهم أولئك الكلاب الله يحقهم..“⁽¹⁰⁾

ولأن الأتراك في الضيعة جاؤوا إلى بيت أبي محجوب بحثاً عن حماره فأقسم لهم بأنه مات.. ولم يخلصه من الورطة سوى حضور جندي، كَلَم الأومباشي فانسحب معه مسرعاً.

وتتسارع الأحداث، يختبيء عادل مع حماره عنتر هرباً من دورية تركية تجذّ في البحث عنهما، وعلى مألوف عاداته في المشاكسة يخرج عنتر أمام الدورية المؤلفة من ستة جنود فيحاصره الجنود:

”ما إن أمسك الجندي بزمام ”عنتر“ حتى هجم هذا الأخير عليه، ووجه إلى أذنه قضمة محكمة انتزعت من بطن التركي عزيقاً مرعباً، كما انتزعت من رأسه أذنه، فحملها عنتر وولى هارباً وهو ما زال يرسل نهيقه، بينما تحلق الجنود حول زميلهم وقد فقد وعيه..“⁽¹¹⁾

هكذا عبر مساحة من الإبداع وبلغة عذبة شفافة، رسم جبران مسعود بريشة فنان صورة للعسكر التركي في القرى اللبنانية، حيث الجراد والترك والجوع.

* * *

الهوامش

- (1) - جدتي "قصص من صميم لبنان" جبران مسعود - منشورات: بيت الحكمة - بيروت 1972.
- (2) - المصدر نفسه ص 28.
- (3) - جدتي ص 29 - 30.
- (4) - المصدر نفسه ص 30.
- (5) - جدتي " في سبيل اللقمة" ص 73.
- (6) - المصدر نفسه ص 74.
- (7) - المصدر نفسه ص 79.
- (8) - عنتر . ص 87.
- (9) - المصدر نفسه ص 87.
- (10) - عنتر ص 92.
- (11) - المصدر نفسه ص 97.

الوباء (١)

الوباء رواية بامتياز، تدرك ما تريد وتبرز بحذق ما يمتلىء به النص من دلالات وإحالات تاريخية أو مرجعية أو تراثية، إضافة إلى كونها رواية أجيال وملاحقة دائبة للتطور البطيء أو العاصف لما جرى على أرض هذه البلاد، سواء حين كانت منذورة للخراب أم للتخريب؟ وقد التقط الكاتب ببراعة الأحداث الحارة والشخوص النمطية للشريحة التي تمثلها أو تماثلها أو تماثل بها، وهاني أستاذ في هذا المجال.

ولكن ما يهمنا من عمل يطول - والطول ليس المشكلة - وإنما يهمنا الإفصاح عما نريد قوله لا تقويله من خلال الأحداث، أحداث المرحلة التي تعيننا، ألا وهي مرحلة السفر برك "الجوع" هذا الجنرال الذي أعلن علينا الحرب مثلاً بالسلطان الساكن الذاكرة، وعسكره، ومن ورثه من جمعية الاتحاد والترقي، لذا ستكون دراستنا مجزوءة تقتطع ما يلزم خطابها، وما تبقى على القارئ أن يستكمله..

ما يهمنا من كل ذلك، أن قرية وجدت، كيف وجدت؟ لا علاقة لنا بكل ذلك قرية اسمها "الشير" في الشريط الساحلي الضيق، أهلها مثلهم مثل عربنا يحبون ويكرهون، يعيشون ويموتون، يضيقون بالنعمة كما يضيقون بخشونة العيش، لهم متاع من غرور، ومتاع من الزهد.

"في ذلك الزمن السلحفاتي قدمت إلى الشير جماعة غريبة لا يعرف أصلها من فصلها.."(2)

أولئك الغرباء هم بيت العنز - نسبة إلى عنز كانت ترافقهم - وأقام هؤلاء الغرباء وليمة لآل السنديان حيث قاموا بذبح ضيوفهم عن بكرة أبيهم في تلك الليلة التي سميت "ليلة الدم".

وفي براعة لغوية حولوا اسمهم إلى آل "العز" واحتلوا أراضي المقهورين، ولأن شيخ السنديان الناجي من الذبح في السبعين فقد عافه القتل، لم ييك، لم يتكلم، تزوج فتاة في السابعة عشرة وانتظر بصبر الأنبياء لينتقم. جاءه الابن، ثم الحفيد، وبعد أربعين عاماً قتل الابن عشرة رجال أشداء من آل العنز.. وتوالى السنون على الناس:

"عام 1916 وصلت الحرب العالمية الأولى إلى سورية وأثناء تراجع الجيش التركي، عمّ الخراب بلاد الشام، على نحو لم تعرفه منذ دخوله إليها قبل أربعمئة عام، ولأن

المواسم فنية، والمؤونة نهيت، والمواشي نفقت، والرجال شنت هام الناس على وجوههم هرباً من "الموت" عشرات الآلاف، ولو كان عدد السكان أكثر لصاروا مئات الآلاف، هؤلاء تركوا بيوتهم، وانساحوا على وجه الأرض من البوادي والسواحل تدفقوا إلى القدس، ومن بيروت وحوران إلى دمشق، ومن الجبال إلى حماة واللاذقية، ومن السهول إلى حلب، وفي الشوارع كان صوتهم المسموع الوحيد: خبز! خبز! ومع متاعهم القليل البخس سرعان ما حملوا أمراضاً قاتلة، كان التيفوس أكثرها تمسكاً بهم، لقد وجد القمل في رؤوسهم وآباطهم مزارع مستعدة، فتكاثر بأسرع مما كانوا يموتون، ولذلك ماتوا بأسرع مما عرفوا..⁽³⁾

إنه الخبز مرة أخرى والقهر وحروب السلطان والعسكر والسفر برلك الذي ترك في الذاكرة وشمه الأزرق، وعطاباته التي لا تنسى، وزحف الموت إلى الرموز من الأهلين أمثال شيخ السنديان وأم كحلة، وانضم بذلك أهل الشير إلى القطا البشري الزاحف من القرى إلى المدن⁽⁴⁾ وحمل الشيخ عبد الجواد الخياط - من الشير - ابنه أحمد سليم وكان مريضاً، وحملت الأم داود، وكان رضيعاً، أما صالح فمشى بين أبويه⁽⁵⁾ "ولجأت الأسرة في زمن الجوع والسفر برلك إلى جسر حجري نصف متهدم، وتحت قوسه الضخم التصق الزوجان وأولادهما، وكان الموقف يتطلب موقفاً حاسماً، بمن نضحي؟"⁽⁶⁾ ويتفق الزوجان على التضحية بدادود.. ويظل داود وحيداً تحت الجسر ويمضي الركب.. وما يأتي بعد ذلك لا علاقة لنا به.. لأنه خارج السياق المطلوب لعملنا وإن كان من صميم حياتنا.

* * *

الهوامش

(1) - الوباء - هاني الراهب - اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1981.

(2) - المصدر نفسه ص 11.

(3) - الوباء ص 13.

(4) - كثرة القطا دلالة الجوع في المأثورات الشعبية.

(5) - أسماء بالتأكيد لها دلالة.

(6) - إنه القربان الشرقي دائماً من أجل الخلاص.

البهلول^(١)

ما يهمنا من هذه المجموعة المؤلفة من ثلاث قصص، قصة واحدة هي القصة الأولى "الشيخ لافي الملك"، المختلص المنتظر، وإمام الزمان القادم، والغائب الحاضر.

وتبدأ القصة باختفاء الشيخ لافي الملك، وتختلف الروايات في قرية "البارد" حول اختفائه، ولكي يعرف أحدكم كان عمر الملك حين اختفى فلا بد أن يعود ويستمع إلى العديد من الروايات مرة أخرى، وبعد عملية حسائية قد تدوم شهراً على الأقل يستخلص أنه كان في الأربعين.

لكن لحسن المنة أمين سره رأياً آخر قد يختلف:

"ولا أظنه سينتهي من عملياته الحسائية هذه إلا إذا راجع وعين المؤرخ الباحث تاريخ "الأترك" في فلسطين والاستيطان الصهيوني في الخمسين عاماً الأخيرة، ما قبل "السفر برلك"، وأسماء السلاطين والولاة وقادة الجيوش والباشوات الفلسطينيين وبالتحديد في قضاء مدينة "جنين" ومن ثم وقائع الحرب العالمية الأولى والسفر برلك واحتلال الانجليز لفلسطين، ناهيك عن سنوات القحط والتلج، والكوليرا، والجذري، والمشانق..."(2)

وفي النهاية وبعد كل هذا التاريخ، وأي تاريخ؟! تسلم برغبة حسن المنة بأن الشيخ لافي الملك لا يزال يحارب الباشوات الأترك والانجليز واليهود في الجبال ولا بد أن يعود يوماً بعد أن يهزم الأعداء وينتصر، ولأهل البارد رأي آخر في عمره:

"والرواية شبه المتفق عليها - وهذا أمر غريب عند أهل البارد - هي أن عمره كان من عمر أقدم بيت في القرية التي أعاد جد "الملك" بناءها بعد أن أحرقها "الأترك" وشتوا أهلها لتمردهم على الباب العالي وانضمامهم إلى ثورة ظاهر العمر..."(3)

غير أنّ هناك رأياً - وهو السائد - وهو رأي الدراويش الذين لا يزالون ينصبون حلقات الذكر كل ليلة جمعة في بيت "الإمام" لافي الملك والذي تحول إلى زاوية لطريقته، أما رأي الدراويش هذا:

"فيؤكد أن ليس جد الإمام الملك هو الذي بناه، بل وليس "الإمام الملك" وإنما كان قائماً قبل أن تكون هناك قرية اسمها "البارد"، أما من الذي بناه؟ وكيف ظل واقفاً

بعد أن أحرق الأتراك القرية؟ فهذه مسألة أيضاً فيها وجهة نظر، ولكن الرواية التي يؤكدها الشيخ المبروك محمود الحمد، وهو ابن الشيخ المبروك أحمد الحمد، الذي كان يدق النوبة للإمام أيام ملكه، هي أنه كان لأحد الأولياء الذي اعتصم في قمة هذا الجبل الحصين أيام غزا الفرنج فلسطين قبل مئات السنين، وكان آنذاك يسمى الجبل "البارد" لشدة برده وصقيعه حتى في عز الصيف حيث ظل يحاربهم من فوق بغلة تشبه البراق إلى أن استشهد فوق ظهرها ولا يزال قبره موجوداً تحت قبة العقد.."(4)

نعم.. نص مثقل بالتاريخ والدلالات والرموز يريد أن يوحى من خلال سطره بخطابه المتدفق، وهو يعطي لهذه الشخصية بعدها الرمزي وهالتها الطقوسية، كما يعاود إلى المكان فلا ينساه. فتصديقاً لكلام الشيخ المبروك محمود الحمد، فإنه يروي أن الجندرما الأتراك حين أشعلوا النار في القرية، خرج لهم فارس مجلل بالبياض من "طاقة" صغيرة في قبة العقد، فأهوى عليهم بسيفه ففروا أمامه وتساقط بعضهم في النار التي أوقدها ليكون بعد ذلك عبرة لغيره.

* * *

وبعد كل هذه المداخلات والروايات، يعود الكاتب إلى شخصيته الإشكالية المرمزة بكل ألقابها الدينية والملكية "الإمام الشيخ لافي الملك" أما لماذا سمي بالملك والشيخ؟! فالرواية هنا متفق عليها ولا خلاف حولها، ففي سنة "الحل الكبير" أيام غزا الجراد فلسطين وفي نفس السنة التي نقل فيها السلطان عبد الحميد الولاية من الشام إلى بيروت "طوب" الأراضي في المرج على أسماء سرسق والسعد وعبد الهادي الذين باعوها فيما بعد لليهود وكانت أرض والد لافي من بين تلك الأراضي التي:

"طوبها السلطان على اسم "القمرجي" فؤاد أفندي السعد من أم الفحم و"الخرجي" حافظ باشا عبد الهادي من جنين اللذين أضاءها على "الخمرة واليهوديات بحيفا والكبانيات.."(5)

وقد اشتبك والد لافي مع أزام عبد الهادي باشا والسعد وقتل مع اثنين من أولاد عمه وفّر الباقون إلى الجبال.

في ذلك الزمان كان لافي طفلاً على "بز أمه" فربي عند خاله الشيخ المبروك أحمد الحمد، الذي كان يصحبه بعد أن كبر قليلاً إلى حلقات الذكر في الرواية فكانوا ينادونه وهو في السابعة "الشيخ لافي" ويعتقدون أنه "متصل" رغم صغر سنه، ولأن المبروك خال الشيخ لافي قد أفتى بإباحة أموال "الفاسقين" من الباشوات المارّ ذكرهم، فقد تحول الأهليون الذين باتوا لا يملكون شيئاً إلى رجال "ليل".

ويتابع الكاتب تحولات لافي وحالاته الصوفية أو الدنيوية وقد برّح به العشق حتى يقع في يد

الجنود الأتراك الذين يدهمون القرية ويقتحمون الزاوية في عزّ "النوبة" ويأخذونه، حيث يأمر الوالي التركي بشنقه، ولم تبق زاوية، أو طريقة إلا وأتى دراويشها بكامل عدتهم وأعلامهم مما جعل الحاكم التركي يأمر بإحضار المزيد من الجنود والجندرا والصواري كي يمنعوا الدراويش من الوصول إلى الشيخ لافي وإنفاذه:

"وما كاد الشيخ لافي يطل حاسر الرأس أمام الجلاد حتى دق جميع الدراويش "النوبة" مرة واحدة وهم يصرخون "حي" ثم راحوا يرددون "لا إله إلا الله - لا إله إلا الله..". بينما كان الشيخ لافي يتقدم نحو عمود المشنقة، مرفوع الهامة، ولكنه ما كاد يقف تحت حبل المشنقة ويضعه بنفسه حول عنقه، حتى أطلقت خديجة صرخة علت على جميع أصوات الدراويش وقد حلت شعرها الليلي الطويل، وشقت ثوبها عن صدرها الناهد وراحت تتلوى من "الوجد" إلى أن سقطت على أقدام الشيخ لافي فتوقفت جميع الطبول والصنوج والأعلام والذكر.." (6)

أمام هذه المفاجأة ينهض الحاكم التركي، يحرر لافي من المشنقة ويأمر بترحيله إلى السجن ويفرّ من الجموع، وبعد أشهر من السجن في عكا، يرسله الأتراك للقتال في جبال اليمن، فيلتحق بالثوار هناك ثم يعاود في رحلة إلى العودة:

"ولكي يتقي الشيخ لافي شرّ الأعراب والأتراك في الصحراء علق في عنقه سبحة يسر طويلة، وتعمم واشترى له صنجتين من النحاس وراح يقيم حلقات الذكر في كل قبيلة تصادفه في طريقه" (7)

وفي غيبة الشيخ لافي تتزوج خديجة، لكنه يعود ويقف من جديد ضد أزام الباشوات والكل يردّد:

"حافظ باشا يا تركي

زيتون البارد مش تركه

حافظ باشا يا ضيع

أرض البارد مش للبيع..." (8)

ويتوالى الصراع الضاري بين الأهالي المظلومين وباشوات الأتراك وصنائعهم وعساكرهم حتى كانت المجاعة:

"كانت المجاعة قد بدأت تفتك بالناس منذ السنة الثانية للحرب إذ لم يترك الجنود الأتراك لدى الفلاحين شيئاً إلا وأخذوه..." (9)

وبعد المجاعة كان الجراد، ثم انتشرت الحرائق لطرد وباء الكوليرا، وما إن خمدت حتى عمّ "الجدري"، ثم يبدأ رحيل الأتراك، ويعقبه دخول الإنكليز،.. وتبدأ مرحلة جديدة من تحولات الشيخ الإمام لافي الملك... وتحت الغطاء الإنكليزي يتسلل اليهود..

إنها ليست سيرة ذاتية لرجل اسمه الشيخ الإمام لافي الملك.. بمقدار ما هي تاريخ لوطن اسمه فلسطين بكل جباله وسهوله وتراثه الوطني والنضالي الذي صاغه رجاله في كل زمان.

الهوامش

- (1) - البهلول مجموعة قصصية - توفيق فياض - المؤسسة العربية - بيروت 1978.
- (2) - المصدر نفسه ص 7 - 8.
- (3) - البهلول: ص 8.
- (4) - المصدر نفسه
- (5) - البهلول ص 10.
- (6) - البهلول ص 17.
- (7) - المصدر نفسه ص 18 - 19.
- (8) - البهلول ص 21.
- (9) - المصدر نفسه ص 26.

الطريق إلى الشمس

"تشرية آل المز" (١)

ثلاثية روائية تنتمي إلى تلك الأعمال ذات الموضوعات الكبيرة والنفس الملحمي المطول، تلك التي تحاول أن تؤرخ لتحويلات وطن - إن لم نقل لأمة - وقد بدأت تشق لها طريقاً في أدبنا العربي منذ ثلاثية نجيب محفوظ وصدقي اسماعيل وحنا مينة، مروراً برباعية "الرجل الذي فقد ظله" لفتحي غانم، وخماسية عبد الرحمن منيف "مدن الملح" وأخيراً وليس آخراً "مدارات الشرق" لنبييل سليمان. هذه الأعمال الشمولية.

أو روايات الأجيال كما اصطلح على تسميتها منها ما يغلب عليه الهم الاجتماعي ومنها ما يغلب عليه الهم السياسي. خاصة روايات المرحلة الجديدة التي تريد أن تشارك في كتابة التاريخ من وجهة نظرها الفنية، وتقول ما لم يقله المؤرخون دون حرج.

وما يهمننا من هذه الثلاثية الروائية الجزء الأول لعلاقته بموضوعنا وهو يبدأ في الحقيقة من النقطة التي نحن بصدددها "السفر برك" غول تلك الأيام المريعة، تلك الأيام التي ما زالت ذكرها في النفوس رغم كل تلك العقود من السنوات.

* * *

تبدأ الرواية بعزير الهارب في حجره الصخري، يفترش فروته ويلتحف عباءته ويصطلي النار، رغم أنه قريته قريبة منه فكيف بدأ هذا الهرب؟ ولم؟.

كانت البداية في ذلك اليوم الأسود من شباط، حين جاء ثلاثة من الدرك إلى القرية، يحملون ورقة عليها أسماء منهم اسم عزيز المز، وقالوا:

"إن السلطة العلية في الأستانة ممثلة بخليفة المسلمين، سلطان البرين وخانقان البحرين قد أعلنت الحرب على الكفار من انكليز وفرنسيين. وعلى كل مسلم أن يليي النداء فيمضي إلى الترة حيث تنازل جيوش الإسلام جيوش الكفار.." (٢)

وتليت الأسماء المطلوبة للالتحاق بجيش السلطان.. أطلق الشبان سيقانهم للريح، وختل "قرية الريحانة" إلا من النساء والأطفال والشيوخ، هنا أقسم رئيس المخفر بأنه لن يغادر القرية قبل أن يأخذ معه ثلاثة من المظلومين، والمختار يفهم معنى بقاء الدرك في القرية، إنه الخراب والفساد:

"ثلاثون سنة من الأخذ والعطاء مع "العصملي" علمته الكثير.. هم أناس لا تعرف الرحمة قلوبهم، بل ربما هم بلا لوب البتة، ما يريدونه يصلون إليه، باللين وبالشدّة، يصلون، كم تراه عانى منهم طوال هذه السنين. يأتون إليه في طلب الميرة حنطة وشعيراً وعليه أن يقدمها سواء كان في القرية حنطة وشعير أم لم يكن أحياناً يطلبون رؤوساً من البقر أو شياهاً أو ماعزاً وفي بعض الأحيان يطلبون الدجاج والبيض. وكان يتساءل في سره "دولة عظيمة على رأسها خليفة عظيم تنزل إلى مستوى الدجاج والبيض؟ لكنه لم يكن يملك إلا أن يقدم لهم ما يطلبون، وما هم يطلبون اليوم رجالاً إنها الحرب.." (3)

نعم إنها الحرب، وقودها الرجال "سفر برك" كما يقول العامة وثلاثة الشبان الذي أرادهم رئيس المحفر أصبحوا خمسة فسته فسبعة. لذا لجأ إلى جحره الصخري المنعزل ينتظر رحيل الدرك، لأنه الوحيد من القائمة الذي نجا.

وحين يتسلل عزيز إلى القرية، ويرى ما فعلوه بأبيه وأسرته والناس يقرر تسليم نفسه للدرك، ولكن معركة جديدة تنشب بينه وبينهم فيعاود الهرب من جديد.. وهناك يلتقي بالراعي الصغير الذي يحمل له أخبار ما فعله الدرك من فظائع بأهالي القرية بعد رحيله من جلد وإهانة وتعذيب.. مما اضطر خمس عائلات بينهم آل المّر إلى الرحيل خوفاً من الدرك تاركين بيوتهم وأرضهم ورزقهم... وتبدأ رحلة العذاب والتيه هذه بحثاً عن الأمان.. حيث لا درك عصملي ولا سيات أو ترحيل قسري للحرب في التربة.

يمضي الراكب نحو الشرق، الأطفال والنساء والكهول حتى الدواب كانت مرهقة، وحين تغلغلوا في عمق الجفنتيك بات السؤال الملح. إلى أين؟ حين تكون في مأمن من عسكر العصملي والانكشارية، عليك أن تكون أكثر حذراً من الدو الذين قد يكونون أكثر خطراً من العسكر، وتتوالى النكبات فيقع عمران في يد العصملي ويساق إلى الحرب، ويفرّ الراكب من غضب آخر يرافق دائماً وجود العسكر والخراب والظلم.. إنه الوباء.. وفي النهاية يصل الهاربون إلى "أم العيون" فيحيطون رجالهم.

في المرة الثانية التي تسلل فيها عزيز إلى القرية لم يجد أهله، بل وجد أبا سعدى التي يحبها.. وقد روى له الرجل العجوز القصص عن الدولة العثمانية وتاريخها:

"ذلك التاريخ الأسود الذي خطته يد آل عثمان من الطغيان والاستبداد، بحراب انكشاريتهم المرتزة القساة حيناً، وبأيدي باشواتهم، وبيكواتهم حيناً آخر، البلاد مقسمة إلى إقطاعيات كل إقطاعية يقوم عليها رجل همه الوحيد أن يجني أكبر قدر يستطيعه من المال، هو على استعداد لأن يسلخ جلود الناس لقاءه، يريق دماءهم، يمسّ

أكبادهم، السلطان في الأستانة لا يشبع، خزائنه كالجحيم تنادي دائماً: هل من مزيد؟ والمزيد هو عرقهم ودمائهم، قصر اليلدزلار في الأستانة قام على جماجم الرعية والرعية تشكو وتن لكن الأذان كلها صماء.. هم السلطان الوحيد أن يكنز الذهب والفضة، أن يرسخ سلطانه، أن يزيد من جنده وجبروته حتى بات حلم الناس أن يعودوا إلى عصر الغاب حيث لا دولة ولا سلطان..”(4)

إنه الاستبداد والقهر والاستلاب تمارسه الدولة ممثلة برموزها من عسكر وباشوات وبيكوات وسلطان قامت دولته على الجماجم والدماء، حيث لا قانون ولا سلطان سوى سلطان المال تشتري به كل شيء.

ويتعرض عزيز في الغابة إلى حادث تمزق فيه الضبع بطة ساقه - تراه الأم في منامها قبل الرحلة - وكأن قلب الأم دليلها، ويلقى القبض على عزيز، يسوقه الدرك إلى السجن حتى يشفى ساقه فيرسله رئيس المخفر مع دركي لتسليمه هناك وسوقه إلى الحرب، ولكنه يستطيع الهرب والوصول بعد رحلة شاقة إلى حيث أهله، وبدأ الكل يعيش ولو إلى حين في هدوء وأمان وقد عمت بينهم روح التعاون والعمل الجماعي وهم أشبه بجماعة بدائية تنتج وتأكل من إنتاجها.

وتتسارع الأحداث.. تتوالى حيث بدأت نذر الثورة العربية الكبرى التي يشارك فيها عزيز.. وتطوى صفحة من أكثر صفحات تاريخنا كآبة وظلاماً تاركة خلفها صوراً للظلم والاستبداد لا يمكن أن تمحى..

الهوامش

(1) - الطريق إلى الشمس - ثلاثية: رواية: عبد الكريم محفوظ ج1 تشريفة آل المر منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1992.

(2) - تشريفة آل المر ص 6. /<https://facebook.com/groups/abuab>

(3) - تشريفة آل المر ص 7 - 8.

(4) - تشريفة آل المر ص 65.

المذابح في أرمينيا^(١)

الكتاب جزء من مذكرات فائز الغصين أحد المتنورين من أعضاء جمعية "العربية الفتاة" وخريج مدرسة العشائر في اسطنبول، تقلّب في عدة مناصب في العهد العثماني ثم اعتقل بناء على وشاية، فحوكم ونفي إلى ديار بكر وتأتي قيمة الكتاب من:

1 - أنه وثيقة تاريخية وأدبية عظيمة الأهمية تكشف القناع عن الوجه البربري والدموي لا عن شخص أو مجموعة من الأشخاص وإنما عن أمة بكاملها شاركت بكل مؤسساتها في مجزرة مروّعة ذهب ضحيتها شعب كامل بين قتل وتشريد.

2 - كانت هذه المشاهدات أو الصور أو المذكرات لشاهد عيان لا ينتمي عرقياً إلى إحدى الجهتين من هنا لا يمكن اتهامه بالتحيز أو الهوى لأحد.

3 - لعبت الأحداث المدونة هنا دوراً كبيراً في إغناء من كتب بعده عن تلك المرحلة المروّعة وخاصة في الأدب.⁽²⁾

4 - دحض الدعاوى الدينية التي تستر وراءها السفاحون الأتراك في إباحة الدم الأرمني. بعد المقدمة وبيان الحكومة العثمانية الذي أعلن بشأن تعديات الأرمن تبدأ مقدمات المذبحة المدبّرة بتخطيط مبيت واتقان. فبعد فرار ستين شاباً أرمنياً من الجيش العثماني بسلاحهم إلى الزيتون، ساقّت الحكومة قوة عسكرية مع "فخري باشا" الذي توجه فهدم قسماً من الزيتون وقتل النساء والأطفال والرجال دون أن يجد مقاومة تذكر أو تردداً وجمع ما تبقى من السكان وأرسلهم مع كتائب الجند:

وهذه - الكتائب - قتلت كثيراً من رجالهم، وأما النساء فلا تسل عما جرى بهن، فإن الأعراض أصبحت مباحة للجند العثماني، والأطفال ماتت من العطش والجوع، ولم يصل من الرجال والنساء إلى سوريا إلا كل أعرج وأعمى، لا يقدر أن يعيش نفسه وأما الشبان فقد قتلوا جميعاً، والنساء الجميلات فقد صرن سبايا لشبان الأتراك..⁽³⁾

هكذا بدأت المقدمات وتوالى صور الوحشية فالخانات مكدسة بالأرمن في وضع غير إنساني وكلهم من الأطفال والشيوخ والنساء، والقطارات مكدسة بهم، والبراري امتلأت بقوافلهم

يحرصها الجند الأشداء وقطاع الطرق والسجناء الذين أفرج عنهم مقابل خدمات قدرة من هذا النوع... كان الموت في كل مكان فهذا طفل في الثانية مضروب بفأس على رأسه وملقى على وجهه، وهذه امرأة مصابة بأربعة عيارات نارية أصابتها في صدرها وتحت ثديها وهي بدون لباس وقميصها أحمر من الدم:

"ولكن رفاقي قطعوا بكائي فقد سمعت الضابط عارف أفندي ينادي الخوري اسحاق ويقول له تعال إلى هنا بالعجل فعلمت أنه رأى شيئاً أدهشه، فذهبت نحوه فماذا أرى أيها القراء: ثلاثة من الأطفال النائمين في الماء خوفاً من الأكراد الذين سلبوهم ثيابهم بعد أن أذاقوهم من العذاب أنواعاً وأبواباً ورأينا أمهم تن من الوجع والجوع.." (4)

وحين يصل الكاتب في رحلة العذاب هذه إلى قرية "قرّة جورن" يرى المكان الذي قتل فيه زهرا ب ووارتكس وهما من أشرف الأرمن ومبعوثيهم، ويتفنن القتلة في جرائمهم:

"وصلنا قبيل المغرب لخان يبعده عن ديار بكر بضع ساعات فبتنا فيه وفي الصباح سرنا بين أشلاء القتلى فما كنا نرى إلا رجلاً ملقى على الأرض مضروباً برصاصة تحت ثديه أو امرأة خرق الرصاص سرتها وخرج من ظهرها، وطفلاً نائماً نومته الأبدية بجانب أمه، وشابة في ريعان عمرها واضعة يدها بين فخذيها خجلاً، وهكذا كان طريقنا إلى أن جئنا لقناة ماء يقال لها "قرّة يوكار بالقرب من ديار بكر، وهناك وجدنا أن أنواع القتل والوحشية تبدلت. رأينا أجساداً أحقرت حتى غدت رماداً..." (5)

ولا تتوقف دورة العنف والدم هذه فتطال البروتستانت والكلدان والسريان، ويستمر سوق الأرمن للقتل:

"وبعد الساعة الثامنة يؤتى بعجلات تحمل هذه العائلات لحل قريب فيقتلون رماً بالرصاص أو يذبحون كذبح الغنم بالسكاكين والخناجر والفؤوس..." (6)

وأعقب ذلك بيع متروكاتهم وأنزل الصليب عن كنائسهم.

ومن أبرع المبتات التي تفتق عنها عبقرية القتلة قتل الأرمن في المتابن وذلك بإحراق التبن أمام الباب المغلق حتى يخنق من هم في داخله، أما في "موش" فالأمر أدهى وأعظم:

"فقسم من الأرمن أتلف بالمتابن، والقسم العظيم رماً بالرصاص وطعناً بالسكاكين وكانت الحكومة تستأجر قصايين تعطي لكل واحد منهم ليرة عثمانية يومياً، وقد قص علي أحد الأطباء ويسمى "عزيز بك" أنه كان في قضاء مرزيفون من أعمال ولاية سيواس وعلم أن قافلة من الأرمن سترسل للقتل فذهب لعند القائمقام وقال له: تعلم أيها القائمقام أنني طبيب ولا فرق بين الجزائريين والأطباء إذ أن الأطباء يشتغلون بتشريح الإنسان في أكثر الأوقات.. ولما كانت وظائف القصايين في هذه الآونة كوظيفتنا أي تشريح أبدان الإنسان فأرجوا أن تأذن لي بالذهاب لأرى هذه العملية

التشريحية بأم عيني، فرخص لي وذهبت فوجدت أربعة من القصابين بيد كل واحد منهم مدية طويلة وأفراد الدرك يفرقون كل عشرة من الأرمن على حدة ويرسلون الواحد بعد الآخر لعند القصابين فيقول القصاب للأرمني: مدّ رقبتك، فيمدها، فيذبحه ذبح الغنم..⁽⁷⁾

أي مسلخ بشري هذا؟ وأي قتل بكامل الوعي وبرودة الأعصاب هو؟ إنه إرث الأجداد وغريزة الذئب الأغبر.

* * *

أما ما يحكى عن وحشية "الجاندرمة" فهو خارق بكل المقاييس، وقد بات له طقوسه الخاصة، فكانوا إذا استلموا قافلة من الأرمن، فتشوا أفرادها شخصاً شخصاً وأخذوا ما وجدوه من المال ثم يسلبونهم ثيابهم الجيدة وحاجاتهم الثمينة، ثم يقومون ببيع القافلة إلى الأكراد شريطة ألا يبقوهم أحياء، والقافلة الجيدة تباع بألفي ليرة وقد بيعت قافلة بستمائة وأخرى بمائتين.

وبعد أن يشتري الأكراد القوافل من الجاندرمة يسلبونهم ثيابهم ويتركونهم عرايا ثم يطلقون عليهم النار حتى يقتلوهم عن بكرة أبيهم:

"فيشقون بطون الرجال والنساء ويفتشون عن الدراهم في أمعائهم وفي فروج النساء، ويشقون الثياب والفرش والأحذية لكي يجدوا بها دراهم..⁽⁸⁾

ومن أساليبهم الوحشية أيضاً فضّ بكارة البنات ومن لم يقووا عليها فإنهم يفتضّون بكارتها وهي في حال النزاع الأخير..

وما جرى في ديار بكر وسواس وزيتون وموش وغيرها، هو نفسه الذي جرى في البادية السورية وعلى شطوط الفرات وفي دير الزور ومرقدة والشدادي صورة مروّعة.. ستظل شاهداً على جريمة قتل أمة.

الهوامش

- (1) - المذابح في أرمينيا - من مذكرات فائز القصين - حلب 1991 - مطبعة مطرانية الأرمن الأرثوذكس (ارويولك). ضمن منشورات اللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية.
- (2) - مما يؤسف له أن الكثيرين أغفلوا الإشارة إلى هذه الفائدة أو مصدرها.
- (3) - المذابح في أرمينيا ص 15.
- (4) - المصدر نفسه ص 18.
- (5) - المذابح في أرمينيا . ص 26.
- (6) - المصدر نفسه ص 33.
- (7) - المذابح في أرمينيا - ص 35.
- (8) - المصدر نفسه ص 37.

أوراق الليل والياسمين^(١)

ينحو فيصل خرتش في روايته هذه باتجاه التوثيق والتأريخ لمرحلة ما زالت ظلّاتها تخيم على النفوس، وذكرياتها تتردد على الشفاه وكأنها ترفض أن تغادر أو تمحي، وهي تأخذ في مسارها تشكيلة أقوامية أكثر غنى لنرى صورة التركي عند الآخر تظل تحمل خصائصها الموروثة وممارساتها - وهي كما قلنا - صورة قومية وليست شخصية أو فردية.

فالزمان قبيل نهاية الحكم العثماني للعرب مع بداية "السفر برلك". وأما المكان فهو "زيتون" حيث تسكن أغلبية أرمنية.

تبدأ الرواية بشخصية "مكرديج" ومساعدته خليل، ومكرديج رب أسرة مؤلفة من زوجته "مارو" وابنتيه آني المتزوجة من قريب لها في "البستان" ومانوشاك.

وقد تعرض الرجل في زواجه لخدعة صغيرة احتملها على مضض، وقد ألمت به وعكة في عمله وهو بناء المنازل فقرر السفر لزيارة ابنته آني في البستان وهناك التقى بصديق صباه العجوز فيكين، وحين يقرر العودة تعلن الحكومة العثمانية حالة النفير العام "السفر برلك"، وبدأت المصادرات: مصادرات طالت كل شيء، بضائع التجار، والحميز والبغال والجمال، وبدأ الضباط والعسكريون يطوفون خانات الحبوب والغلال وخانات البضائع التجارية ويأمرون بالإمساك عن البيع إلى إشعار آخر.

وفي الصباح يتقاطر الرجال إلى دار الحكومة لتسجيل أسمائهم في طواير العسكرية فأخذ الشباب لحفر الخنادق وفي الخطوط الأمامية ومن بقي من الرجال العجائز حملوا على عربات تجرها الثيران دون أن يعلم أحد جهة سيرها يرافقهم الحرس المسلح، وابتدأت درب الآلام.

*** *

وفي مكتب والي حلب جلال بك دعي رئيس تحرير صحيفته "فرات" هاشم العطار ليلتقي بوزير الحرية جمال باشا الذي يمزّ بحلب لترتيب أوضاعها:

"تحدث جمال باشا بهدوء ورزانة بلغة تركية متزنة، وتابعه الاثنان بشغف وكانت عيونهما ثابتة في عينيه، ثم نهض وفرد لهما خريطة كبيرة، قسم فيها تركية إلى قسمين، وقال: هذه الأراضي تعتبر مناطق حرية، ويجب أن تكون خالية من السكان الأرمين خلال أسبوع.

سأل هاشم العطار: وماذا سيكون عملنا لأجل ذلك؟

قال جمال باشا: غداً يكون موضوع الجريدة هذا الموضوع وبالخط العريض: "الأرمن يثورون على الدولة في زيتون والبستان".

سأل هاشم العطار: وهل حصل ذلك فعلاً؟!

أجاب جمال باشا بجملته واحدة: لا يهم.²

وتبدأ المدهامات "والكبسات" على البيوت بحثاً عن المتخلفين عن الجهادية، وتسيل الأيدي باللبيرات الذهبية لتصب في جيوب الدوريات لغض النظر عن الأولاد والشباب.

ويكلف هاشم العطار بمرافقة قافلة من القوافل الأرمنية لتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، فيبدأ المسير من قشلة الشيخ يرق باتجاه راجو.. كان المرحلون حوالي ألف رجل يسبرون مشياً على الأقدام في ظروف سيئة للغاية.

وبدأ هاشم يسجل ملاحظاته في رأسه، فرأى كيف كان الرجل يركض إلى بغل العسكري التركي يلم روثه وينتقي منه الشعر ويغسله ويأكله، كما سجل انتشار مرض التيفوس، وحرق المصابين بشيابههم على أطراف القرى.

«وكذلك يمكن لفكيكين صاحب العينين الزرقاوين والذي من سلالة الملك العظيم "ليفون" أن يكون أكثر طمأنينة فقد أخرج العسكر أمه مع أغطيها ووضعوها أمام الباب، صبوا عليها زيت الكاز واشتعلت النار بها وصاح الناس المجتمعين "الله أكبر" ثم فرغوا محتويات البيت وباعوه بالمراد العلني، فأخذ كل واحد من عباد الله حصته وانطلق، ثم ختموا الباب بالشمع الأحمر وكتبوا على الباب "مصادرات حكومات تركية.."»⁽³⁾

وتتلاحق الصور مسرعة كجياذ من النار والدم تترك آثارها على الأجساد وفي النفوس، في عاصفة تملأ كل مكان، وتبدأ لعبة التصفيات الجسدية بكل برودة أعصاب وحكمة وثقة، ويتساقط الموتى بالرصاص أو التيفوس أو الجوع والعطش من المرخلين.

وحين وصلوا "راجو" أمرهم الأمر هناك بالعودة إلى حلب فلا شيء ينتظرهم هنا سوى الموت جوعاً فعادوا بينما توجه هاشم شمالاً حتى وصل إلى مدينة "عينتاب" فجال في أسواقها وفي جوامعها ومدارسها ومطابخها ومن هناك مضى إلى مرعش، بينما أرسلت مارو إلى "قربونار" في ولاية قونية في قافلة لتجفيف المستنقعات.

وفي "زيتون" يستطيع هاشم العطار البقاء يومين مقابل رشوة صغيرة ويستطيع الاتصال بالثوار الأرمن فيتعرف إلى أحد قواد الانتفاضة هناك "آرام" فيعامله باحترام وتقدير حين يكشف له عن شخصيته وهدفه من الرحلة وهو تأليف كتاب عن الأحداث.

وفي رحلة العودة يستطيع هاشم أن يصل حلب على بغلة أهداها إياه "آرام" وهناك واجهه

الموت والجماعة، فلقد ماتت أمه واختفى بقية أهله، وبدت المدينة وكأنها مدينة أشباح فلقد أفرغها العسكر العثماني من كل ما هو إنساني.

* * *

ويظل تدفق سير المرحلين من كل مكان من وان وبتليس وخربوط وموش وأورفا، سيل من القوافل تذوب في البراري والجبال والمنحدرات وفي الأنهر، وقد أطلقوا عليهم عصابات الخارجين وقطاع الطرق أشباه آفي جندر ورفقاه، وتستمر رحلة التيه دونما هدف أو غاية سوى تذويب هذا الحشد الشرقي ومحوه عن وجه الأرض بكل الوسائل.. والسفاحون ينتظرون ويتسمون..

لقد باعدت يد الجزارين بين العائلات، فالأبناء في مكان والآباء في مكان والأمهات والبنات في مكان آخر.. والكل يدور في فلك مجنون والقتلة لا يتعبون، لا يملون فصول الدم والاعتصاب والنهب.. والإنسانية كأنها في عالم آخر فلم يتحرك أحد.

.. وما يجري بعد ذلك نتركه للقارئ فالصورة نفسها.. وينتهي الزمن الروائي بدخول فيصل وخروج آخر القتلة من برّ الشام.

الهوامش

- (1) - أوراق الليل والياسمين - فيصل خرتش - دار النافذة - أثينا دمشق، واللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية بحلب. 1994.
- (2) - أوراق الليل والياسمين. ص 38.
- (3) - أوراق الليل والياسمين ص 40.

رياح الشمال^(١)

هي رواية "السفر برلك" بحق.

رسمت لها صورة دقيقة ومفصلة بأناة وتركيز، وتوقفت عندها طويلاً من خلال أقوال وأفعال وممارسات وأحلام شخصياتها المدروسة والمرسومة باتقان.

نهاد سيريس اعتمد الذاكرة الشفوية ببراعة فالتقط الجزئيات اليومية والأحداث الصغيرة والعادية في حياة شخصوصه للتعبير عما جرى في تلك الأيام السوداء، وإن بدت الخطائية واضحة عند بعض الأشخاص خاصة ممن عملوا في "السياسة" والعمل الحزبي.

تبدأ الرواية زمن الحرب الكبرى من حلب شمال سوريا عبر خطين متباعدين خط ربيع الزيات^(٢) ابن الخامسة عشرة:

"إنها الحرب العالمية، الحرب التي أشعلها مجنون عندما قتل الأرشيديوق في صربيا، يكفي أن تقتل ملكاً حتى تلتهب الأرض بمن عليها، ولكن ما علاقة الباب العالي في مصرع الأرشيديوق هل هو شقيق السلطان رشاد؟ ذلك الدب المتوج؟ واصبحت القضية إسلامية، فقد أعلنت الامبراطورية العظيمة اشتراكها في الحرب إلى جانب ألمانيا وفي نفس اليوم التشريني صفق أبو حديدة كفاً بكف وهو يقطع بلسانه: - اشو صار يا ناس؟ وما دخلنا بالكفار إذا هم تقاتلوا؟..."^(٣)

وفي تلك الأيام تم تعيين جمال باشا^(٤) والياً على سوريا مطلق الصلاحيات...

"وجاءت معه الأوامر الصريحة من الباب العالي (نحتاج للغذاء والقمح والوقود... والرجال) وراحت فرق الإعاشة تجوب البلاد والقرى لتصادر القمح والشعير والعدس والقطن والفحم والحطب وكل شيء يخطر على بالها، صادروا المواشي والبغال والأحصنة وكثيراً من الحمير، صادروا أيضاً عربات النقل..."^(٥)

كما سيق الرجال إلى الجبهات ليقاتلوا، سيق معهم ربيع واستقر به المطاف في اليونان، عسكر الجيش في السهول الفاصلة بين مدينة سالونيك والبحر وأمامهم نزل الحلفاء، وجمد الموقف عند حدود مناوشات متقطعة.

ويكبر الصغير قبل أوانه تعلمه الحياة دروسها بقسوة وعناد في ظروف عاتية فالطين والقمل

والبرد والجوع والحرب والموت المجاني، والجنود القادمون من شتى الأصقاع، عرب وأكراد وترك، كل ذلك يدخل خلايا ربيع يهزه بقسوة، تستيقظ غرائزه، يجب أن يعيش، أن يأكل أن يشعر بالدفء، ويتعرف هناك إلى الأرملة "فروساكي" فتضيف إلى عمره لونا من المتعة المحرمة، وهناك يرتقي سريعا من خلال أعمال بطولية - كذا - يقوم بها، ويحدثه صديقه محفوظ عن قائدهم مدحت باشا:

"عندما هربت إلى القرية ثم أعادوني إلى هنا استدعاني مدحت باشا وجلدني برسن حمار، عندها بصقت في وجهه، فأوقفني أمام شجرة وأقسم أنه سيطلق النار عليّ، تشهدت، وبالفعل كبس على الزناد إلا أن الرصاصة لم تنطلق، كانت فاسدة، قذفت البندقية إلى الأرض، وراح يضربني بيديه ورجليه حتى فقدت الوعي، لم أمت ولكنني أقسمت أن أقتله.." (6)

هذه القسوة والسادية التي تلون تصرفات مدحت باشا (7) في تعامله مع الجنود باعتبارهم مجرد مخلوقات وجدت كوقود للحرب، هذه الحرب غير المفهومة الأهداف.

"لقد رأى انكليزيا يذبح تركيا وبعد أن ذبحه رأى الدم ينبس من رقبته كأنه نبع حقيقي، ثم راح التركي يشخر بتشنج، بينما جحظت عيناه وكأنهما ستسقطان على الأرض (يا الله، لا أريدهم أن ينتقموا الآن (أي كلبه ابنة كلبه هذه الحرب).." (8) وإلى جانب هذه القسوة التي كان يمارسها، كانت لديه لذة أخرى أكثر شذوذاً ووحشية في تعامله مع الأسرى الذين يقعون في أيدي جنوده:

"إنه يتلذذ بالقتل، فقد قتل حتى الآن ثلاثة من أسرى الإنكليز، يقولون إنه يضاجعهم ثم يذبحهم بالسكين وهو الذي قتل زوج الأرملة "فروساكي".." (9)

هكذا عاش ربيع الزيات في ذلك المستنقع من الوحل والنتن والموت والأحقاد الصغيرة، في أرض لم يسمع عنها من قبل، وحين رافق مدحت باشا إلى قصره في بورسا بهره الترف الأسطوري والحياة المنعمة.

و ذات مرة استدعاه الباشا بعد أن علم بخيانة إحدى زوجاته، قاده إلى المستودع حيث كان العشيق وهو أحد وكلائه، ويأيعاز منه عزاء ربيع الزيات ثم ربط عضوه مع الخصيتين بخيط ثخين من القنب وناول طرفه لمدحت باشا:

"شدَّ الباشا الخيط فصرخ الرجل، وقف ربيع خلفه وعقد يدي الرجل خل ظهره، استمرَّ الباشا في شدَّ الخيط بهدوء إلا أنه بعد ذلك شدَّ الخيط بقوة جعلت الوكيل يصرخ بألم شديد، وقد جحظت عيناه ثم أغمي عليه.. سقط عند قدمي ربيع الذي شاهد الدم ينفر من ذلك الجزء.. مسح الباشا يديه وقد رسم ابتسامة صفراء على شفتيه. جمع في فمه بلغمًا ثم بصق على الرجل.." (10)

وبعدها يرحل ربيع إلى حلب، يرى ما فعلته الحرب في البلد، فككت الأسر، وأتت على كل

شيء، حتى اضطرت الناس إلى أكل كل شيء، وهناك يتزوج من عائشة بنت معلمه القديم.

* * *

أما الخط الثاني فهو خط صالح وعمر بنبوك، وقد سبق الاثنان مع الآخرين لتعزيز دفاعات الجيش التركي في الكوت على الجبهة العراقية، وصالح لاعب ماهر في الشطرنج، وهذه اللعبة سيكون لها تأثير كبير في حياته، فقد اشتهر بها وقد قرر العقيد زهدي أن يأخذه معه إلى استانبول ولكنه يهرب منه في حلب وهناك يتعلق بالأستاذ خلوقي، الرجل المتنور.

أما عمر بنبوك زوج بهية الزيات أخت ربيع فهو رجل مسالم، لا يحب الحروب بل يحب زوجته بهية، وهو ابن عم صالح، هذا الرجل البسيط حولته الحرب إلى شيء آخر، إلى ضيع يجوب القفار، يقطع الطريق، ويشير الرعب في النفوس، كما حولت زوجته بهية إلى بغي، عاهرة بسبب الجوع، الجوع إلى الجنس الذي لا تصبر عنه والجوع إلى الطعام..:

"أخيراً قالت بهية وهي تحتضن رأس عائشة:

- همس لي قبل أن يغادر أن اسمه أحمد وأنني رائعة.

تضاحكتنا ثم قالت عائشة:

- أيتها اللعينة.. أحمد.. آ.. أحمد باشا.

ثم جعلتا تشدان:

جانم.. جانم بالتركي أحمد باشا ناطركي

أحمد باشا قدامك شاييل بقجة حمامك

حمامك تحت القلعة وخدامك ستي سبعة"⁽¹¹⁾

ويعرض الكاتب فيما يعرض لمذبحة الأرمن على يد الأتراك كإحدى ممارسات الأتراك في الحرب، ولا يختلف في روايته عما رأيناه عند فيصل خرتش ونيل سليمان وفايز الغصين في مذكراته.

أما الشخصيات الرسمية كأنور وطلعت فلا تخرج عن مسارها الذي نعرفه في الأعمال الأخرى، لكن تبقى شخصية "الأرغلي" مميزة في العمل لما لها من تأثير على مجرى حياة عمر بنبوك وحياة الناس:

"كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هناك شاويش في الجيش العثماني، اسم

هذا الشاويش هو "الأرغلي" كان يقود فرسان أقوىاء هيايين، يزرعون الرعب بين

الرجال والأهالي كانوا ذوي وجوه سمر وشوارب سود فاحمة، يصلبون على

صدورهم أحزمة الخراطيش وهم من أصحاب الألسنة البذيئة.."⁽¹²⁾

ويستمر الكاتب في الرواية بهذا الشكل الأسطوري الخرافي وكأن ما حدث حكاية من

الحكايات المتخيلة ويساعده في ذلك الشكل الذي اختاره للسرد:

"كان يا ما كان كانت مهمة الأرغلي هذا وأصحابه هي التقاط الفراري من الجيش، كانوا عندما يسمعون أحداً قد عاد إلى أهله يطبون عليه، فيحتلون الأزقة، وينصون الحبال، ويصعدون إلى الأسطحة، ثم كان الأرغلي يطرق الباب أو يقوم بكسره ثم كان يبحث عن الرجل في الأقبية والسقائف وفي الآبار.." (13)

وللأرغلي ثمنه والتمن الذي يقبضه كان على الدوام غالياً:

"ولّي ولد ولّي
إجا عمك الأرغلي
براغيد صغار ما بياخذ
بدو دهب عصملي.." (14)

كان يا ما كان هل يمكن أن يكون ما حدث قد حدث حقيقة؟ وفي بلادنا نحن بالذات؟.. أم هو حكي في حكي؟

الهوامش

- (1) - رياح الشمال ج 1 - سوق الصغير - ج 2 1917 - نهاد سيريس. - دار الحوار اللاذقية: 1989 . - إبداعات 2000 : 1993 .
- (2) - شخصية متخيلة.
- (3) - المصدر نفسه ص 9.
- (4) - شخصية تاريخية .
- (5) - رياح الشمال "سوق الصغير" ص 9.
- (6) - المصدر نفسه ص 26 - 27.
- (7) - شخصية تاريخية.
- (8) - رياح الشمال "سوق الصغير" ص 17 - 18.
- (9) - المصدر نفسه ص 27.
- (10) - المصدر نفسه ص 249.
- (11) - رياح الشمال 1917 / ص 208 - 209.
- (12) - رياح الشمال 1917 ص 149.
- (13) - المصدر نفسه ص 149.
- (14) - المصدر نفسه ص 150.

مدارات الشرق "الأشعة.." (١)

رواية مسكونة بالتاريخ والهاجس السياسي، تحاول أن تصنع من أحداثه القرية عملاً أدبياً شمولياً لما جرى في الديار الشامية وخصوصاً سورية من أمور منها ما هو هام وبارز، ومنها ما هو عائم بين ذاكرة الناس وشفاههم يرّدونه في ليالي السمر، ولكنه يظل مريئاً.

وهذا التوجه نراه اليوم يطفئ على ما يصدر من نتاجات أدبية وخاصة في سورية، كما عند هاني الراهب ونهاد سيريس وحليم بركات وحيدر حيدر وأحمد يوسف داود، كل على طريقته الخاصة، ومرّة ذلك - كما يبدو - الشرخ القائم في مشرونا القومي العربي، والتشتت السياسي وما يدور في العالم من تحولات جديدة، حتى بات الرهان "أن نكون أو لا نكون".

شخصيات الرواية منها ما هو حقيقي "تاريخي رسمي" أمثال السلطان عبد الحميد وجمال باشا، ولورانس، والكلونيل كيش، ومنها ما هو فني متخيل كفريق الفارين من الجيش العثماني، فياض واسماعيل وعزيز وراغب وياسين.

أما زمن الرواية فيبدأ برحيل الأتراك من الشام، هذا الرحيل الذي طالما انتظرتة البلاد ورأت فيه الخلاص من ظلمات واستبداد طال ليلهما حتى غطّى على كل شيء.

"مثل من سبق رحل الأتراك إذن، تلاحقهم أصداء مبهمة، فيها ما كانت تتوارثه الحنايا، وفيها ما يرطن، فمئذ عهد سحيق لم تعرف الشام نصراً على نفسها أو على غيرها.." (2)

ثم يعرض لأولئك الشباب الذين جاء بهم النفير العام "السفر برك" من بيوتهم وهم يحملون ظلمات المرحلة كوشم عجري يرتسم على الوجوه والروح.

"كانوا ما تبقى من مجموعة الشباب والكهول الذين انتزعتهم الحرب من بيوتهم المتناثرة في أرجاء البلاد، وقذفتهم بعيداً، إلى آخر ما عمّر الله كما ردّدوا دائماً.

في ذلك الجيش الميمم شمالاً التقوا، حيث كانت أفواج الفارين والأسرى من جيوش "السلطان" تتقاطر، كذلك المتطوعين لم يكن أحدهم أوفر سعادة ولا أكثر

اعتزازاً، فما همّ الجميع أنهم قد نجوا من الجحيم "التركي" وربما من جحيم الحرب، سواء على الجبهة أم في عقر الدار.."⁽³⁾

إذن لم تكن الحرب حرباً واحدة بل كانت حربين، حرباً في البيوت للظلم والقهر والطغيان والترحيل القسري والسلب وامتهان حرية الإنسان، وحرباً من أجل السلطان الذي لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للمحاربين من غير الأتراك وحتى الأتراك.

إنهم خمسة يغطون مساحة كبيرة من جغرافية البلاد، لكل منهم حساباته الخاصة مع الأتراك، وهم يحملون لهم صورة - بالتأكيد ورثوها الأولاد والأحفاد - صورة لا تختلف عما رسمته الذاكرة والأقلام، والمؤرخون والأدباء للأتراك.

"حين دخلوا الشام كانوا قد غدو خمسة فقط ولم يكن بينهم من يعرفها سوى راغب الناصح.."⁽⁴⁾

فمن هؤلاء الخمسة؟ وماذا يمثلون بالنسبة للرواية؟ ذلك أن الكاتب ما انتقامهم عن عبث أو صدفة وإنما كان يمثل كل منهم شخصية نمطية أو شريحة تحمل خصائص منطقة جغرافية واجتماعية وسلامية وهم:

اسماعيل معلّا:

سيق من كفر لالا إلى مصياف ومنها إلى حلب ففلسطين، وقد كان ذلك السوق الإجباري سبباً في موت ابنه عاطف واستيلاء ابن البزاز والشيخ منصور على أرضه وأرض الكفر وذلك في لعبة تتوالى فصولها دائماً ومن ورائها الباشوات الترك وأتباعهم من الأغوات والمتنفذين:

".. الشيخ منصور أذكى. غيره نطح هذه الصخرة التي تحتمي تحتها الآن، وهو بلا قرون. يا حسرة غيره أراد أن يقاوم السلطان فنفاه السلطان دهرأ، وصارت الساحة خالية لبيت البزاز وسواهم وسواهم، وراح ابن الهواش فرق عملة، المسكين خدعته نعومة المتصرف، هولوا باشا كان المتصرف هنا يوم كنت أحمو، وبعد هولوا باشا جاءنا باشا ثان كبير، نسيت اسمه يمكن مدحت باشا.. فرد باشا.. كان هو الآخر ناعماً مع الجميع، وغرت نعومة الباشوات ابن الهواش فتمرد، صحيح أنه استطاع أن يهزم الدنادرة قبل ابراهيم باشا بذاته، ولكن يا حسرة.. الشيخ منصور أذكى، صحيح أنه أفقر من ابن الهواش لكنه شيخ وها هو قد بدأ يصير غنياً، انتظروا سنة، سنتين، حتى يتنل شيخ وملاك معاً أكبر من أيّ منهما وحده، شرط ما يغش في اللعب مع الأغوات كما غش غيره.."⁽⁵⁾

إذن هي اللعبة الأبدية التي تتوالى فصولها وتدور وإن جرى التغيير وطال بعض شخصياتها لكن اللعبة تظل مستمرة..

ياسين الحلو:

كان الأتراك: الوالي والسلطان سبب ترحيل أسرة ياسين الحلو من قريته "تلدف" شرقي حلب إلى الزنبقلي في منطقة حمص، ففي موجة الجفاف كان أبو ياسين قد باع آخر شبر له من الأرض وأصبح مرابحاً عند الآغا، وفي تلك السنة كان كل شيء ذابلاً في تلدف من النهر إلى الشجر، ومع ذلك ألح الملتزم على ضريبة العشر:

"لم يكن لدى أهل تلدف ما يدفعونه، ولم يفعل الآغا من أجلهم شيئاً، فما كان منهم إلا أن قيدوا الملتزم الذي لا يفتأ يهدد ويشتم، ووضعوه في تابوت الضيعة، حملوه على أكتافهم وساروا به نحو المقبرة مكبرين، ياسين نفسه سار في تلك الجنازة وفي المقبرة كشف والده التابوت وفك وثاق الملتزم وصاح: - إياك أن تعود، لا تجمعلنا ندفنك وأنت حي." (6)

ونتيجة لذلك وجد ياسين وأسرته أنفسهم مرميين خارج البيت، إذ لم يعد لهم في تلدف مقام لا للعيش ولا للموت. هكذا كان الرحيل الأول إلى الزنبقلي ثم جاء الرحيل الثاني مع جيش السلطان للحرب..

* * *

عزيز اللباد :

كانت الحرب وراء ذلك الصراع الذي احتدم بينه وبين "بيت بشارة" في قرية "قبة" و"صافيتا" فلقد تنازل الأب لبيت بشارة عن أرضه مقابل أن يسعوا في خلاص عزيز من الجيش ولكن الأرض ذهبت كما ذهب عزيز إلى الحرب وعانى من أهوالها ما عاناه.

* * *

فياض العقدة :

من ضحايا الحرب والترحيل القسري، هرب من المشفى والتجأ إلى ديار عشيرة "الحسنة" البدوية. عاد إلى أهله بعد دخول الفرنسيين عبر عن نزعة انتهازية، مثل السقوط المائي في العمل.

راغب الناصح :

مثله مثل الآخرين عاد من الحرب ليرسم الكاتب من خلاله صورة للتحويلات التي قامت في منطقة الجولان وما حولها.

تبقى هناك شخصيات أخرى ترتبط بعلاقات فنية مع الشخصيات الأولى كمثل "العم الحاتم أبو راسين" الذي قتل الأتراك زوجته الأرمنية ولم ينبج منهم إلا بعد أن كشف عن عضوه التناسلي وثبت لهم إسلامه من خلال ختانه، إضافة إلى عمر التكلي وهولو وغيرهم.

ذلك هو ما يهمننا من صورة التركي في الرواية، صورة الحرب والاغتصاب والموت والظلم..

ذلك أن خروج الأتراك كان المقدمة لما جرى من أحداث ومصائر وتحولات لا زلنا نلامس أثرها حتى الآن وإلى زمن طويل.

الهوامش

- (1) - مدارات الشرق: نبيل سليمان - دار الحوار - اللاذقية (1990).
- (2) - مدارات الشرق ص 8.
- (3) - المصدر نفسه ص 8.
- (4) - المصدر نفسه ص 9.
- (5) - مدارات الشرق "الأشعة" ص 25.
- (6) - مدارات الشرق ص 32.

أعمال يمكن الاستفادة منها في الموضوع نفسه :

- سفر برك. أيام الجوع - ممدوح عدوان - مسرحية-سلسلة مسرحيات مجلة الحياة المسرحية رقم 5 . دمشق - 1994.
- ثلاثية سبيل الشخص - عبده جبير - رواية - دار التنوير 1983.
- زهرة الصندل - وليد إخلاصي - رواية-الكرمل - دمشق.
- باب الجمر - وليد إخلاصي - رواية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1984.
- رحلة النيلوفر - وليد الحجار - رواية - مطبعة الكاتب العربي - دمشق.
- الاغتراب - هلال الراهب ، رواية - وزارة الثقافة - دمشق 1983.
- حديث عيسى بن هشام - محمد المويلحي - رواية - دار الهلال - 1959.
- بين أبو الريش وجنيئة ياميش - في المبتديات - يوسف السباعي - مكتبة الخانجي القاهرة - 1950.
- الرجل الذي حارب نفسه - مسرحية - لؤي عيادة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق.
- الهندس - ابراهيم الحليل - رواية - دار التنوير - بيروت 1987.
- العصاة - صدقي اسماعيل - رواية - وزارة الثقافة - الأعمال الكاملة - دمشق.

الفصل الرابع

"بقية ..

من نشوة الماضي"

"ثمة مركاتيليه عثمانية، عبادة للمعدن الثمين عثمانية،
كمذهب للحياة الدنيا، للدولة وللإقتصاد: الثروة هي الذهب
والفضة."

إلكاي صونار

جامعة البوسفور - بياك - اسطنبول

مدخل عام :

رحل العثمانيون الأتراك عن البلاد العربية - كما رحلوا عن غيرها - انسحبوا كسلطة حاكمة وعسكر وولاة وباشوات، ولم يبق لهم من وجود رسمي سوى ما خلفوه في ذاكرة الناس ونفوسهم من ندوب ومرارة وجوع وحروب وموت وظلم واغتصابات، وباتت استانبول مدينة عادية لدولة عادية اسمها تركيا تعيش على ما يقدمه لها الغرب لقاء خدمات غير مشرفة.

ولم يبق لاستانبول من مجدها القديم سوى الذكريات فقدت بريقها الأسطوري وسطوتها وسلطينها الأقوياء، كما فقدت مركزها كموئل لخليفة المسلمين، وكعاصمة لامبراطورية امتدت أطول فترة في التاريخ ثم تلاشى كل ذلك كأضغاث أحلام.

وجاء مصطفى كمال ليعريها من أوسمتها وجلدها وثيابها الفلكلورية وتاريخها في محاولة لتغريبها فبدت كإحدى عارضات دور الأزياء الأوربية بأصباغها وإكسسواراتها وحروفها الهجينة وكأنها تخطط الشمبانيا بالقمر⁽¹⁾

انسحب الأتراك وأيديهم ملوثة بدماء العرب والأرمن واليونان والبلغار والرومان.. وغيرهم. ولكن بعض العائلات من أصول تركية ظلت في بلاد الشام ومصر والعراق، استوطنت وعاشت، ولكن نشوة الماضي ما زالت تدير الرؤوس أحياناً.

هذه العائلات نراها تعزبت في الوسط الشامي والعراقي ولم يبق لها من روابط بأصولها إلا قليلاً، بينما نجدها في مصرها تمثل الشريحة الارستقراطية الإقطاعية من ملاك الأراضي وهي تشعر بتميزها وترفعها عن أبناء البلد الذين تراهم مجرد "فلاحين" لا يصلحون لغير العمل كالدواب. وقد يكون مرد ذلك إلى أسبابه التاريخية:

- ففي بلاد الشام والعراق لم يستتب الأمر للسلطة العثمانية في الريف والقرى لاصطدام سلطتهم بسلطة شيوخ العشائر من البدو والمتنفذين مما جعل وجودهم محدوداً.

- بينما في مصر استطاعوا أن يحكموا قبضتهم على الريف والقرى وكانت سلطة العمدة خاضعة لهم، ومن هنا جاءت صيحة الرئيس عبد الناصر "ارفع رأسك يا أخي"، ومن هنا جاء اهتمامه بفضح الارستقراطية المصرية في السينما والمسرح والأدب لتحطيم هيبتها في نفوس

الشعب، تلك الهبة التي كانت نتاج قرون من القهر والظلم والاستلاب، ومن هنا جاء الدور المهم للإصلاح الزراعي في مصر:

”وكان هدف الدعاية الثاني الإطاحة بكل الامتيازات الاجتماعية التي كانت تحمي الطبقات الارستقراطية، والتي بقيت إلى ما بعد تعريتهم من الأخلاق والقيم الفاضلة، فلقد كان الخوف والرغبة من أفراد الطبقات الأرستقراطية متأصلاً في نفوس أفراد الطبقات الفقيرة إلى حدّ اعتبر فضح الأسرار الجنسية للأرستقراطيين أقلّ ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة منهم، فقد كان أحد موظفي سفارتنا يقول: ”إن المصريين يحبون البكوات“ ولهذا السبب فقد أحبوا الديوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من الأمريكيين احترام المصريين . لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا الخنوع لحاملي ألقاب ”البكوات“ التقليدية في مصر بثتي الوسائل ”الخبيثة“ ومنها الأفلام السينمائية وتمثيلات التلفزيون التي تمثل رجلاً عادياً يطالب بحقوقه ويضرب الإقطاعي صاحب الأرض..“⁽²⁾

من هنا تأتي أهمية الفصل الذي نريده لشخصية العثماني المستوطن في البلاد العربية وأفضل من يمثل هذا الاتجاه الأدب المصري.

الهوامش

- (1) - شراب يتخذ من حليب الخيول بعد تخميره.
- (2) - لعبة الأمم - مايلز كوبلاند - تعريب مروان الخير - بيروت - انترناشيونال سنتر - 1970 ط1.

عودة الروح^(١)

إن لتوفيق الحكيم فضل الريادة في الرواية العربية، فهو أحد روادها في مرحلة النهوض الوطني والقومي بعد ثورة 1919م التي عاش أحداثها وامتألت نفسه بالروح التي خلفتها في الساحة المصرية، وروايته عودة الروح مكتوبة عام 1927م تعبيراً عن تلك الرحلة، ولكن دون أن تقع - ككل البدايات - في شرك التردّي أو الضعف الفني، أو التكلف الأسلوبي، أو الخطائية الساذجة كما نرى عند المولحي وهيكلي.

لقد ولدت (عودة الروح) ناضجة تدرك ما تريد، ويملك الكاتب السيطرة على أدواته بمهارة وحرقة:

"إنها ولا شك طريقة شهرزاد في حديثها، مع سخرية دقيقة مماثلة لسخرية "فولتير" مؤلف "كانديد". يا له من سحر يجتذب القارئ حتى نهاية القصة.."⁽²⁾

ولا تخفي الرواية هدفها بل تعلنه من خلال العنوان "عودة الروح" وأي روح هذه؟! إنها روح الشعب المصري في نهوضه ويقظته وتكسر أغلاله التي طالما غلّته وغيبته عن العالم، روح الأصالة والأجداد، بعد كل تلك الظلامات على أيدي الباشوات والمماليك والولاة والسلاطين، كل السلاطين:

"إننا نلمس مؤلفاً من تلك المؤلفات التي لو وجدت عندنا لنعتمها "موريس بريس" بقصة (النشاط القومي) وليس لمدلولاتها غير معنى واحد، هو أن الروح العائدة، إنما هي روح فلاحي مصر العريقة في القدم..."⁽³⁾

إذن، إنها رواية انبعاث قومي وحضاري، يأخذنا فيها توفيق الحكيم إلى أجواء عائلة بورجوازية مصرية صغيرة بكل حسناتها وسيئاتها دون تكلف، وكأنه يريد أن يقول هذه مصر الحقيقية، وهؤلاء هم أهلها من طلبة وفلاحين وموظفين..

إنهم محسن⁽⁴⁾ الطالب الصغير، والعاشق الشرقي الهائم بابتة الجيران "سنية" التي يشاركه في حبها الأعمام أيضاً، وأعمامه بكل مواصفاتهم التي هي مواصفات عامة مصر، وزنوبة.. إنهم باختصار "الشعب" كما يسميهم محسن، منهم الموظف "حنفي أفندي" مدرس الحساب بمدرسة "خليل آغا" وهو الأكبر سناً "ورئيس شرف" الأسرة، ومنهم "سليم أفندي" ضابط البوليس

الموقوف عن العمل بسبب مغالته لسيدة سورية ومحاولة التعرض لها، وهناك "عبده" الطالب في السنة الأخيرة هندسة، ثم زنوبة المشرفة على المنزل عمة محسن الساذجة الحاملة بالزواج والنصيب، يبقى أخيراً "مبروك" الخادم وهو ليس خادماً عادياً، فقد كان رفيق الصبا لأفراد الأسرة في بلدة "الدلنجات" لذلك هو في الأسرة شبه "خادم شرف".

والشعب هذا يعيش حياة بسيطة دون تكلف، أو تعقيد، فكل أفرادهم ينامون معاً ويأكلون معاً في غرفة واحدة، رغم وجود غرفة أخرى، ويمرضون حين يمرضون معاً.

"أصابتهم كلهم الحمى الإسبانية، وعادهم الطبيب فما كاد يقع بصره عليهم حتى دهش، قاعة واحدة اصطفت فيها خمسة أسرة عيار "بوصة وربع" أحدها بجانب الآخر، وخزانة واحدة كخزانة الخطاطين، مخلوعة إحدى عارضتيها، فيها ثياب على كل لون ومقاس، وبعضها ملابس بوليس رسمية بأزرار نحاسية وآلة موسيقية عتيقة بمنفاخ.. "هارمونيكاً" معلقة بالحائط:

- أعنبر ! في ثكنة؟

ولكن الطبيب واثق من أنه دخل منزلاً وما زال يذكر رقمه وشارعه ودنا أخيراً من السرير الخامس فلم يتمالك أن ابتسم، لم يكن هذا سريعاً، وإنما هو مائدة الطعام الخشبية، انقلب فراشاً لأحدهم. وقف الطبيب يتأمل المرضى الراقدين صفّاً وفي النهاية تقدم وهو يقول:

- لا .. دا مش بيت! .. دا مستشفى!...

ثم فحصهم الواحد بعد الآخر، وفرغ من عمله، وهم بالانصراف ولكنه عاد فنظر إليهم من جديد، في شيء من التعجب وهم محشورون في تلك الحجرة، ماذا يحملهم على هذا الحشر؟ وفي الشقة غرفة أخرى حجرة الاستقبال على الأقل. وسألهم في ذلك فأجابه صوت ارتفع من أعماق السرير:

- مبسوطين كده.

لفظت هذه العبارة بلهجة ساذجة صادقة، بل عميقة، يدرك المتمنّ فيها "سروراً داخلياً" بهذه المعيشة المشتركة ولو استطاع أحد لقراً على وجوههم الباهتة، ضوء سعادة خفية يمرضهم معاً، خاضعين للحكم الواحد، يعطون عين الدواء، ويطعمون عين الطعام، ويكون لهم عين الحظ والندسب.

- يظهر أنكم من الأرياف؟

وخرج الطبيب دون أن ينتظر جواباً وقد ارتسمت في مخيلته صورة الفلاحين وطفق يقول في نفسه:

- ليس غير الفلاح يستطيع هذه الحياة، هو وحده الذي - على الرغم من رحب داره

- لا بد له أن ينام هو وامراته وعياله وعجله وجحشه في قاعة واحدة... (5)

نعم إن هذه الصورة البارعة المرحّة، بفكاهتها اللاذعة هي التي تظل تسيطر على أجواء الرواية، مع نقد ساخر من بعض الأوهام والخرافات التي نراها تتمثل عند العمة "زنوبة".

ولكن ماذا في الجانب الآخر؟ ماذا عن عائلة - حسن الأخرى: الأب والأم، الأمر يختلف تماماً، فالأب الفلاح الميسور بسم له الحظ وتزوج من عائلة تركية - أم محسن - وهذا امتياز يجب أن يدفع ثمنه، وهذا ما يراه محسن في زيارته لأهله جلياً. فمن البساطة والمرح والرضا والتضامن إلى العلاقات المعقدة والبروتوكول والسخط التي تحكم علاقة الأب الخانع المستسلم والأم المتكبرة المسيطرة، المترفعة، الفخورة بأصلها.

"وصل القطار أخيراً إلى محطة "دمنهو" فأطل محسن على الرصيف ووجد بانتظاره: البربري "السفرجي" والأسطى "أحمد الحوذني" وما كادا يتعرفانه حتى تعلقا بمركبة القطار وصاحا:

- حمد الله على السلامة "يا ييه".

- شيل العفش يا بلال واسبق.

- والبيه الصغير!؟

- أنا أوصل البيه الصغير .. تفضل يا ييه.

وهكذا نزل الفتى وسار بين الخادمين كالمستغرب، وكلمة "يه" ترنّ في أذنيه رنيناً غريباً... (6)

إنه عالم جديد لم تألفه روح الفتى التي تشربت بحياة "الشعب" لكنه سار فيه كالمسحور، استقبلته الأم، تلمسته عضواً عضواً ثم ابتسمت، وحين دخل "الأب" قتل محسن يده بأدب.

"وظف بعدئذ يسأله عن الدروس وعن أساتذته وعن امتحان الكفاءة الذي سيتقدم إليه محسن هذا العام إلى أن تدخلت والدته قائلة لزوجها منتهرة:

يا باي عليك!.. مش تصبر عليه لما ياخذ نفسه؟ أيوه! سأله الأول عن صحته وصحة أعمامه، إيه قلة الذوق بتاعتك دي؟" (7)

ثم يلتفت الفتى حوله ليرى الأبهة التي لم يعتدها مع "الشعب" من أعمامه، طنافس غالية، ورياش فاخرة، وخدم وحشم غير أشكال مبروك الصديق أكثر من الخادم، خدم يلبسون قفاطين بيضاء ويتمنطقون بأحزمة حمراء، عالم جديد وساحر:

"وكانت والدته في تلك الأثناء تنظر إليه الأخرى، فما لبثت أن قالت:

- لبسك! عايجيني يا محسن.

فغمغم الفتى بكلمات مبهمّة واستطردت الأم تقول:

- أنت ما طلعتش زبي أبداً!..

وهنا تنحج الأب وقال:

- ولا زبي!..

فالتفت الزوجة وقالت في تهكم:

- من إمتى يا حضرة العمدة "الفلاح" .. إنت تنكر إني أنا اللي مدنك وعلمتك الأبهة؟..

فأجاب زوجها متقهقراً:

- الله .. وأنا قلت حاجة؟ طبعاً يا هانم إنت تركية بنت أترك!..⁽⁸⁾

ولا يقف الأمر عند هذه الشكليات بل يتعداها إلى أشكال أخرى، لتبدأ مفارقة تطال كل شيء ليس اللباس الآن ولا الجوارب الحريرية، إنه الطعام، ففي عشائه مع الشعب يذكر:

"جاءت ساعة العشاء واجتمع "الشعب" في فسحة الشقة حول مائدة من الخشب الأبيض الرخيص، عليها غطاء مشمع، قد أكل الدهر عليه وشرب كما أكلوا هم عليه وشربوا، وربما نام الدهر عليه أيضاً، كما نام مبروك الخادم، فهذه المائدة هي التي تنقلب بالليل سريراً لـ "مبروك ليضع عليها مرتبته وبراعيته، وفي الصباح تعود مائدة، يوضع عليها طبقت الفول المدمس الكبير، وأرغفة الخبز الخاص للإفطار، وقصعة الفريك أو الفول المابت للغداء أو العشاء.."⁽⁹⁾

أما في عشائه مع عائلته فالوضع تغير:

"مدت مائدة العشاء، وجلس إليها محسن ووالدته ووالده وجعل "بلال" البربري، و"علي" البربري - وكلاهما بملابسه البيضاء، وحزامه الأحمر، كأنهما من برابرة فندق "شبرد" يتنقلان بالصحاف والأواني ذات الألوان المتعددة والأطعمة اللذيذة، ومع ذلك كان محسن فاقد الشهية للأكل، يتناول من كل لون لقمة، كأنما يقضي واجباً عليه، ولاحظت والدته قلة أكله فسألته في ذلك قائلة:

- مالك يا محسن؟ الأكل مش عاجبك؟ عند أعمامك الأكل أحسن؟

فكاد الفتى يضحك إذ ذكر قصعة الفول المابت وورك الأوزة، الذي قذف به "عبده" من النافذة.. ومع ذلك فقد كان هذا الفول المابت لذيذاً في فمه.. لذيذاً وهو يلتهمه وإلى جواره مبروك الخادم، يرشف نصيبه وعيناه اللامعتان ترمقان الدخان المتصاعد، وخياشيمه تستنشقه في شهية قوية، ثم "حنفي" الرئيس شرف" وباقي الجماعة وهم مجتمعون حول هذه القصعة وكأنها كعبة.

ما أسعد الجماعة!.. وما أحسن تلك الحياة مع الشعب، نعم لهذا كان يأكل.. ولهذا سمن مع سوء التغذية وقلة الألوان.."⁽¹⁰⁾

ويأتي دور النوم، حيث يقودون محسن إلى حجرة جميلة غالية الرياش ولكنه بسرير واحد: "وحنّ إلى سريريه بجوار أسرة أعمامه في تلك الغرفة "العمومية" ذات الخمسة الأسرّة، وينحشر فيها "الشعب" بأجمعه حشراً واشتد به الحنين ولما تمضي به ليلة، حتى أدرك أنه كان هناك في نعيم.. وأن هناك إنما هي "الحياة".." (11)

وهكذا عاش محسن أيامه مع الطعام الفاخر وعيش "الفينو" الأبيض، والخدم والحشم والأبهة والمآدب الفاخرة، وقد رأى بعينه الظلم الواقع على الفلاحين وأمه تمارس سطوتها وترفعها واحتقارها لكل ما يحيط بها من بشر لا تراهم أرفع منزلة من الأنعام والحيوانات.

وهكذا تتوالى الأحداث في مفارقة تكشف عن عمق الظلم والاستلاب ولكن كل ذلك لا يمنع هذا الشعب الأصيل من إبراز خصائصه الأصيلة والعظيمة فالروح التي تسكنه تظل كالتميمة الحافظة له من الزوال والفناء.

"أمة أتت في فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الأتيان بمعجزة أخرى.. أو معجزات.. أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون، ولا يرون قلبها العظيم بارزاً نحو السماء بين رمال الجيزة. لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش إلى الأبد.." (12)

ولا يكتشف محسن هذه الروح ولا يلامسها إلا حين اندلعت الثورة.. (13)

لحظتها اكتشف الإجماع الكبير على حب كبير.. "حب مصر.."

الهوامش

- (1) - عودة الروح - توفيق الحكيم - رواية - القاهرة - مكتبة الآداب ومطبعها - الجمايز
- (2) - "لي نوفيل ليتيرير" أول يناير سنة 1938 - جانين بونجران.
- (3) - "سيرانو" يولييه سنة 1937م - جان ديستيو.
- (4) - بدعي توفيق الحكيم بأنه "محسن" وقد كانت هذه الشخصية محط إعجاب وإلهام الرئيس جمال عبد الناصر.
- (5) - عودة الروح - ص 9 - 10.
- (6) - عودة الروح ص ج 2 - 10.
- (7) - المصدر نفسه ص 11.
- (8) - عودة الروح ج 2 ص 12 - 13.
- (9) - المصدر نفسه ص 26.
- (10) - عودة الروح ج 2 ص 13 - 14.
- (11) - المصدر نفسه ص 14.
- (12) - عودة الروح - ج 2 ص 240.
- (13) - المقصود بها ثورة 1919.

مقامات بيرم^(١)

بيرم التونسي الظاهرة الفنية والأديب الشعبي الذي عرف كيف يصوغ معاناة الرجل الصغير وآلامه وهمومه التي هي بالتأكيد هموم أمة بكاملها، هذا الرجل المعدن الكريم والناذر، أثرنا أن تكون المقامة هي مجال دراستنا لما فيها من حسن شعبي وطرافة وسخرية لازعة، لأن الرجل متعدد المواهب فلقد كتب في الزجل والشعر والمقالة والقصة والأغنية والمسرحية، والأوبريت والمقامة. والمقامة فن عربي خالص لا مثيل له في الآداب الأخرى وهو يقوم على الكديّة: التسول والحيلة والتنكر والبلاغة التي تخلق ألباب الضحايا. أول من فقد قواعده الهمداني ثم جاء الحريري.. ثم جاءنا اليوم بيرم ولكن ليس يبطل فرد كما في المقامة الكلاسيكية وإنما تعدّد عنده الراوية وبأسماء ضاحكة شعبية وجذابة ولكنهم في الأعم الأغلب من الشيوخ المعممين من المجاورين أو الفقهاء أو القراء والمنشدين.

وبيرم في مقاماته يعرض لكثير من الشخصيات ولكن ما يهمنا من مقاماته "المقامة الهانمية" لأنها توافق هدفنا، فراويتها شعيب بن وهذان وهو من حملة القرآن وقد ربّي في بيت الباشا سليمان ولكنه لا يختلط بغير الرجال لأن الدخول إلى "الحرم" محظور عليه، وذلك:

"لأنّ نظري السليم منعي من الدخول إلى الحرم، وهن من الأتراك، وما أدراك؟ ولكنني كنت أرى أولادهم الصغار.. كأنهم النوار فاستدل بالظاهر على المستور.. وبالأهلة تعرف البذور ويا طالما سمعت من الحرم ضحكات تذيب الفؤاد.. وآهات تحار في تصويرها الأعواد، فأتمزّق وأذوب، وأستغفر وأتوب.." (2)

وشعيب بن وهذان هذا الذي لا حظّ له إلا السمع، يدعوه رسول الباشا يوماً فيخفّ إليه على عجل، فيدخله الحرم. الجئة التي كانت محزّمة سابقاً عليه، وهناك يرى..

"وإذا تحت النجفة حرمة بيضاء.. ضفائرها صفراء، ونهدادا ناهدان وذراعاها سمينان، ولحمها مستوي.. وهي حلواء قوي.." (3)

وهناك يحدث ما لا يمكن أن يتصوره شيخنا المفتون، إذ يعقد قرانه على تلك الحسناء، وبعد الحفل والأفراح، يدخل مع عروسه غرفتهما، ويتوجه إلى القبلة في صلاة شكر لله وهنا:

"وهنا دخل الصالون غلام تلميذ.. كهؤلاء الذين يذهبون إلى لندره وباريز ولكنه

قليل الأدب.. لا ذقن له ولا شنب.. وأخذ بيد امرأتي وأنا منشغل بصلاتي.. وأخذ منها قبلة، فتحولت فوراً عن القبلة.. وذهبت لأضربه بالقبقاب، فأخذها وأغلقت الباب. (4)

ويبقى صاحبنا مبهوتاً وقد ركبه الهم وهو يسمع أصوات القبل، تصك سمعه وحين فتح الباب، زاد همه وقد رأى عروسه:

”فزاد بي الغم، لما رأيت وجهها مثل الدم، وصدرها مهتوك، وشعرها مفكوك وهذا الولد الملعون، واقف بلا ينظرون.

فقلت: أيها المرء، ما هذه السخنة؟

فقلت: الزم أدبك أيها الفصيح، وإذا لم يعجبك هذا السلوك فانطح الحائط برأسك.. أو افعل ما تشاء بنفسك.

فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا أمر لا يرضى به إلا الساقطون وقد رميتك من حالي، اذهبي فأنت طالق... (5)

وبعد أن ألقى عليها يمين الطلاق، قام الولد وخلع الطربوش فإذا هو فتاة جميلة وكل ما مرّ كان حيلة لأن الرجل إذا طلق زوجته ثلاثاً لا تحل له إلا إذا تزوجت غيره.

”وعرفت أنني كنت ذلك المحلل، ولهذا لم أطول، فخرجت طارثاً الدم طرثاً، وقد أعطوني مائة وخمسين قرشاً.. (6)

وخرج صاحبنا من الجنة بلا حواء ولا إثم.

الهوامش

(1) - مقامات - بيرم التونسي - القاهرة - مكتبة مدبولي - 1973.

(2) - المقامات : ص 142.

(3) - المصدر نفسه ص 145.

(4) - المصدر نفسه ص 146.

(5) - المصدر نفسه ص 146 - 147.

(6) - المقامات : ص 147.

الأخت لأب.. (١)

عبد الحكيم قاسم.. مصر وعالم آخر من اللغة المدروسة والموزونة بميزان نبي أو كاهن فرعوني، يرسم على بردية أو حائط أو قبر أشكاله الهيروغليفية بريشة خشنة أو سكين مصقول. هكذا يكتب عبد الحكيم قاسم ويقول وقد تعاوده بلاغة أجداد من العرب فيغيب في صخب من البلاغة المثقلة بعنبر أو شيح أو قيصوم نأى عنه أصحاب المعلقات. لذا فكُن على حذر وليقرأك النص قبل تقرأه أو تزيد منه فضلة أو بلغة.

والأخت لأب واحدة من كثيراته، فيها معادلة لما يمكن أن يعبر عنه الفلاح المصري عن مكره الريفي - الذي بات غريزة - وهو يعلن عن وجوده بعد ثورة عبد الناصر وما جرى.

كما قلنا وظف عبد الحكيم قاسم اللغة - ولنقل الأسماء - ليحملها ما يريد قوله، فهنا أب تاجر - فتح الله عليه - له عزوة وأهل وأخوة وعائلة، تزوج من عائلة تركية على زوجته، أطمعهم بالمال، وبدأ صراع صامت حيناً ومعلن أحياناً، فالأم البيضاء وأولادها - مشكلة اللون - يشكلون حالة خاصة في القرية ثم تلك الحروب الصغيرة بين الزوجة القديمة وحلفائها من الأهل والأعمام الذين يجمعهم اللون وبين الزوجة الطارئة التي بدأت في الإنجاب وهي فضيلة قروية يجب أن تقابل بالترحاب ولكن كانت هناك عقبة هي عقبة أسماء الأولاد، فالأول شوكت على اسم جده، والبنات الوليدة شهرت، ثم الولد الجديد جودت على اسم الخال، مما يعزز في النفوس الخوف خوف قديم ارتبط بهذه الأسماء كما ارتبطت كل أعمال الشر بإبليس.

والأب مع كل ذلك غائب، محايد، يتقبل الأشياء برحابة صدر:

”أبا.. أُمي ولدت ولداً..!“

ابتسم الأب وضحك الرجال. حلّ صمت. قلق شوكت. كلم العم المجذور الوجه الأحمر العينين الأب في جهامة وضيق:

- هل تسم ابنك؟ أم تترك زوجتك تستبد بذلك وتعطي عيالنا أسماء عجيبة..!
وعرف شوكت أن العم يقصده بذلك فهو لا يحب اسمه ولا يحبه، قبض الخوف

على قلبه وهرب لونه التصق بأبيه، ردّ الأب شارداً:

- إنما تسمي الإنسان أفعاله. (2)

لقد ترك الأب أفقاً مفتوحاً، فيه كل سعة أفق السهول، ولم يحاول أن يكون ضيق الأفق، ورغم أن الأسماء عربية بالمعنى والأصل لكن التاء الأخيرة تعني أن من تداولها كانوا من الترك.

وهناك لعنة البياض التي جلبت مع ضعف البنية لشوكت آلاماً أخرى ترتبط بالذاكرة الشعبية، وبعض المماليك، الذين جاؤوا ومع ذلك كانوا أقوىاء البنية لأن الفساد لم يدبّ بعد إلى أجسادهم ولكن البياض:

"ينظر في صمت إلى العم، وهذا قد ملّ اللعبة وجلس لاهثاً مرتكناً إلى الحائط وحوله "الجدعان" يكلم شوكت في مرارة قاتلة وسط الضحك والزعيق:

- أنت يلوط بك العيال..!

لأ

يواصل العم متحدياً:

- أنت أبيض وهش كالبنيت قعيدة الدار.. أنت يلوط بك العيال (3)

ولا يقف بياضه عند هذا الحدّ فهو يؤلب عليه كما رأينا أقرب المقرين إليه وكأنه عار يجب الخلاص منه، وهل يستطيع الإنسان الخلاص من جلده، ومن هنا تنفجر فيه أخته لأبيه دون سبب:

"- أتباهيني بأنك أبيض وأنا سمراء؟

ولم يفهم شوكت شيئاً، مباهايتها لم تخطر له على بال، لكنه يبهره أن تتكلم كالكبار، وحتى في الكبار لم يسمع شوكت أحداً يقول هذه الكلمات العجيبة:

- أتباهيني بهذا..؟ مباهايتك مردودة عليك.. الجير بالأكوام والفلفل بالميزان.

ونسي شوكت حتى خوفه منها، انشغل عقله بحل طلاسم كلماتها وملاحقة حركات قدها العفريت، موصولة به "شهرت" المفطومة تروح وتجيء معه، وذيل مندبل رأسها يطير خافقاً وملاحمها تتراقص في وجهها المكفهر:

- اعرف إذا لم تكن تعرف.. نحن سمر.. السمار لنا.. والبياض عار علينا!!

وقبض على قلب شوكت خوف من هذا الإعلان الحاسم، لم يفهم شيئاً كثيراً لكنه كره أن ينبذ، أن ينفي، كره تلك الشقرة في شعره.. (4)

ومع ذلك فحطّ شوكت مع أهله ليس أكثر توفيقاً، فإذا كان لونه واسمه يثيران له أزمة، فإن

أخلاقه وتصرفاته مع الطرف الآخر هما المشكلة فإن كان له اللون التركي فأخلاقه أخلاق الفلاح المصري.. وتلك هي الأزمة.

الهوامش

- (1) - الأخت لأب - عبد الحكيم قاسم - قصة طويلة - دار التنوير - بيروت - 1983.
- (2) - الأخت لأم : ص 24.
- (3) - المصدر نفسه : ص 19.
- (4) - الأخت لأب ص 9 - 10.

ثائر من بلدي^(١)

رغم الضعف الفني الواضح، والحماسة الخطائية والمباشرة، وشعارات المد القومي في الخمسينات، تظل لرواية "ثائر من بلدي" أهمية خاصة فهي العمل الوحيد الذي بين يدي عن مأساة سلب لواء اسكندرون من سوريا وضمّه إلى الجانب التركي بتواطؤ فرنسي أعلن عن أهدافه الجنرال ويغان صراحة:

"إن وجود تركيا قوية على حدود البلاد العربية يخفف من حماسة العرب ويعرقل تطورهم.." ⁽²⁾

كما أفصح عنه المدرس الفرنسي لتلاميذه من العرب:

"إن الاتفاقية بين فرنسا وتركيا على سوريا، قد دفنا فيها حلم الوحدة العربية.." ⁽³⁾

إذن هناك تمايز بين الشخصيتين الواردتين في النص الروائي، لأن كل شخصية إنما تعبر عن صورتها القومية لا الفردية، والصراع لم يكن من أجل مطامع شخصية عادية وإنما طالت جزءاً من الوطن بالاعتصاب والسلب، هكذا بروح لصوصية لا تخفي أطماعها أو تحاول أن تموهها ودون اعتبار لجوار أو رابطة دينية، إنها صورة أقرب إلى صورة قاطع الطريق، البربري المتوحش، والمتطلع بنهم إلى ما بيد الآخرين ولا رادع يردعه.

والرواية تبدأ عام 1936 في ربوع أنطاكية، في مدرسة المعارف، حيث يقوم الأستاذ⁽⁴⁾. وهو شخصية تمثل مرحلة الوعي القومي والنهوض العربي، شخصية مستنيرة تقود النضال من أجل إبراز الشخصية القومية - بإعلان نتائج العام الدراسي حيث يفوز ابراهيم الصالح، ابن واحدة من قرى أنطاكية الصغيرة بالمرتبة الأولى.. وقد عاش:

"ابراهيم منذ نعومة أظفاره معركة متواصلة، مستمرة ضد "الأترك" فعلى بعد ميلين من القرية العربية - قرية ابراهيم - قرية تركية صغيرة يهيمن عليها رجل فظ، غليظ القلب، من مخلفات العهد العثماني، يدعى شكري آغا الغوري.." ⁽⁵⁾

وككل الأغوات، كان لهذا الآغا ابن مدلل وفاسد هو "أدهم" الذي يمثل جيل الشباب التركي هناك، فهو يتزعم شلة من أبناء قريته ويا طالما دارت معارك بين أبناء القريتين العربية والتركية.

وحين كان على ابراهيم أن يودع قريته وحببية قلبه سلمى ابنة عمه ليلتحق بالمدرسة الثانوية، أوكل أمر حمايتها إلى أخيه رياض حين تذهب ملء الجرة من النبع الذي يقع بين القريتين.

وتتطور المناوشات والمنازعات بين القريتين، وتشهد تصعيداً جديداً وخطيراً على أيدي الأتراك الذين وصلتهم تعزيزات جديدة من تركيا تقوي من عزيمتهم وتكشف عن تطلعاتهم المشبوهة ونواياهم الخبيثة المبيتة وإصرارهم على إشاعة الذعر والخوف في نفوس السكان العرب لإجبارهم على الرحيل أو التسليم لهم.

ويتعرض ابراهيم لصدمة مروعة، فهذه سلمى تسقط بين براثن المجرم "أدهم" فيغتصبها، فيقسم على الانتقام، ومنذ تلك اللحظة ينحرف مجرى حياته بشكل لا يمكن التحكم به.

ففي القرية التركية كانت تقام حفلة راقصة ابتهاجاً بما قام به الأتراك من فظائع في القرى العربية وقد جلس تحت العلم التركي المبسوط شكري آغا وابنه أدهم والغريان اللذان قادا الغزو على القرية العربية، وقد تسمرت العيون.. كل العيون على جسد راقصة تتمايل وسط الجميع

"وأخذت الحناجر تردّد صائحة:

- أدهم.. أدهم.. أدهم.

ونظر أدهم إلى والده الآغا كأنما يطرح عليه سؤالاً أو يطلب منه موافقة، فهزّ هذا الأخير رأسه بالإيجاب وعلى الأثر انتضى الشاب العتليت من وسطه خنجرين وتقدم من الراقصة يدور حولها في رقصة مجنونة تعيد إلى الأذهان ذكرى أسلافه البرابرة، وأجداده.." (6)

وبينما القوم غارقون في لهوهم كانت عينان ترقبان في الظلام ما يجري، إنه "ابراهيم"، تسلك إلى القرية التركية تحت جناح الظلام، ولطأ إلى جانب شجرة ينتظر، حتى إذا انتهى الحفل وتفرق القوم، بقي أدهم والغريان يتشاوران في أمر غزوة جديدة، يعدّان لها على فلاحي إحدى القرى العربية:

"فالفلاحون شبه عزل من السلاح، وحماة الأمن من رجال الدرك؟ يا ويل الفلاحين منهم، فجلّهم من الأتراك.. وقائداهم "راسم بك" تركي "متعصب" لبني قومه، "يكره العرب" ويؤدّ محوهم من الوجود.." (7)

وأخيراً ينهض أدهم، يودّع صاحبيه ويمضي باتجاه الشجرة يترنح سكرأ ويدندن بابتهاج وعجرفة:

"يا شاسن مصطفى كمال، يا شا سن تركيا، يا شا سن شكري آغا.. يا شا سن أدهم آغا.. يا شا.. يا شا.. يا شا.." (8)

ويتخير كل شيء، السكر، والعجرفة، والابتهاج، حين يسمع صوت ابراهيم حين يأمره أن يسير أمامه، ورغم توسلاته واسترحامه الذي يكشف عن شخصية تافهة وطبيعة غادرة وجبانة، يأمره ابراهيم بمتابعة السير وتبعاً لطبيعته التي عرفت بالغدر الموروث عن الأسلاف، يحاول أدهم أن يرشق ابراهيم بخنجره في غفلة منه، فيروغ منه، ويقوده إلى مكان جريمته ويصبح به:

"الغدر.. والطعن في الظهر.. وقتل الشيوخ والأطفال والاعتداء على النساء تلك شيمة "قومك" وتلك "أطباعكم" أيها "النذل" أما منازل الرجال وجهاً لوجه، وخوض المعارك دون وجل ولا خوف فهي أشياء لم تتعودوها أبداً.. لقد ورثتم عن أجدادكم "المغول" غريزة السلب.. و"النهب" و"سفك الدماء" والاعتداء وحرق المدن والقرى الآمنة.." (9)

ويتهيئ الأمر بمقتل أدهم، ويفرّ ابراهيم مخلفاً وراءه بندقية نقش عليها اسم أخيه رياض، وما يهمنا من كل ذلك أن المحاكمة التي قام بها ابراهيم لم تكن محاكمة لأدهم وحده، وإنما كانت محاكمة للأجداد.. للشخصية القومية بكل ميزاتها وخصائصها وغرائزها.. وقد رسمها بوضوح وجلاء.

* * *

وفي مكتب قائد الدرك "راسم بك" يتأمل المذكور البندقية التي أمامه والتقرير الملقى على طاولته، فلا يرى فيها جريمة قتل عادية، إنها أكثر من ذلك. فيزجر:

"شيء لا يصدق.. وأمر لا يخطر على البال.. فلاح "عربي" يتجرأ ويقتل ابن أحد "الأغوات" الأتراك.. وفي عهدي أنا؟ لا.. إن هذا لا يحتمل ولا يجب أن يحدث.." (10)

مرة أخرى تثير صورة الآخر عند التركي، الذي يراه أدنى منه ولا يعني وجوده شيئاً ذي بال، إن لم يكن نافعاً فالأفضل التخلص منه بأية وسيلة دون اعتبار لأية قيمة من القيم.

ويبدأ "راسم بك" حملة من المداهمات القمعية لبيوت الفلاحين العرب وحين يصلون بيت ابراهيم لا يجدون سوى سلمى، وتحت شجرة التوت يجلسون بانتظار الرجال، أما رياض الذي كان في الداخل، فينتظر غفلة منهم ويفرّ هارباً دون أن ينالوا منه.

وهنا يفقد راسم بك صوابه، فيرسل فضيلتين من الدرك إلى القرية مع أوامر مشددة باستخدام كل ما يروونه مناسباً للوصول إلى هدفهم ويطوقون بيت ابراهيم مرة ثانية: "وعندما غادر رجال الدرك الأتراك القرية بعد ساعة من الزمن، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من بيت الشيخ صالح فقد أحرقوا المنزل، وقتلوا الأب والأم، واعتدوا على عفاف البنت، وتركوا الابن مربوطاً إلى جذع شجرة وهو فاقد الوعي.." (11)

عالم أسود من الجريمة والموت والتآمر، من الاغتصاب والحصار والكراهية المجنونة.. تلك هي صورة التركي المتعصب كما تعرضها الفصول الباقية من الرواية.. عالم تتواصل حلقاته ومن اضطهاد القرية إلى سلب اللواء بالكامل في مؤامرة باتت معروفة.. ولا يبقى سوى الاستاذ القابع في مقهى "الهافانا" في دمشق يحمل ذلك الميراث الدامي..

الحواشي

- (1) - ثائر من بلدي - ابراهيم المرجاني - رواية - مطبعة الشرق - حلب.
- (2) - المصدر نفسه ص 65.
- (3) - المصدر نفسه ص 51.
- (4) - المقصود الاستاذ زكي الأرسوزي.
- (5) - ثائر من بلدي ص 14.
- (6) - ثائر من بلدي - ص 39 - 40.
- (7) - المصدر نفسه ص 43.
- (8) - المصدر نفسه ص 44.
- (9) - ثائر من بلدي ص 47.
- (10) - المصدر نفسه ص 53.
- (11) - ثائر من بلدي.

جيل الدربةكة^(١)

لا تتجلى صورة التركي في أدب العجيلي بل قل لا تظهر، عدا شذرات في كتابه "جيل الدربةكة" وهي متناثرة، قد تكون أحياناً مقدمة لما يريد التمهيد له من موضوعات، وقد تكون غائمة الملامح، طارئة، أو عابرة ولكنها مع ذلك تحمل خصوصيتها القومية العامة، وطباعها المعروفة تاريخياً وهي وإن كانت إشارات عابرة، لكننا فيها كل البلاغة. ومن الشخصيات العابرة التي تصادفنا "شخصية محمد الفاتح"⁽²⁾ التي لا يقف عندها إلا ريث ينتقل إلى موضوعه الأساسي الجدل البيزنطي ومن أين جاءت التسمية؟.

أما القصة الثانية والتي تجري فصولها في أزمير، فتبدأ في أحد أيام السبت من عام 1648 حين يدخل إلى الكنيس رجل اسمه شبتاي بن زيفي ويعلن للناس أنه المسيح المنتظر الذي سوف يستعيد مجد اسرائيل، ويطرده الحاخاميون فينتقل بدعوته إلى القسطنطينية والقدس والقاهرة فأمن به الكثيرون والخلافة في استانبول نائمة - هكذا - ولكنها فجأة تستيقظ:

"وفي تلك السنة التي هي سنة 1666 م توجه شبتاي زيفي إلى القسطنطينية ليحضر في عاصمة بني عثمان أول علامات قيام عهد "اسرائيل الجديد" ألا وهي تنازل السلطان العثماني عن عرشه..⁽³⁾

هنا ترى السلطنة العثمانية الغائبة أن المهزلة تجاوزت حدّها، فتأمر بالقبض على المسيح المزيف وترج به في سجن قلعة غاليلوي على الدردنيل:

"لم يكن عسيراً على الأتراك العثمانيين في زمن كانت حيوات الناس لا ترن مثقال ذرة في ضمائر الحكام..⁽⁴⁾

لم يكن عسيراً عليهم التخلص منه بإلقائه إلى أسماك البحر تسد به رمقها، ولكن نظراً للاهتمام العالمي وتجنباً للإحراج أقيمت مناظرة بين المسيح المزيف وبعض الفقهاء أعلن في نهايتها إسلامه ليصبح اسمه "محمد أفندي".

* * *

وفي "نحن جيل الدربةكة"⁽⁵⁾ يعقد الدكتور عبد السلام مقارنة طريفة بين شخصية العربي

وشخصية التركي على لسان أحد أبطاله من الأتراك ونحن نوردها بنصها دون تعليق لأنها لا تحتاج إلى ذلك:

"أيام كان العرب يناضلون ليتخلصوا من "ربقة الاستبداد" العثماني، في مستهل هذا القرن، ثار مرة جدل بين عربي وتركي حول مزايا شعبيهما وأهلية كل منهما ليكون أمة حديثة، وعندما أخذ العربي يعدد الأفضاذ من بني قومه ويشيد بخصه، الفرد العربي من ذكاء وفطنة، ومن كرم وشجاعة وحمية قال التركي:

- نعم نعم.. لا يسعني أن أنكر ما تقول، ولكني ألخص المقارنة بيننا فيما يلي، الفرد العربي حبة رمل.. حبة صلبة قاسية، وهي في الوقت نفسه حبة جميلة لأنها مصقولة ولماعة في حين أن الفرد منا - نحن الأتراك - ذرة من تراب، وكثيراً ما تكون ذرة هشة تافهة، ولكن جرب أن تجمع حبات الرمل وتجعلها لتصنع منها حجراً. إنه سيكون حجراً قليل المقاومة، سريع التفتت تحت أخف الضربات، أما ذرات التراب الهشة فإنها حين تجبل بالماء تصبح حجراً سهل التقولب ثم صخرة صلبة مقاومة..."

تبقى في المجموعة حكايتان فيهما طرافة ونعومة أما بطل الأولى "عاشق بنت السلطان"⁽⁶⁾ فهو رجل رقيق من بلدة ضائعة على شطّ الفرات يعاني الشعر بموهبة بدائية فطرية، يتوجه هذا الرجل أيام السلطان محمود رشاد ما قبل الأخير من سلاطين الدولة "العلية" العثمانية إلى دائرة التلغراف ويرسل برقية موجهة إلى الباب العالي في استانبول نصها التركي:

"در سعادت مرتبه ملك

حضور باد شاهمه

"فاطمة سلطنة معشوق أولد نغمندن سحرمك فكيهه

بشيوزه ليرة عثمانية إكرامية إعطاسي طلب إيدرم".

حسين شمس الدين

وترجمتها إلى العربية ما يلي:

"دار السعادة، حضرة البادشاه الملك الذي يحتل مرتبة الفلك.

بما أنني مسحور عشقاً بالسلطنة فاطمة، أطلب فكّ سحرها عني وتأمين خمسماية ليرة عثمانية إكرامية لي."

التوقيع: حسين شمس الدين.⁽⁷⁾

وتهتز أسلاك البرق بين استانبول وحلب وأورفه والرقّة تحمل سخط الباب العالي على مصالح

الدولة وموظفيها التمساء التي سمحت والذين سمحوا لبرقية مثل هذه أن تعبر من الرقة إلى استانبول، وبدأ الجميع يبحثون عن مخرج للخروج من هذه الأزمة فلم يجدوا سوى "الجنون" يهتمون به العاشق المفتون، ونعم المخرج كان.

والحكاية الثانية فيها لون من السخرية المريرة والألم وبطلها ليس بشاعر ولا عاشق أو مجنون، ليس حياً، بل قد لا يكون بقي منه شيء إلا العظام، إنه قبر، وأي قبر هو؟
"- هذه مئذنة قلعة جعبر وتحتها يقع قبر السلطان

قال صاحبي: أي سلطان؟

قلت :- سليمان شاه. إنه في الواقع لم يكن سلطاناً ولكن الناس عندما أسموه هذا اللقب، لأن أحفاده صاروا سلاطين فهو - أي سليمان شاه - شيخ عشيرة من الأتراك ألجأتها غزوات التتر إلى الهجرة من أواسط آسيا إلى الأناضول، حين عبرت تلك العشيرة نهر الفرات في هذا الموقع غرق زعيمها في مياهه وانتشلت جثته فدفن قرب الشاطئ، كان ذلك منذ سبعمائة وخمسين عاماً، وبعد غرق سليمان شاه انقسمت عشيرته إلى فريقين، أفراد الفريق الأول بزعامته ابنه البكر "دوندار بك" ويضم الرجال ذوي القدر والمكانة، تشاءموا بما حدث فنكصوا راجعين إلى موطنهم الأول، أما الفريق الثاني فكان يضم الشباب المغامرين بقيادة أرطغرل بك الابن الآخر لسليمان شاه، هؤلاء تابعوا مسيرتهم إلى الأناضول حيث تمكن لهم الأمر، وحيث أصبح أرطغرل أميراً، وتلاه ابنه عثمان فأصبح سلطاناً.

قال صاحبي: - إذن فهذا هو قبر جد سلاطين بني عثمان؟

قلت نعم وعاد إلى الجد لقب أحفاده بالمفعول الرجعي فسمي قبره قبر السلطان.."(8)

هذا القبر الذي ظل مهماً لا يذكره أحد، فجأة أصبح مشكلة سياسية لها ذيولها، فبعد أن زالت الامبراطورية العثمانية من الوجود وتقلصت إلى جمهورية من الجمهوريات المتواضعة، أصبح لرفات هذا الجد قيمة قومية فقد طلب الأتراك في مفاوضات معاهدة أنقرة التي دارت بينهم وبين فرنسا أن تكون لهم ملكية قبر سليمان شاه، فأعطاهم الفرنسيون ذلك، فبنوا مخفراً حوله، ورفعوا فوقه العلم التركي، رغم أن بإمكانهم نقل القبر العزيز إلى داخل أراضيهم.

إنه مسمار جحاش.. وإنها العقلية التركية التي تستعصي على الفهم، فلقد رحلت فرنسا، وغمرت مياه بحيرة السد الذي أقيم على الفرات الأرض المجاورة للقبر، وظل الأتراك متمسكين بمعاهدة أنقرة فقاموا بنقل القبر.. ولكن إلى أين؟ إلى بقعة جديدة أخرى من أرضنا وليس إلى تركيا.. إنهم جيران أعزاء، ولا نريد إغضابهم.

هكذا يقرر الدكتور عبد السلام في حكايته الأخيرة.. نعم جيران.

الحواشي

- (1) - جيل الدريكة - عبد السلام العجيلي - دار الرئيس - 1990.
- (2) - المصدر نفسه "حكايات قديمة" ص 83.
- (3) - المصدر نفسه شبتاي بن زيفي ص 275.
- (4) - جيل الدريكة : شبتاي بن زيفي ص 276.
- (5) - المصدر نفسه ص 163.
- (6) - جيل الدريكة - عاشق بنت السلطان
- (7) - المصدر نفسه ص 61.
- (8) - جيل الدريكة - قبر السلطان ص 277 - 278.

صور للتركي من عالم : نجيب محفوظ.

المرايا⁽¹⁾

تظل جهود نجيب محفوظ الروائية الأبرز والأهم في مسيرة بناء روائي عربي ناضج وعفي، لا يشكو من عيوب الرؤية أو الأداة الفنية، فنجيب قامّة روائية لها مكانتها اليوم ليس على المستوى العربي فحسب، وإنما على المستوى العالمي، قامّة ثابتة وراسخة ووثيقة من نفسها، تتطور وتستوعب المستجدات بذكاء ودربة.

والشخصية عند نجيب محفوظ متعددة ومتألّقة ومدروسة تحمل خصوصية وتاريخاً وإن اقتصر المكان على المدينة "القاهرة" حصراً، لكن القاهرة عالم كامل، ودنيا متعددة، يبدأ من القاع، الحارات الشعبية والناس البسطاء، ليصعد إلى القمة حيث الملاكون والأعيان والباشوات، وتتعدد القوميات، عرب ويهود وأتراك ويونانيون، وهو لا ينسى تاريخ كل حارة أو بيت أو مسجد، أو مقهى، أو حجر حتّى، وإلى جانب الحارة يلعب المقهى دوراً مميزاً رئيساً فمن خلاله تعبر شخصيات نجيب وتتفاعل وتعلن عن أزماتها ومشاكلها.

وترد شخصية التركي عند نجيب محفوظ بكثرة، بخصائصها الشائعة، فهو شخصية غير اندماجية، متكبر وأحمق، فيه صلف وخيلاء وانحلال أخلاقي وعدم تمسك بعادات المحيط الذي يعيش فيه. ومن هذه الشخصيات:

عدلي بركات :⁽²⁾

وهي صورة حوت المتناقضات، وشخصية مريضة بمرض غريب هو "الخوّلة" يقابله في الطرف الآخر نزعة تدميرية حاكمة على كل ما يمت لأبيه بصلّة، من هذا المزيج تكوّن عنده ذلك الحس بالغرور والسخرية، فعديلي من أب مصري وأم تركية، ولكنه تركي أكثر من الأتراك ممارسة وسلوكاً:

"عندما كان يتهاذى الحنطور من العباسية الشرقية إلى المدرسة فيغادره وهو يسير -

رغم حداثة سنه - في عظمة خيالية تناسب ولادة العرش..."⁽³⁾

وعديلي لا يعترف لشيء باحترام ولا يعفي شيئاً من سخريته لكن أمه تظل عنده "السر المقدس الذي لا يجوز مسه أو الحومان حوله أو مجرد التفكير في الاقتراب منه" من هنا يظل عدلي

مسكوناً بأمه وكل ما عداها مضحك:

وتعنته فإذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحدّ التماثل، ولم يرث عن الأم التركية شيئاً ظاهراً ينتفع به، وأدركت من أول وهلة أنه متعب وأنه يحتاج إلى سياسة خاصة في معاملته كي يمنح ثقته وصدافته، وأنه يحتقر كل شيء في الوجود وأن كلمة مضحك "كليشيه" لاصق بلسانه يصف به أي شخص أو أي فعل مهما يكن رأي المتحدث فيه فأستاذ المدني "دكتور مضحك" ومصطفى النحاس "زعيم مضحك" وقرار الوفد بإعلان المقاطعة "إعلان مضحك" وقواعد الإسلام "قواعد مضحكة" حتى سألته مرة:

- من يستحق احترامك من الناس؟

فأجاب وهو يضحك:

- الجميل الشرير.

ثم وهو يواصل الضحك:

- يقال إن اسماعيل صدقي كان كذلك في شبابه.

فقلت:

- ولكنك تحترم والدك بلا شك.

فبصق على الأرض بتلقائية ووحشية قال:

- اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات..⁽⁴⁾

وهكذا يحمل عدلي بركات صليبه، صليب الحقد على أبيه رغم ثراء هذا الأب ولقبه الطنّان "الباشا" مع كل ذلك ظل فلاحاً برأي ابنه، الذي لا بد أن يكون رأي الأم من قبل، فإذا كانت لم تورثه قسماتها فقد تكون ورثته ذلك التصوّر، لأن المأساة تتصاعد، حيث يترك عدلي منزل الأسرة ويعيش حياة الصعلكة بين الغانيات والحشيش بانتظار موت الأب الذي يتحقق فيرث ما انتظره طويلاً.. ولكن النهاية تكون أكثر قسوة والانحدار لا يتوقف حيث يبدد كل ما ورثه.. ويعود صعلوكاً متسولاً من جديد..

* * *

الهوامش:

(1) - الرايا - نجيب محفوظ، رواية - القاهرة - مكتبة مصر - 1980 / ط 5.

(2) - الرايا ص 219.

(3) - المصدر نفسه ص 219.

(4) - الرايا ص 220.

القيء^(١)

"فهني تحكي لنا قصة سعادة سعيد باشا الذي كان في بداية حياته كاتباً بالأرشف بالدرجة الثامنة، وكان "يعاني الأمرين من بساطة حاله، وكثرة تبعاته، وطموح قلبه، وتعالى همته، وكان معروفاً بين الجيران لجمال زوجته الحسنة (تذكر إحسان شحاتة تركي) وكانت أمينة من أصل تركي، عاجية البشرة، سوداء الشعر والعينين فاتنة القسمات، فكان يدعوها أهل الحي بالأميرة، وكانوا يضربون بجمالها المثل" وفي يوم صدر قرار نقل سعيد أفندي إلى أسبوط فأرسل زوجته - رغم إرادتها - إلى قصر سليمان باشا سليمان السكرتير العام للوزارة للتوسط له لإلغاء نقله، وطبيعي أن يطلب الباشا وصال الزوجة الجميلة، وأن يلغي أمر نقل الزوج، وأن يرشحه لوظيفة من الدرجة السابعة بمكتب السكرتير العام، "وابتلع رنين الدرجة كل صوت حتى ضميره وعفته، وكانت أمينة التركية الجميلة ذات غرور وطموح، فاتفقا على أن السوءة شيء يدارى، أما الفرصة المواتية فشيء لا يعوض، وهويا معاً". ودرس سعيد أفندي في بيته حتى يحصل على ليسانس الحقوق واختير سليمان باشا سليمان وزيراً فجعل سعيد أفندي مديراً لمكتبه، وكان قد تعود المهانة كما يتعود الأنف الرائحة النتنة وتدرج في المناصب حتى أصبح "باشا" بدوره.

وفي يوم من الأيام، عاد الباشا إلى بيته بصورة غير متوقعة فوجد شخصاً آخر مع زوجته، فاحتج وأصاب عصاه ساقها دون قصد منه فقالت له: "أتضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب...".

الحواشي

- (١) - القصة غير موجودة في أعمال نجيب القصصية لذا اعتمدنا على ما جاء عنها في دراسة الدكتور عبد المحسن طه بدر "الرؤية والأداة" - دار التنوير 1985.

همس الجنون^(١)

* * *

يقذلة المومياء^(٢)

تصنّف هذه القصة حسب تقسيمات النقاد ضمن ما يسمى بالقصة الوعظية، وفيها يعرض لشخصية مركبة من شخصياته التركية التي تطمح إلى التعددية والشمولية عبر تطلعات وتهويمات فكرية يريد أن يغطي بها الوجد الكامن وراء القناع:

"إنه ثلاث شخصيات تجمعت رجلاً، فهو تركي الجنس، مصري الوطن، فرنسي القلب والعقل.."

إضافة إلى كل ذلك أضاف له نجيب هواية الفنون الجميلة، وقرض الشعر الوجداني الجميل، ولكن بالفرنسية، وفي جلسة ضمت الباشا مع أصدقائه الفرنسيين في قصره العظيم وهم الاستاذ دريان عالم الآثار والمسيو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة، والدكتور بيير طبيب الأمراض العقلية، كان الحوار يدور حول تحف الباشا التي ملأت القصر وهنا يفاجئ ضيوفه بأن هذه التحف إذا قدر لها أن تترك القصر فلن يكون ذلك إلا لفرنسا وسط اغتباط الضيوف بمثل هذه الهبة العظيمة التي لا تقدر بثمن، يعلق الدكتور بيير على أن ذلك ربما خلق المتاعب للباشا، وخاصة مع الصحافة التي تتهمه ببعثرة أموال الفلاح في فرنسا، وهنا يرد:

"- أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة النوضيعة ما دام "ضميري الفني" لا يرتاح لبقاء مثل هذه الآيات وسط هذا الشعب "الحيواني" فلن تقبر هنا أبداً.

وكنت أعرف رأي صديقي الباشا عن المصريين واحتقاره لهم، ومما يحكي في هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصري نابغة حاصل على رتبة البكوية طالباً يد ابنته، فطرده شر طرده لأنه فلاح ابن فلاح"^(٣)

والباشا لا يخفي احتقاره هذا للشعب المصري بل يمارسه قولاً وعملاً رغم أنه يعيش بين ظهرائه ويتمتع بخيراته بل يذهب أكثر من ذلك حين يقول لأحد ضيوفه وهو يتابع حوارهم:

"- أنت تفهم ما أعني ولكنك تحب المزاح، المصريون حيوانات أليفة طبعها الذلل، وخلقها التذلل، وقد عاشوا عبيداً على فئات موائد الحاكمين منذ آلاف السنين، ومثل

هؤلاء لا يحق لهم أن يأسفوا على إهداء هذا المتحف إلى باريس..”(4)

ويتفرع بهم الحديث فيخبرهم الباشا بأن أحد المشعوذين قد جاءه منذ يومين وأخبره بوجود كنز ثمين في حديقته فسمح له بالتنقيب عنه وعند الأصيل حين هم الضيوف بالمغادرة جاء جماعة من الخدم برجل صعيدي يوسعونه ضرباً ولكماً لأنه تجراً وسرق قطعة لحم من طعام كلب الباشا فرفع عصاه وضربه على كتفه بشدة ثم أمرهم أن يأخذوه إلى الحفير.

وحين انصرف الضيوف ظل الباشا والمسيو سارو عالم الآثار الذي أحب أن يرى الحفريات، وفجأة جاء الرجل يدعو الباشا ليرى كنزه فأسرع مع ضيفه إلى هناك، وحين دخلوا إلى غرفة الكنز كانت هناك الصناديق والتماثيل والتابوت والمومياء، ووسط هذا الجو الجنائزي والأبهة، تستيقظ المومياء وتقف تحاكم الباشا لأنه اعتدى على مصري بالضرب ونصيح:

” - ما الذي دهاك؟ ما الذي دهم الأرض فجعل أعزتها أذلة وأذلها أعزة؟! وخفّض السادة عبيداً، ورفع العبيد سادة؟ كيف تملك أيها العبد هذا القصر ويعمل أبنائي فيه خدماً؟ أين التقاليد المتوارثة والقوانين المقدسة؟ ما هذا العبث؟ واشتد الغضب بحور فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر وصاح بصوت كالرعد:

- كيف تتجاسر على ابني أيها العبد؟ لقد سمته الذل بقساوة دلت على العبودية التي تنضح بها نفسك، ضربته بعصاك لأنه جائع ودفعت إخوته إلى ضربه، أيجوع في مصر أبناؤها؟ الويل لك أيها العبد.”(5)

وهنا يسقط الباشا على الأرض لا حراك به، ويقضي نجه.

الحواشي

(1) - همس الجنون - نجيب محفوظ - قصص - مكتبة مصر 1977.

(2) - نفس المصدر ص 77.

(3) - يقظة المومياء ص 81.

(4) - المصدر نفسه ص 82.

(5) المومياء ص 91 - 92.

القاهرة الجديدة (i)

تظل القاهرة الجديدة من أهم أعمال نجيب محفوظ وأكثرها إثارة للجدل ورغم التأويلات الكثيرة والمعمقة أحياناً يظل الناقد يجد فيها شيئاً جديداً، والقول بالثنائية في القاهرة الجديدة العلم والإيمان قول جائر ومتسرع ومبتسر، فأضعف خطين في الرواية هما مقولة العلم والإيمان علي طه ومأمون رضوان لأنهما يغييان منذ البدايات ويظل الخط الثالث هو الفاعل والمؤثر، خط محجوب عبد الدائم الذي يستكمل دورته ويواجه مصيره المحتوم.

وتبدأ الرواية بداية تقليدية تعرض لنا الفرسان الأربعة الذين سيكون لهم بالغ الأثر في عرض ما يجري:

” وكان أربعة يسيرون معاً على مهل يتحادثون أيضاً وربما أصغوا إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب. كانوا من طلبة الليسانس، يشارفون الرابعة والعشرين، وتلوح في وجوههم عزة النضوج والعلم.. ولم تكن تخفى عليهم خطورة شأنهم أو بالحرى كانوا يشعرون بها أكثر مما ينبغي..”⁽²⁾

وقد نتساءل: ما شأن هؤلاء الشباب؟ ما تطلعاتهم وآراؤهم؟ وهم على أبواب التخرج للإنطلاق في مجالات الحياة الفسيحة. هنا يعرض لنا نجيب من خلال هذا الموقف رأيهم في المرأة:

”وقال بنبرات خطائية:

- أدعوكم أيها الإخوان إلى إعلان آرائكم في المرأة على ألا يزيد البيان عن كلمات معدودات. ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان؟

فارتبك الشاب ثم ابتسم قائلاً:

- أتريد أن تحملني على حديث أنتقد الغير على خوضه؟

- لا تحاول الهرب، هلم، كلمات معدودات، أنا صحافي والصحافي لا يئأس من حديث أبداً..

وكان مأمون رضوان يعلم أن مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم قائلاً:

- أقول ما قال ربي، فإن رغبت في معرفة أسلوبِي الخاص، فالمرأة طمأنينة الدنيا وسبيل لطمأنينة الآخرة.

وتحول أحمد بدير إلى علي طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه.

فقال الشاب:

- المرأة شريك الرجل في حياته كما يقولون، ولكنها شركة دعامتها في نظري ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات.

فالتفت أحمد بدير إلى محجوب عبد الدايم وسأله ضاحكاً:

- ورأي شيطاننا العزيز؟

فقال محجوب عبد الدايم باهتمام مسرحي:

- المرأة صمام الأمان في خزان البخار.

فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه ثم سألوا أحمد بدير:

- وأنت ما رأيك؟

فقال الشاب باستهانة:

- على الصحفي أن يسمع لا أن يتكلم، خاصة في عهدنا الحاضر...”(3)

منذ البداية يفصح كل من هؤلاء الشبان عن آرائه ومشاربه، فمأمون رضوان سلفي ومحافظ ويشعر بإيمان صوفي لا سياسي كما قد يخيل للبعض لذا فهو يستند في رأيه على النص الإلهي “أقول ما قال ربي” وعلي طه ينزع نزعة مادية فيقول ما تقوله النظرية، لكن يبقى الرأي الثالث وهو الأخطر فإذا كانت المرأة عند الأول سبيل لطمأنينة الآخرة، وعند الثاني شريكه فإنها عند محجوب عبد الدايم صمام الأمان، إنها نظرة عبثية ونفعية أو قل شيطانية تلخصها “طظ”.

وحين ينتقل الحوار إلى منحى آخر نجد مواقف أخرى لأولئك الشبان ومن تعليقاتهم تتعمق صورتهم يقول كل منهم حول المبادئ وضرورتها أو عدم ضرورتها للإنسان:

- مأمون رضوان:

”- حسبنا المبادئ التي أنشأها الله عز وجل.”(4)

- علي طه :

”- الإيمان بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنة، الاشتراكية بدل المنافسة.”(5)

- محجوب عبد الدايم:

”- طظ.”(6)

إنها شواهد أخرى على ما يدور في تلك الرؤوس من أفكار في تلك المرحلة مرحلة الثلاثينات في مصر، مصر القادمة بعد ثورة 1919 وبعد أن بات التسلق والانتهازية سمة بارزة من سمات

تلك المرحلة المتأرجحة بين الأمل والخيبة، المثل والانحطاط، ومحجوب عبد الدائم في شعاره
العبي هذا يشمل كل شيء
” فسأله أحمد بدير:

- وأنت يا أستاذ محجوب، ما رأيك في المناظرة؟
- طظ.

- هل المبادئ ضرورية؟
- طظ .

- غير ضرورية إذن ؟
- طظ .

- الدين أم العلم ؟
- طظ .

- في أيهما ؟
- طظ .

- أليس لك رأي ما ؟
- طظ .

وهل طظ هذه رأي يرى ؟

فقال محجوب بهدوئه المصطنع :

- هي المثل الأعلى. ”(7)

نعم .. لقد كانت ”ظظ“ مثله الأعلى، رقيته الشيطانية التي يحارب بها كل شقاء وكآبة
ويأس واقعه المؤلم. نعم المؤلم جداً والقاسي جداً والفقير جداً، والمتطلع للوصول إلى فوق
بأي ثمن.

* * *

وتبقى حياة كل من مأمون وعلي مستقرة، تسير بهدوء واتزان وثبات فهما طرفا معادلة
واضحة، حتى تغيبهما الأحداث، لتبقى شخصية محجوب بؤرة العواصف والصراع والتمزق
المأساوي.

فمحجوب بحاجة دائمة، يقتله ظمأ لا يرحم إلى الاستقرار، والحب، والسعادة إنه يعيش على
حدّ الكفاف، يرضى بالنزر القليل ولكن الآلام تتوالى فهو إن رضي باللباس القليل واللحظات
المسروقة مع جامعة أعقاب السجائر والوجبات الرخيصة التي لا تكاد تسدّ الجوع، فذلك كله

أصبح حلمًا، فمرض الأب كان قاصمة الظهر، وبداية طريق الآلام الجديد.. وهنا يصرخ:
"سيدفع العالم ثمن هذه الآلام.."

* * *

ومع التخرج تبدأ سبل الحياة ومصائر كل فرد تختلف، يغيب مأمون وعلي وباقي الشلة ويبقى محجوب عبد الدائم ليواجه مصيره.. يبقى ليعقد صفقة مع الشيطان، شيطانه الذي كان على موعد قدرى معه، ومع سائر الشخصيات التي جمعتها بهم الصفقة وهم على التوالي:

سالم الاخشيدي :

وهو جار قديم لمحجوب، وذئب مجرب وعريق، بدأ حياته زعيماً من زعماء الطلبة ثم اشتراه الوزير، فخان الطلبة، وصعد إلى الأعلى على جثة الثائر القديم الذي كأنه تحول إلى سكرتير لقاسم بك نهاراً، وقواد يهوى له الأجواء في البيت. للآ، تحول من فاوست سابق إلى مفستوفليس، وكان عراب الصفقة مع محجوب، له خبرة بالفقراء والجائعين.

إحسان شحاتة تركي:

حيوان جميل، اختارت طريقها بكل برود وقبلت الصفقة، فالأب كان مثلها الأعلى، فقد عاش يرتزق بجماله وصفاقته، قبل أن يتزوج أمها، ويبدد ثروتها على القمار والمخدرات، خانت حبيبها القديم علي طه، وعاشت حياتها راضية، تتمتع بطيبات الحياة المادية، وتصدع مع محجوب سلم المجد الزائف، مسحورة دائماً بالبريق الاجتماعي، وبقصص أمثال آلام فتر..

الشخصيات التركية :

ترجع الشخصية التركية هنا على قمة الهرم الاجتماعي بصلف وكبرياء واستعلاء تنظر إلى السفح حيث يحترق الآخر المصري بازدراء، ويطلق عليهم الدكتور عبد المحسن في الرواية "الهكسوس الجدد" حيث يقول:

"ولا يكفي للدخول إلى جنة الهكسوس" الجدد أن تكون مستعداً لبيع نفسك وقيمك ومبادئك، ولكن شروطاً أخرى ينبغي أن تتوافر لك، وأهمها أن تكون فاسداً من الداخل فساداً كاملاً، ويعني هذا أن تكون مؤرقاً بمطالب جسدك "الحيوانية" وأن تكون وطأة هذه المطالب ثقيلة عليك وأن تكون كمحجوب عبد الدائم تنطوي على شهوة دائمة، بقدر ما تضيق بطموح جشع، وأن تفقد إيمانك وأن تسخر عقلك وثقافتك من أجل الاحتيال لتحقيق المطالب الحقيرة لجسدك، بدلاً من تسخيرها لخلاصك الروحي..."(8)

إضافة إلى كل هذا الدمار الروحي والأخلاقي نجد الانحلال الذي لا حد له والسمسة حتى في الوظائف والمتاجرة بكل شيء. المهم أن تكون غنياً، فالمال كل ما بقي لكي يظفروا مسيطرين. وأهم هذه الشخصيات:

قاسم فهمي

شخصية ناعمة ودمثة، آمرة ومسيطرة، تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية المتنفذة كشأن أغلب الشخصيات الحاكمة في مصر قبل ثورة يوليو، أغوى إحسان شحاتة تركي، ودبر الصفقة مع الإخشيدى ومحجوب:

”فتنهد سالم الإخشيدى بارتياح وقال وهو ينهض قائماً: - تعال أقدمك إلى البك. وتبعه على الفور باذلاً جهده لضبط عواطفه، ودخلا حجرة فاخرة، رأى في صدرها مكتباً كبيراً يجلس إليه البك واقتربا من المكتب في احترام حتى كادا يلمساه، ورأى الإخشيدى يتنازل مرة عن جلاله، وينحني على يد البك في خشوع، ففعل مثله، ولما اعتدل في وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة كان في الأربعين، معتدل القامة، جميل الحياء، أنيق الملبس والهندام، صغير الثارب جميله، يدل مظهره على أنه إمام من أئمة مدرسة الغزل.“⁽⁹⁾

علي عفت

شخصية منحلة لاهية، أعجب بإحسان وسحره جمالها، يمثل الجيل الجديد من أولاد الذوات الترك، يفتقد إلى الحس الوطني، يهاجم مصر والمصريين بشراسة ”هذا وطن، ضربك شرف يا أفندينا“ حتى إذا ما سأله محجوب معترضاً:

” - ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك؟ فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع: لا تجري في دمي نقطة دم مصرية واحدة..“⁽¹⁰⁾

وحين يتطور الحوار بينه وبين محجوب الذي يسأله بلهجة الظافر وقد ظن أنه قد أخرج:

- فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ عند مناقشة الميزانية التي دافع بها عن الفلاح دفاعاً وطنياً مجيداً؟
فقهقه عفت وقال كالساخر:

- هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا متفق - أنا ووالدي - على أن أنجع وسيلة مع الفلاح هي السوط..“⁽¹¹⁾

ورغم محاولات عفت مع إحسان لم يستطع أن يحقق شيئاً وكان غرضه مكشوفاً لمحجوب الذي هجس في داخله:

”إن الشاب الأحمق التباه بجماله يتحفز للإقضاء على عرضه وإنه لفاعل إذا وجد غزوة، ولكن هيهات أن ينهزه فرصة، فليس لأحمق مثله أن يثبت في رأسه قرناً جديداً.. لقد وهب رأسه للقرون الذهبية، قرون المجد والسلطان..“⁽¹²⁾

حسني شوكت

عابث ماجن آخر من شلة عفت، عاطل يقضي وقته بين متع الخمر والشراب والقمار:

”قال شوكت مرة أخرى:

- إن أعجب مقامرة شاهدها في حياتي كانت مقامرة شاب بعشيقته.

فلاح الاهتمام في وجوه الجميع وسأله كثيرون:

- حقاً. وكيف كان ذلك؟

فأجاب الشاب التمل قائلاً:

- إنه صديق حميم وقد اصطحب يوماً عشيقته إلى ناد خاص من أندية القمار،

فخسر جميع نقوده وكانت الخمر قد لعبت برؤوس الجميع فاقترح عليه سكران أن

يقامر بعشيقته على كل خسارته، فإذا استرد نقوده وإما خسر عشيقته فقبل الاقتراح

وخسر عشيقته.

- وهل رضيت المرأة؟

- كانت في حالة سكر بين وقد انتقلت ملكيتها إلى الرابع أو - وهو الأصح -

انتقلت ملكيته إليها.

- من عسى أن يكون هذا الصديق؟

- أما هذا فلا ، لأن أحد الطرفين موجود بيننا..”(13)

أحمد عاصم

عابث آخر من شلة عفت، يحمل الخصائص نفسها.

حكمت

لا هية من شلة عفت كل ميزاتها أنها تشرب زجاجة كاملة من الخمر دون أن يبوح لسانها

بسرّ.

أحمد مدحت :

”وقطع أفكاره ظهور شاب كالقمر، ممشوق القوام، بديع الحسن ناعم البشرة، فاتن

العينين، أخذ الملامح، لامع الشعر يخطر كالغزال نافثاً سحر الأنوثة والذكورة معاً،

فما تمالك أن تتمم قائلاً:

- لله ما أجمله! أتعرفه ؟

فقال أحمد بدير مبتسماً:

- أحمد مدحت. أشهر من نار على علم، يدعونه بحق كوكب الشرق.

- موظف؟!

- بينك مصر. متخرج في الحقوق منذ عام، مرتب ثلاثون جنيهاً.

- ثلاثون جنيهاً! ومن كان شفيعه؟

- هو شفيع نفسه يا أحق. (١٤)

إنه مملوك جديد، يتوسل بجماله وشذوذه الجنسي دون أي شعور بالعار أو الخجل.. وأي خجل؟!

إكرام نيروز

كما يعرفها نجيب في الرواية، كريمة رجل من صنائع الاحتلال، غرامها بالشبان. تفوقها في الفرنسية وعجزها في العربية، دار الفريرات حانة، مدعوها على مثالها، المدعوون يهتمون بكل شيء إلا الفريرات.

عبد العزيز بك رضوان

سمسمار، له كلمة نافذة، ودائرة اختصاصه وزارة الداخلية، يأخذ ممن يعينه نصف مرتبه لمدة عامين بضمان.

دولت :

مطربة معروفة، منطقة نفوذها السكك الحديدية، ووزارة الحرية، وبعض الدوائر الكبرى، والأسعار كما يأتي: الدرجة الثامنة ثلاثون جنيهاً والسابعة: أربعون جنيهاً، والسادسة: مائة جنية. والدفع فوراً.

أحمد بك حمديس

وهو قريب محجوب عبد الدائم لأمه، ويكاد يختلط اسمه - كما يرى الدكتور عبد المحسن طه بدر - بأسماء الأتراك وربما كان فيه عرق تركي، مما يجعل محجوب تركياً بالخزولة. وهذا ما قد يفسر هذه النوازع والميول نحو الانحلال.

* * *

وتمضي الأحداث بعد ذلك، وحين يشعر العراب القديم سالم الإخشيدى بتهديد محجوب لمركزه، وخروجه على قواعد اللعبة، لا يجد أمامه سوى خيار شمشون "علي وعلى أعدائي يا رب"، وهكذا تقع المأساة وينهار كل شيء وتدوي الفضيحة، افتضاح قاسم بك أمام زوجته التي تأتي بوشاية من سالم الإخشيدى لتفاجئه في أحضان عشيقته بوجود الزوج ووالده الذي جاء أيضاً بناء على وشاية من سالم المذكور..

ويفقد محجوب كل شيء، الأبهة والمركز، والبريق الذي دفع في سبيله كل شيء، روحه وشرفه وقيمه، ويستقيل قاسم بك فهمي من الوزارة.. ويتداعى باقي البناء..

ويجتمع ما بقي من الأصدقاء القدامى، أصدقاء الجانب الآخر الذين كانوا قابعين في الظلال ويعلق كل منهم بطريقته على الحدث:

علي طه :

" كم في المؤمنين من أوغاد، فليست الحقيقة ما ترى وصاحبنا البائس وحش

وفريسة معاً، فلا تنسوا أن المجتمع من جريته، وهنالك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعس، فالمجتمع الذي نعيش فيه يغري بالجريمة بيد أنه يحمي طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء.⁽¹⁵⁾

مأمون رضوان :

" ما كان عمر بن الخطاب يتردد عن رجمه... " (16)

أحمد بدير :

" - دعنا من عمر، إن مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان، وسوف يقبع عاماً أو عامين أو أكثر في نادي محمد علي، وعسى أن تخرجه غداً المظاهرات الوطنية من عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرة أخرى، فيعيد سيرته الأولى أو يلعب دوراً جديداً، ومن يعيش بر... " (17)

وهكذا كانت النهاية.

* * *

الحواشي

- (1) - القاهرة الجديدة - رواية - نجيب محفوظ - دار مصر للطباعة 1977.
- (2) - المصدر نفسه.
- (3) - القاهرة الجديدة ص 7 - 8.
- (4) - القاهرة الجديدة ص 9.
- (5) - المصدر نفسه ص 9.
- (6) - المصدر نفسه ص 9.
- (7) - القاهرة الجديدة ص 10.
- (8) - الرؤية والأداة - د. عبد المحسن طه بدر - التنوير - بيروت 1985.
- (9) - القاهرة الجديدة ص 106.
- (10) - المصدر نفسه ص 186.
- (11) - القاهرة الجديدة ص 186.
- (12) - المصدر نفسه ص 187.
- (13) - القاهرة الجديدة ص 189.
- (14) - المصدر نفسه ص 96.
- (15) - القاهرة الجديدة ص 208.
- (16) - المصدر نفسه ص 209.
- (17) - المصدر نفسه ص 209.

السراب (١)

من أكثر روايات نجيب محفوظ إثارة للجدل والنقاش من حيث التصنيف الأدبي، لكنها تنتمي إلى المرحلة الزمنية نفسها التي كتبت فيها خان الخليلي وزقاق المدق والقاهرة الجديدة، والرواية لا تقدم شريحة اجتماعية كما رأينا في رواياته السابقة وإنما يعتمد على بطل وحيد "كامل رؤية لاذ" ومن الاسم نحسّ عدم انتماء البطل إلى البيئة المصرية، وإنما هو من تلك الفئة التي تربعت زمناً على قمة السلطة والمال والحكم في مصر، فئة الأتراك، ويظهر ذلك جلياً واضحاً في الشكل واللون والأسماء وطريقة الحياة والتفكير والميول والممارسات والأمراض الاجتماعية والانحلال.

لقد جاء بطلنا في زمن بدأ سلطان هذه الفئة في الانحسار، لذا كان الدمار واضحاً، والممارسات مفضوحة، والأمراض لم تعد تخفى على الآخرين، ولن نذهب بعيداً وراء التحليلات النفسية لعقدة "كامل رؤية لاذ" التي أطلقوا عليها عقدة أوديب، وذلك في محاولة لتحليل أسباب عجزه الجنسي، الذي ردّوه إلى شدة تعلقه بأمه وخوفه من أبيه:

"ولا أحد ينكر أن الخطوط العريضة لعقدة أوديب واضحة المعالم في تحليل شخصية "كامل رؤية لاذ" في رواية السراب.."⁽²⁾

ومنذ البداية يعلن كامل رؤية لاذ، ودون مواربة، بل هكذا بكل عفوية ظاهرة وتسليم:

"كانت أمي وحياتي شيئاً واحداً.."⁽³⁾

ولا يقف عند هذا الحدّ في تعلقه بأمه، إنه يراها . ولا أبالغ إذا قلنا . شيئاً مسيطراً ومحجوباً ومهيمناً كقدس من الأقداس، حتى ليرفض فكرة موتها ويرى في إعادة سيرتها وكتابة حياتها نوعاً من استعادتها، من إحيائها، من بعثها:

"وقد ختمت حياة أمي في هذه الدنيا، ولكنها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمرة باستمرارها، لا أكاد أذكر وجهاً من وجوه حياتي حتى يترأى لي وجهها الجميل الحنون، فهي دائماً أبداً وراء آمالي وآلامي، وراء حبي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطمع، وأشقتني فوق ما أتصور، وكأن لم أحب أكثر منها، وكأنني لم أكره أكثر منها في حياتي جميعاً، وهل وراء الحب والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟

فلأعترف بأنني أكتب لأذكرها ولأستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلها، وبذلك أصل ما انقطع من حبل حياتي..”(4)

إذن هذه الأم التي كانت نبع المسرات، كانت أيضاً نبع الكراهية، ومع ذلك تبقى كل شيء، ويبدو أنها إزاء خيبتها في زواجها، وجهت كل عواطفها نحو هذا الابن، فرأت فيه كل آمالها، كل عالمها، إنه التعويض الذي كان فيه عزاءها، فوهبتة كل ما في نفسها من عاطفة.

أما الأب، وعلى طريقة عدلي بركات، فقد كان شاباً لاهياً وعابثاً يتسكع بين الخمارات وأوكار القمار، بانتظار موت أبيه الباشا ليرثه، وإذا كان عدلي بركات انتظر حتى فاز بالثروة، فإن هذا الأب كان مستعجلاً، لذا وعلى الطريقة التركية المعروفة والشائعة في تصفيات الأقارب من إخوة أو آباء أو أبناء حتى، لجأ إلى "دس السم" لأبيه لكن الطاهي خيب مسعاه وأعلم الباشا فطرده من القصر ليعيش صعلوكاً نهايته نهاية عدلي بركات وليموت في النهاية سكراناً وعريداً.

ويعيش "كامل رؤبة لاط" عزلته، لا يعرف اللعب في الشارع أو مصادقة من هم في سنه، عاش مع أمه، فكان شخصية ضعيفة مهزوزة، متخلفة دراسياً، لا يحس بالوطنية والمواطن، وكأنه يعيش في عالم آخر لذا كان لا يذكر اسماً لزعيم سياسي مهما علا شأنه، بينما يعيش أخوه الآخر حياة عادية وسوية.

وتسير حياة البطل على مستويين، راحة ونعيم في البيت، حيث الهدوء والراحة والحنان، وشقاء وخيبات على مستوى الدراسة والعلاقات العامة حتى يتم زواجه.. وهنا تبدأ المأساة تأخذ شكلاً آخر، فالخيبة والفشل هنا لهما معنى آخر، معنى لا يطاق.. وكما كان رجلاً سورياً، كان زوجاً سورياً.. وتكون الخاتمة حين يفقد زوجته وأمه.. ويبقى وحيداً وحزيناً.. وكأنه لم يعيش العصر ولم يعرف منه سوى أمه.

الحواشي

- (1) - السراب - نجيب محفوظ - رواية - دار مكتبة مصر - القاهرة.
- (2) - الرؤية والأداة - د. عبد المحسن طه بدر - التنوير - بيروت 1985.
- (3) - السراب - ص 7.
- (4) - المصدر نفسه ص 7.

الثلاثية^(١)

تعدّ ثلاثية نجيب محفوظ علامة بارزة، وجهداً ممتازاً في تاريخ الرواية العربية، كما تعدّ التحول الأهم على طريق النضج والإبداع في مساهمة الأدباء لترسيخ أركان فن روائي عربي ركين. وهي مجال خصص للدارسين والنقاد ومسترد فائن للباحثين، لأنها وبحق وثيقة سياسية وتاريخية واجتماعية لتحولات مصر وأجيالها منذ ما قبل ثورة 1919 حتى ما قبل ثورة يوليو 1952، بل وقد تكون إرهاباً وتشيراً بها حيث وصلت الأحزاب السياسية آنذاك إلى الطريق المسدود، والإفلاس السياسي بعد كل الحيات في تحقيق الاستقلال والتقدم الاجتماعي وبناء أرضية تحدّ من استثناء الفساد والفوضى في البلد. وحتى اليوم لم تستطع أية ثلاثية أو رباعية أو خماسية أن تتجاوز ما قدمه نجيب قبل نصف قرن رغم كل ما طرأ على الواقع العربي من تبدلات وتحولات عميقة على المستوى السياسي والاجتماعي والفكري، بلغت أحياناً حدّ المأساة، وإزاء هذا العمل الملحمي الكبير، الذي قيل عنه الكثير، والذي يهمننا منه تجليات الصورة التركية كما وردت في سياق الرواية، وهذه الصورة قد تكون مثلاً أو قيمة أو رمزاً من الرموز التاريخية وذلك كما نرى في الموقفين التاليين، موقف ياسين وهو ينظر زينب تصعد عربة من عربات ذلك الزمن:

”وثبتت زينب راحتيها على سطح العربة، وتحاملت عليها حتى حطّت ركبتهما على حافة العربة، ثم مضت تتحرك رويداً على ”أربع“.. ”يا لطيف آه لو كنت على باب البيت أو في دكان محمد الطرايشي،.. انظر إلى ابن الكلب كيف يحملق في الطابية ما أجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم ”محمد الفانح“.“⁽²⁾

وموقف الأب السيد أحمد عبد الجواد ورفاقه في مجلس إحدى العوالم في جلسة عريضة وقصف:

”ولكي تفسح له قامت نصف قومة، متزحزحة إلى اليسار فانحسر الفستان عن ساق الحيمة، مرتوية بيضاء، مشربة بلون وردي من أثر الحفّ والتنف، محلّى أسفلها بخلخال ذهبي أعيا ضمها ذراعيه، ورأى بعضهم ذلك المنظر فصاح بصوت كالرعد . تحيا ”الخلافة“.

وكان السيد يغمز ثدي المرأة بعينه فهتف وراءه:

. قل يحيا ”الصدر الأعظم“⁽³⁾.

إن هذه السخرية المريرة التي يديها السيد أحمد عبد الجواد لا علاقة لها بالمفهوم الديني فالرجل رغم جانب الشراب والسهرة، يواظب على الصلوات والشعائر الدينية من برّ وزكاة وصدقة، لكن القصد من التهكم إنما ينال الشكل التركي وصورته الداعرة كما يفهمها الرجل العادي في ذلك الزمن، لأن حالها لا يعدو حال العاملة جلييلة أو زبيدة أو زنوبة لا فرق، إذ أن الانحلال وصل كل شيء، وطال كل القيم والمثل سواء بسواء، وهذا ما يحاول أن يعبر عنه لا وعي الذاكرة الشعبية من خلال الهاجس أو القفشة.

أما عن الصورة الأخرى النمطية وغير النمطية، فنراها واضحة بارزة تعبر عن ذاتها بالأسماء والأشكال والأمكنة، وتعلن عن أصولها دون موارد أو ختل ومنهم

آل شوكت :

أسرة من أصل تركي صريح، إذ يعلنه الكاتب بشكل مباشر وبارز من خلال الاسم واللون والانتماء:

” - أهلاً وسهلاً، زارنا النبي.

اقتربت منه سيدة طاعنة في السن، تدبّ على مظلة وهي ترفع إليه وجهاً ناصع البياض، كثير التجاعيد، لم يكذب يحجب منه شيئاً برقعته الأبيض الشفاف..”(4)

هذه الأسرة تربطها بأسرة عبد الجواد روابط قديمة وصلة جوار وصدقة متينة العرا.

”والى هذا كله فال شوكت أناس صداقتهم شرف لا لأصلهم ”التركي“ فحسب، بل لمرتبتهم الاجتماعية.”(5)

فمن أين تأتي هذه المرتبة الاجتماعية بمقاييس ذلك الوقت كما يراها السيد عبد الجواد من خلال وعيه كتاجر من الطبقة المتوسطة:

”وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي وبين القصيرين..”(6)

ويأتي بعد الأم في العائلة خليل شوكت والغريب وجود ذلك الشبه العجيب بين أبناء تلك الطبقة التركية أو الفئة على الأصح في الموقف من العلم والتعليم، كما نراه في السراب حين يتقدم أحد أبناء ”رؤية لاظ“ للخطبة:

”وتقدم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم بل ولا مال حتى ذلك الوقت، ولكنه كان ابن أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين، ولما علم جدي بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته، سرّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق، وقيل له إنه جاهل جهل العوام، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل إنه بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنه شاب ذو أهواء جامحة، وإنه سكير عرييد فقال إنه يعلم أنه شاب وليس براهب...”(7)

والموقف يتكرر، حين يخطب خليل شوكت عائشة من السيد أحمد:

"بيد أن الزوج الذي تقدمه حرم المرحوم شوكت، لقية "بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فتى في الخامسة والعشرين، ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنيهاً، حقاً إنه ككثير من الأعيان لا عمل له، وحقاً إن حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة.." (8)

أما الأخ الآخر ابراهيم فلا يختلف عن أخيه خليل في شيء:
"راق خديجة أن تسترق النظر - كلما أمنت أعين الرقباء إلى الشقيقتين إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما وبيضاوية الوجه وامتلائه جحوظ العينين الواسعتين، البدانة الحمول.." (9)

وما المعركة التي دارت بين خديجة وحمايتها حرم المرحوم شوكت إلا تعبير عن اختلاف بين تكوينين المصري مثلاً بخديجة وروحها الاستقلالية، والتركي مثلاً بحمايتها وروحها التسلطية التي تعتمد كما تعلن هي على:

"الشرائع الإلهية، والقوانين البشرية، والفرمانات العثمانية.." (10)

ومن هنا تنتهي المعركة فيما بعد بنصف نصر ونصف هزيمة، نصف نصر يتحقق بقبول عائشة بامتياز ضمن العائلة الشوكية:

"ولكن اعلمي يا شوشو أنك لم تعودى من آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتية، فلا تبالي الآخرين.." (11)

أما نصف الهزيمة فاستقلال خديجة عنها بمطبخها وانصرافها إلى شؤونها الخاصة وتمرداها على العقلية العثمانية لأنها تحمل فكرة خاصة عنها، أعلنتها خلال احتكاكها بزوجة ياسين زينب التي لا تكف عن المباهاة بأصلها التركي..:

"لذلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عزّ عليه التنفس "يا سلام يا سلام على عروسك النزهية". فيقول لها ضاحكاً "هذه هي الموضة التركية التي تسمو على إدراكك!.. فتذكرها صفة "التركية" بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول "على فكرة ست الدار تباهي كثيراً بأصلها التركي.. لماذا؟ لأن جد جد جد جد جدها تركي؟.. حذار يا أخي فإن خاتمة التركيات الجنون.." (12)

ذلك هو الجيل القديم من آل شوكت، ولكن ماذا عن الجيل الجديد؟! الجيل "المختلط" إذا ما أردنا التحديد، ذاك الذي باتت تجري في عروقه دماء جديدة عربية - تركية.

إن أول ما نلاحظه فيه تلك الروح الجديدة "الوطنية" وقد تذهب هذه الروح إلى أبعد من ذلك كما نرى عند أحمد شوكت الذي يعيد سيرة خاله كمال ولكن مع اندفاع وحيوية أكثر، أما الشيء الآخر فهو الاندفاع في طلب العلم ونيل شهادات عليا، مع تخلص من كثير من الأزمات والاختناقات مما يمهّد لاندماج هذه الشخصية في النسيج الاجتماعي والسياسي المصري ويمثل هذا

الجيل عبد المنعم وأحمد... والآخرون.

* * *

آل محمد عفت :

ونعرف منهم محمد عفت، تاجر القماش، وصديق مجون السيد أحمد عبد الجواد وهو شخصية تعيش الحياة الاجتماعية بنهم، وتلّم بالشؤون السياسية ومجريات الأمور في الوطن. عنيد كأبناء جنسه. وابنته زينب، زوجة ياسين عبد الجواد، ومطلقته فيما بعد، تفخر دائماً بتركيتها، وتتوه بلونها الأبيض.

* * *

آل شداد

ونعرف منهم حسين شداد، وعائدة شداد، والأب الذي يعمل مضارباً في البورصة، يخسر أمواله فينتحر، أما حسين شداد فتغريه فرنسا، يتزوج ويعيش هناك، وعائدة تتزوج. كل إرث العائلة ومجدها كان يقوم على علاقة الجد مع الخديو اسماعيل ولي نعمته. تبقى هناك بعض الشخصيات العارضة غير واضحة الانتماء كاسماعيل لطيف وحسن سليم.. والشخصيات في أعمال نجيب محفوظ الأخرى لا تخرج في إطارها العام عما رأيناه في الثلاثية والقاهرة الجديدة والسراب، ففي كل رواية من رواياته باشا أو باشوات..

الحواشي

- (1) - بين القصيرين: رواية - نجيب محفوظ - تعدّ الجزء الأول من الثلاثية - دار مكتبة مصر - 1983.
قصر الشوق: رواية - نجيب محفوظ - تعدّ الجزء الثاني من الثلاثية
السكرية: رواية - نجيب محفوظ - تعدّ الجزء الثالث.
- (2) - بين القصيرين ص 70.
- (3) - المصدر نفسه ص 98.
- (4) - بين القصيرين ص 218.
- (5) - المصدر نفسه ص 219.
- (6) - المصدر نفسه ص 219.
- (7) - السراب ص 11.
- (8) - بين القصيرين ص 221.
- (9) - المصدر نفسه ص 279.
- (10) - المصدر نفسه ص 218.
- (11) - المصدر نفسه ص 276 - 277.
- (12) - بين القصيرين ص 288 - 289.

من تجليات الصورة عند حنا مينه

لا تظهر الشخصية الأقوامية عند حنا مينه جلية، واضحة المعالم، بارزة الملامح، ومرد ذلك قد يعود إلى نزوع حنا إلى الاهتمام بالواقع الاجتماعي والموقع الطبقي وهذا حقه، من هنا لا تظهر الشخصية التركية عنده إلا بشكل عارض أو طارئ، بل نرى معظم شخصياته في السيرة الذاتية مسيحية رغم أن الأحداث تدور في لواء اسكندرون، ولكننا لا نعدم لمحات مهمة، وإشارات غامضة.

ففي روايته "الشمس في يوم غائم"⁽¹⁾ يعرض لنا الكاتب شخصية الجدّ، ذات المكانة الكبيرة في العهد العثماني، من خلال الصورة التي ما زالت تسكن البيت وتهيمن على روحه وأهله، مشبعة شعوراً مشبعاً برائحة الماضي وسحره الجذاب خاصة للأب:

"كان جدّك .. اسمع.. كان قنصلاً فخرياً.. تعرف ما هو القنصل الفخري؟ كان لا يمشي على الأرض، وعلى درج السراي يتقدمه قواص ليفتح له الطريق، الوالي بنفسه كان يقف له قائماً، وجدّتك لا تدخل سريره إلا من أسفل السرير، كان يفك مشنوقاً وعلى بابه، على بابنا هذا يقيل الناس كالغنم في الظهيرة بانتظار أن يخرج ويحظوا منه بلفتة.." ⁽²⁾

هذه واحدة من تلك الصور والإشارات إلى مجد العائلة، هذه العائلة التي ترفض الاندماج في محيطها وتزواج من بعضها، كالدودة ينكح رأسها ذنبها وتتوالد.. ورغم انصراف الكاتب كما قلنا إلى الهاجس الطبقي لا نعدم مثل هذه الإحالات الذكية. فإذا كان الأب عثمانياً متعصباً، فإن الأب فرنسي متعصب وهذه المزاجية بين العثمانية والفرنسية نراها عند نجيب محفوظ فكل الباشوات الأتراك ينزعون إلى الروح الفرنسية ثقافة وتقليداً، ومع ذلك تظل نشوة الماضي ترافق الحاضر، وتطلّ برأسها بين فينة وأخرى بل قد تكون ظله الدائم:

"قالت مرة لوالدي:

- بيتنا مثل القلعة..

وابتسم والدي وقال:

- قلعة بكل معنى الكلمة..

وشرع يشرح مع تلمظ ظاهر للكلمات، أهمية القنصلاتو ومجدها الغابر، حين كان الباب العالي "طوب قابو سراي" في استانبول ذاتها يحسب حسابها، وكانت السفن الحربية "قنصلاتو تابعيتلرندن" تقترب من الميناء، وتبتعد بإشارة منها، وكان الوالي بطربوشه وبسطونه يهتز لغضبها، ويأتمر بأمرها، أما المتصرف فكان يقبض راتباً منها، وترجع عساكره إذا دخل الذي تطارده بوابتها، كان "كراكوزاً خيطه في يد جدي، وجاهلاً هم أنه أن يجمع المال، كما كان همّ الوالي أن يجمع المال للسلطان.."⁽³⁾

وهذه الولاية التي يتقلدها الوالي، لها شروطها وطقوسها التي لا تتم بدونها، يعرضها لنا الكاتب بسخرية مريّة تظهر لنا صورة من الصور السائدة في تلك العصر بكل أبعادها "الكراكوزية".. وليس السلطان أو الوالي هو "الكراكوز" بل كانت الدولة العثمانية بكاملها، وإلا ما معنى ذلك الذي يحدث؟ وكيف يحدث؟ ولماذا يستمر في الحدوث؟:

"وكان السلطان - حسبما قال والدي - يلزم جباية الولاية، والوالي يلزم جباية المتصرفيات، فيأخذ الملتزمون بجمع الأموال التي التزموا بها، ثم يتفرون لجمع المال لأنفسهم.. ولم تكن آنذاك سجلات رسمية، يأتي أحدهم إلى المتصرف طالباً وظيفة، فيدفع الثمن نقداً أو هدية، ويقطع المتصرف طرفاً من طبق الورق أمامه ويكتب "عيتنا فلانا في الوظيفة الفلانية، وبعد أيام يأتي شخص آخر طالباً نفس الوظيفة، ويكون المتصرف قد نسي فيقطع ورقة أخرى، ويكتب "عيتنا فلانا في الوظيفة الفلانية" فلا يكاد الأول يتسلم حتى يسلم، ولا يستطيع المراجعة بدون هدية أو مال..⁽⁴⁾

أمام كل هذا الإرث الباهظ نرى الابن على عكس ذلك، فهو يندفع معبراً عما في نفسه من نوازع حقد وكراهية لكل ذلك:

"يا والدي، يا ابن هذا الجد المطل من الجدار، يا صاحب القلعة التي كانت قنصلاتو، يا سكرتير المستشار، أيها الراطن بالفرنسية والحالم بالحماية الفرنسية والمستند إلى الفراكت في البحر، وملكيته القرى في الريف، والنفوذ في المدينة، إنني أمقت قلعتك وأمجادك وفرنسيتك وفراكتيتك وأملاكك، وأمقت معها عقيلتك.. ويشاركني في هذا مستشارك لأنه لو كان في مثل وضعك وأنت تحتل بلده لكان مثلي لا مثلك..."⁽⁵⁾

هذه بعض تجليات الصورة في رواية الشمس في يوم غائم.

أما في رواية "الياطر"⁽⁶⁾ فالأمر يختلف.

فنحن أمام امرأة "شكية" التركمانية الفقيرة، التي ذهب زوجها إلى الأناضول وتركها مع أولادها، فعملت راعية للأبقار لتعيلهم، ويقودها قدرها لتلتقي بـ زكريا المرسلني، البحار الذي قتل

زخريادس وفرّ إلى الغابة، عالم ذو لون واحد، آدم وحواء يعيش الاثنان، حباً يائساً، ونزوات مجنونة، تعطي شكّية أئمن ما لديها ولا تعرف المصير، وهي الجميلة الساذجة، المتعالية رغم ظروفها.

وليس للرواية نهاية.. إنما تظل مفتوحة.. وتظل شكّية تنتظر الزوج الغائب بينما تعيش الحاضر مع المرسلني..

الحواشي

- (1) - الشمس في يوم غائم - حنا مينه - رواية - وزارة الثقافة - دمشق 1973.
- (2) - المصدر نفسه ص 89.
- (3) - الشمس في يوم غائم ص 134 - 135.
- (4) - المصدر نفسه ص 135.
- (5) - الشمس في يوم غائم ص 138.
- (6) - الياطر - حنا مينه - رواية - دار الآداب بيروت 1981.

رد قلبي^(١)

تأتي أهمية هذه الرواية من كونها أسبق الأعمال الأدبية إلى رصد الأحداث التي مهدت إلى قيام ثورة يوليو 1952 في مصر، وتصوير التردّي والفساد والقهر الذي كانت تتخبط فيه مصر آنذاك، إضافة إلى أن كاتبها بصفته العسكرية أقدر الكتاب على تسجيلها لقربه من الأحداث ومشاركته فيها. وقد بدأ كتابتها ولما يمض بعد على قيام الثورة أكثر من عامين.⁽²⁾

والرواية تحكي قصة علي ابن الجنائني الرئيس عبد الواحد وعائلته الفقيرة التي تعيش على راتب ضئيل يدفعه الأمير اسماعيل للأب لقاء عمله كبستاني لديه يشرف على حديقة القصر وتسير الأحداث يكبر علي وينال الشهادة الثانوية مع أخيه حسين وهو يتعلّق بآنسة الأمير الجميلة التي أنقذها مرة من موت محقق ويحلم علي بدخول الكلية الحربية التي كانت آنذاك وقفاً على أبناء الطبقة الأرستقراطية ويلعب القدر لعبته ويقبل علي في الكلية وحسين في البوليس ويتخرج برتبة ضابط، ولم يكن له اهتمام بالأمور السياسية رغم أن صديق سليمان يحاول أن يدفعه في هذا السبيل، وأمام الفساد والهزائم وعلى رأسها هزيمة فلسطين وحريق القاهرة وفساد الملك وحاشيته وعدم قدرة الأحزاب على تحقيق أماني الشعب والاستقلال ينفجر الجيش بثورته ويعزل الملك ويبدأ عهد جديد، وفجر جديد، بينما تتقلص امتيازات الطبقة الأرستقراطية وتتقلص المسافة والفوارق الطبقيّة بين علي ومحبوبته.. خاصة بعد صدور قانون المصادرات.

هذه فكرة القصة باختصار.. وهي تفرز المجتمع السائد آنذاك إلى طبقتين أما الطبقة الأولى فتمثله أسرة الرس عبد الواحد، الفقيرة البسيطة شأنها شأن الشعب المصري آنذاك، تعيش حياة البؤس والعذاب والأقنان.. أي طبقة العبيد كما عبّر عنها الكاتب.

أما الطبقة الثانية، طبقة الآلهة الأرستقراطية، التي تتحكم بمقدرات البلد واقتصاده وثروته ومقاديره، وتمثله أسرة الأمير اسماعيل. وهي أسرة تركية من الملاك ملاك الأراضي، يأتي علي رأسها:

الأمير اسماعيل

سليل عائلة تركية، ويحمل لقب "أفندينا" إلى جانب لقب صاحب السمو الأمير، متعجرف جشع، جاسي القلب، ينظر بازدراء إلى كل ما هو مصري:

"وبدا الأمير أو "أفندينا" كما تعود الكل أن يناديه.. طويل القامة، مهيب الطلعة، أبيض الوجه، أحمره، وقد وضع مونوكل في إحدى عينيه التي لا أظن سواها من عيون عباد الله من غير الأمراء بمستطبعة الإمساك به لحظة واحدة.

وقد منح الله عينيه - غير القدرة على الإمساك بالمونوكل - قدرة على إشعاع نظرات الكبرياء والترفع والتعظيم على نمط أصيل غير زائف ولا مفتعل فهو بهذا الإشعاع والمونوكل والطربوش الأحمر الطويل المائل على أحد جوانب رأسه، واللكنة الأجنبية الدخيلة على عريته، والحمل التركية والفرنسية المتخللة حديثه بين آونة وأخرى يبدو نموذجاً للأرستقراطية..."⁽³⁾

هذا الأمير إضافة إلى كل ذلك كان مسكوناً بهاجس السرقة، فهو يعتبر كل فلاح لصاً:

"- يخرب بيوتهم.. وليذهبوا إلى الجحيم جميعاً، ولكنّ بيتي لن يخرب.. سأسحب منهم الإيجارات جميعها وسأزرع الأرض بنفسي، سأطردهم حتى يعرفوا أي جميل كنت أصنعه بهم.. لولاى لماثوا جوعاً.. هذا القطيع من المرضى الكسالى.. أي حيوان اصلىح من أي آدمي فيهم.. وأنت على رأسهم أنت شيخ العصاة.

- إني يا أفندينا أريد أن أعمل ما فيه الصالح.

- ومن أجل ذلك تريد تخفيض الإيجار، وتريد سرقتي ونهبي.. تريد أن تضيع أملاكى وتبدد ثروتي، ولكن أؤكد لك أنى لن أترك مليماً واحداً ينهبه هؤلاء اللصوص.. أسمع ما أقول؟! "⁽⁴⁾

وحين يدور الحوار بينه وبين الوكيل حول حصانه المدلل "البرق" يعلمه الوكيل أن سائسه مريض فيوصي العناية به.. ولكن بمن؟! بالحصان طبعاً، ويعقد الكاتب مقارنة لطيفة بين طعام الآلهة وطعام العبيد تظهر مدى التفاوت الطبقي الهائل بين الأُسرتين:

"وفي حجرة المائدة الفخمة، جلس الثلاثة: الأمير على رأس المائدة وعلى يمينه غلاء وعلى يساره أنجي وفي مواجهته كرسي خال كانت تجلس عليه الأم.

وعلى المائدة رصت الأطباق الصينية التي رسم عليها شعار الأمير والفضية التي نقش عليها نفس الطابع.. ودفع باب زجاجي مؤد إلى الأوفيس المتصل بالمطبخ ودخل إلى الحجره خادم نوبي قد ارتدى سترة خضراء محلاة بالقصب، وسروالاً فضفاضاً متسع الحجره مربوطاً عند القدمين.. وأخذ يوزع الطعام.." ⁽⁵⁾

أما في بيت الرئيس عبد الواحد فالأمر يختلف:

"وفي نفس اللحظة.. كانت مجموعة أخرى تجلس لتناول الطعام على مائدة أقل تواضعاً.. مائدة أرضية.. أو باسم آخر "طبلية". كانت أم علي زوجة "عبد الواحد" قد أتمت ترتيبها.. وهي لابد أن ترتبها ولو كان الأكل "دقة" ⁽⁶⁾..

وحين ترجوه ابنته أن يتوسط لعلّي لكي يدخل الكلية الحربية، يفقد صوابه ويرى في ذلك ضرباً من الجنون فيقول لها:

” - كلهم حيوانات.. لا يستحقون أن يكونوا أكثر مما هم عليه..“(7)

ومع ذلك وإرضاء لابنته يقبل الوساطة لعلّي ويكون سبباً في دخوله الكلية الحربية. وحين يصدر قانون المصادرات بعد الثورة يرحل الأمير إلى استانبول تاركاً كل شيء: القصر والأرض والأولاد. أولاده.

علاء :

ابن الأمير ووريثه، يحمل كل إرث طبيقته الأرستقراطية، صورة مصغرة عن الأمير ولكنه أكثر حقداً واندفاعاً وطيشاً، يظهر ذلك أكثر حين يأتي علي لتنفيذ قانون المصادرة كونه رئيس اللجنة، لجنة المصادرة والجرد:

” - يبدو أن المسألة لن تكون فيها أي مضايقة أو إزعاج ولن تحتاج إلى معاونة أحد لأنك لن تجد ما تصادره.

وبدت الدهشة على ”علي“ وتساءل.

- كيف؟ وأين الأراضي والمحاصيل؟ والخيول والعربات؟ والمجوهرات؟

- الأراضي، قد أغرقت بمحاصيلها، والدواب كلها سممت، والعربات قد أحرقت.

- ومن فعل كل هذا؟

- أفندينا الصغير ، البرنس علاء..“(8)

أنجي :

تمثل الروح الطيبة في هذه الأسرة، وتحب علي ويتوج هذا الحب في النهاية بالزواج..

الحواشي

(1) - ردّ قلبي - رواية - يوسف السباعي - مكتبة الخانجي - القاهرة 1970.

(2) - بدأ الكاتب الرواية عام 1954 أنهاها في العام نفسه.

(3) - ردّ قلبي ص 11.

(4) - ردّ قلبي ص 44 - 45.

(5) - المصدر نفسه ص 50 - 51.

(6) - ردّ قلبي ص 51 - 52.

(7) - المصدر نفسه ص 153.

(8) - ردّ قلبي ص 964.

الحرب في بر مصر^(١)

تعدّ رواية القعيد هذه من الروايات التي تصدم العقل، وتجافي منطق الحياة لا الواقع المعاش في مكانها وزمانها، فهي تروي حكاية عسيرة الهضم، عصيّة التصديق، عما يمكن أن يحدث في بر مصر الذي هو جزء من البر العربي وفي سلطة "نيومملوكية" وإن تقنعت بأقنعة شتى، ولا بدّ لك بعد قراءتها من الشعور بالغضب المرّ، والرثاء الساخر، والحزن العميق لما يمكن أن تصل إليه الأمور في مرحلة من أخطر وأدق المراحل التاريخية.

والرواية تحكي قصة ابن فلاح شاب يدعى "مصري" كان متفوقاً في دراسته ولكنه فقير معدم، وابن عمدة عايب ماجن يدعى إلى الجهادية "خدمة العلم"، ككل أخوته الذين سبقوه وتهربوا من ضريبة الدم بدفع البدل أو التحايل على القانون يبدأ أبوه العمدة الذي كان يعيش أمتع لحظات حياته بعودة الأرض إليه، أرض أبيه الذي استولى عليها الإصلاح الزراعي عام 1954، يبدأ البحث عن وسيلة جديدة لخلاص ابنه آخر العنقود من زوجته الثالثة، والوسيلة هي البحث عن سمسار وقد وجده العمدة في شخصية المتعهد، الذي يقوم بخدمات من هذا الطراز، والمتعهد معلم سابق ومطرود من سلك التعليم لهذه الأسباب، ويعدّ المتعهد خطة كاملة محكمة الأركان، يحدّد فيها للعمدة - الذي وافق - مراحل التنفيذ وتخلص في إيجاد البديل الذي يذهب باسم ابن العمدة لأداء خدمة العلم كابن للعمدة وليس بديلاً عنه وقد وقع الاختيار على مصري ابن الفلاح الفقير المهدد بالطرد من أرض العمدة التي يستأجرها.

ويذهب مصري، وذلك إنقاذاً لعائلته المهدة بالموت جوعاً ويستشهد في حرب تشرين، وهنا تبدأ مشكلة مصري ميتاً كما تبدأ الأزمة بشكل عام، ومرة أخرى تبدأ لعبة جديدة، يكون فيها النصر للعمدة فيدفن مصري على أنه ابن العمدة، ويستولي العمدة على كل تعويضاته وحقوقه، إنه يسرقه حياً وميتاً، سرق عمره، وأحلامه، وماله.

هذا ملخص يسير للحكاية، ولكن ما يهمنا من كل ذلك هو شخصية واحدة كانت وراء كل ذلك الخراب.. العمدة، فمن العمدة هذا؟! ومن أين له كل هذه القوة وهذا الجبروت؟! إنه ينتمي إلى عائلة جدها الأول من العساكر المجهولين، اشترك كما يقول العمدة في "هوجة" عرابي، وهو سرّ العمدة الذي يخجل منه، بدل أن يفخر به.

"كان والدي يقول إنه لو ذهب أحد منا إلى الجهادية، لاهترت شجرة العائلة، وتقوست، واقتربت من الأرض ولما كان عمر هذه الشجرة يعود إلى زمن الممالك والأتراك في مصر، فلا يصبح من حقي العبث به." (2)

والعمدة، لا ينسى حنينه إلى الماضي الذي يسكنه ولا ييارحه، وهو يشعر بقدوم الزمن الجديد، زمنه، الزمن المملوكي وسلطانه "المال" خاصة وقد كشفت السلطة في أوائل ثورة يوليو 1952 أوراقه، ونفضت الغبار عن نسبه التركي وعدم استكمال أبيه لشروط الجنسية:

"ذات صباح حضرت إلينا لجان من حركة الجيش معهم ضابط قيل إنه مندوب القيادة، قالوا لنا إن الأوراق الموجودة معهم، تؤكد أن والدنا أصله "تركي"، وإن إجراءات حصوله على الجنسية المصرية غير قانونية لهذا سيأخذون الأرض الجاري تسجيلها حالياً باسمه.." (3)

ولأن الزمن غول رهيب، ولا يثبت على حال، لأن للمال في بعض الأزمان السلطان الأكبر فلقد استطاع العمدة بعد المتغيرات التي جرت إثر موت عبد الناصر أن يعيد الأرض إلى حوزته مرة أخرى:

"وعلى غير توقع أتى الفجر مفاجئاً، صفيت الحراسات، عادت لنا مساحة من أرضنا، رفعت قضية أثبت فيها أن الدم الذي يجري في عروق والدي مصري وأن عائلتنا لم تعرف الدم "الأزرق" أبداً، وأن مؤسس عائلتنا الأول كان مشرفاً على بناء هرم خوفو الأكبر.." (4)

كما استطاع بواسطته أن يفعل ما فعله، وهو قادر على الفعل دائماً في مثل هذه الأحوال، وقد يحلم بأكثر من ذلك:

"نحن في أيام شعارها معروف، معك قرش إذن تساوي قرشاً.. وأنا والحمد لله.. معي ملاين القروش، وما دام القرش أصبح "رب" هذه الأيام فلن أخاف أبداً من أية احتمالات، وقريباً سيخرجون عمليات جراحية للناس في بلدي يستأصلون فيها القلوب، ويعلقون مكانها جنيهاً ذهبية، تخفق بدلاً من القلوب، وتدفع بالقروش الذهبية بدلاً من كرات الدم الحمراء والبيضاء، وعندما يحدث هذا ستعود إلينا الهبة والجاه ونصبح ملوك مصر من جديد.." (5)

نعم إنه الحلم بالعودة من جديد إلى العصر التركي حيث المال رب الجميع وحيث القوة سيدة الموقف، والظلم عنوان المرحلة، وكل شيء قابل للشراء من رأس الهرم إلى سفحه، وهو ما شعر به المحقق من خلال الضغوطات التي مورست عليه لطى القضية:

"كنت سعيداً قلت إننا نعيش بالفعل في "عصر ذهبي" هاهم كبار المسؤولين يهتمون بمثل هذه القضايا، وتلك أهم صفات الحاكم: أن يصل العدل إلى كل الناس، إن الذي قال إن العدل أساس الملك والحاكم العادل هو الذي لا يغمض له جفن مهما

حدث ما دام في رعيته شخص جائع أو عار أو بلا مأوى. كان يدرك سرّ الفارق بين الحاكم الصالح وسواه من الحكام.. تذكرت كل هذا.. فقلت ما بالك بالقضية التي أحقق فيها اليوم.. إنها تهزّ الجبال فهي متصلة بالدم الذي سال دفاعاً عن بلدي ولم يجف بعد، إن رائحة اختلاطه ما زالت تملأ الأنوف، وصلت إلى المسؤول الكبير، خيل إليّ أن السيارة جزء متحرك من مكتبه، أو أن مكتبه هو الجزء الثابت من السيارة، الجو المعطر والهواء الدافئ، والألوان التي هي الأقرب إلى ألوان الطيف..”(6)

في هذا الجو المترف والسحري ماذا كانت نتيجة المقابلة بين المحقق الشاب الحالم بعدل وصلاح وزمن عادل والمسؤول الكبير، في هذا الموقف تتساقط كل الأقنعة وتصل المسألة حدّ العيشية: “تساءل المسؤول بدهشة:

- محاكمة؟!

- طبعاً المفروض بعد تحقيق النيابة أن يحال الأمر للقضاء.

- أي أمر؟

- قضية الشهيد التي أحقق فيها.

- أي شهيد؟

- مصري ابن الحفير.

- أي خفير؟

- الذي ذهب إلى الجيش بدلاً من ابن العمدة.

- أي عمدة؟!

- عمدة البلد الذي يقولون عنه إنه رجل مسنود ولكن جريمته واضحة.

- أي وضوح

- وضوح أركان الجريمة: الجاني والشهود، والأدلة المادية والضحية.

- أي ضحية؟!

- أقصد الضحايا.

ارتفع صوته أكثر هذه المرة:

- عمّ تتكلم يا حضرة...”(7)

وتتصاعد وتيرة هذا الجو العيشي الأسود، وكأنّ الإنسان يعيش أجواء مسرحية من مسرحيات العبث لا أجواء واقع تنتفس هواءه ونعايش أحداثه وتقف أقدامنا على أرضه ويكون الحل جاهزاً. “أشار بيده نحوي:

- اسمع

لم أرد، أكمل هو:

. لا توجد قضية ولا غيره، الفلاحون في البلد ضحكوا عليك، لفقوا لك قصة محكمة مثل الروايات البوليسية ابن الخفير ذهب إلى الجيش ولأنه يدرك وضاعة أصله ويريد أن يتمسح في الكبار أولاد الذوات أملى بياناته من اليوم الأول خطأ. نسب نفسه إلى العمدة، قال إنه ابنه، أباً عن جد، لهذا عندما استشهد تم هذا الاستشهاد بالاسم الذي ارتضاه لنفسه، برغبته الكاملة هذا كل ما حدث ولهذا سيقيد استشهاده بموجب هذا الاسم، ودفن على هذا الأساس، على أنه ابن العمدة...⁽⁸⁾ وهكذا تكون النهاية.. "وتوتة توتة.. وانتهت الحدوتة.."

الحواشي

- (1) - الحرب في برّ مصر - يوسف القعيد - رواية - دار ابن رشد - بيروت 1978.
- (2) - الحرب في برّ مصر ص 14.
- (3) - المصدر نفسه ص 17.
- (4) - الحرب في برّ مصر : ص 18.
- (5) - المصدر نفسه ص 16.
- (6) - المصدر نفسه ص 147.
- (7) - الحرب في برّ مصر ص 149 - 150.
- (8) - الحرب في برّ مصر ص 149 - 150.

الخشوف (١)

ابراهيم الكوني أسر في كتاباته، وما بأسرك في أعمال ابراهيم عامة، تلك الروح الشفيفة التي تريد أن تعاود بالإنسان إلى منابع البراءة الأصلية، والفترة الغامرة، والمثل العليا التي تريد أن ترتقي بكل ما هو ثمين وشريف في النفس الإنسانية، لذا فهو يعود إلى الطبيعة البكر قبل أن تُخدش عذريتها، ليكون الروح الحارسة لكل نأمة في الرمل أو تفجر أخضر في الشجر الرعوي الباسق، القاهر لكل عداوات الرمل والريح والتاريخ الأسود ومحاولات التقييم لدفق أصيل وخال.

والكوني يحكي لغة فصيحة وآسرة وفياضة فلا يمكن اتهامه "بالتلفيق" أو العجز ومحاولة الفحولة، فهو يؤاخي بين الإنسان والحيوان، ويوائم بين الغابة والصحراء في جو احتفالي طقوسي سحري، يشارك فيه الجميع: الناس والحجارة والشجر والجمل وكأنه في سبق مع الزمن والتآكل، يدوّن تاريخ الناس والرمل والوهدان والجمل والعادة قبل أن تختفي من الوجود وتحل محلها فراغات طارئة وخواء بائس.

والواحة هي الجزء الثاني من رباعية "الخشوف"⁽²⁾، فالواحة إذن رمز للبراءة والبكارة التي ظلت عصية على كل محاولات التدنيس، أو الدناسة التي يمكن أن تتسلل كالغن إلى هذه القيمة التي تحاول أن تحتفظ بألوانها كرسوم تاسيلي في عمق الصحراء.

ولا يلفت النظر مثل عناية الكوني باللغة وفي رواية الأحداث وكأنه يركز على الذاكرة الشفوية والأسطورية بكل ما فيها من وعي عاقل يتوسل الحكمة والأمثال وسور القرآن والأحاديث الشريفة، أو تخريف يفرضه الناس والمكان وهيبة الأسلاف القائلين بالروح الطيب أو الشيطان.

وما يهمنا من هذا العمل الهام والرائع هو الشخصية التركيبية⁽³⁾ تلك الشخصية التي تظل كخلفية للواحة والقبيلة حتى تبرز كحضور ذي تأثير مدمر على وجودها وأحلاقتها وثوابتها وسلالتها الأصلية. وذلك من خلال حضور القائم مقام التركي سعادتي بك وحاشيته من الحرس والإنكشارية، هذه الجرثومة التي حملت معها أمراضاً وأدواء بدأت تفتك في البناء النفسي والاجتماعي، وتهدد براءة الواحة وطبعها الرعوي الصافي، وسعادي بك:

"رجل كريمة، محتقن الوجه، بدين الجسم، يشهر أمامه كرساً فخماً ترافقه حاشية من الأتباع والمساعدين والجنود وابنته الحسناء دخل الواحة مع حلول المساء، فنصب

معكسراً وأمر جنوده باستباحة الحقول واجتياح الغابة وانتزاع الخرفان، فسالت دماء
عشرات الخرفان في تلك الليلة بل واستمرت عمليات النهب التي أشرف عليها نفر
من الانكشاريين والأشقياء..⁽⁴⁾

إذن كانت بداية الدخول إلى الواحة استعراض السلطة الحاكمة، لما يمكن أن تقوم به من سلب
واستباحة.. ثم سكر وجلد ثم إصدار الفرمانات التي بدونها لا معنى لوجود "البك" وسلطته:
"ولم يكتف هذا "الوحش" بجلد الشيخ الوقور وإنما أصدر "فرماناً بعزله فوراً
وتعيين عاشور الجاروف بدلاً عنه (وهو جد عبد الجليل الجاروف شيخ الواحة الحالي)
ثم بدأ سعادي بك سلسلة من الإجراءات التنكيلية بالأهالي وفرض عليهم ضرائب
قاسية، وإتاوات مجحفة، أفلست الكثيرين ودفعت بالبقية إلى مضاعفة العمل وتغطية
الضرائب التي اعتبرها البعض جزية..⁽⁵⁾

وكان الجلد جزاء لكل من يخالف، من هنا شعر الأهالي بأنهم ضحية شخص مريض لا
يعرف الرحمة، أعماه الحقد، مغرم بالغناء التركي "أمان.. أمان.. وليس "يا ليل يا عين.. على
الطريقة العربية. إضافة إلى هوسه بسرد بطولاته المزعومة في البلقان والقرم ضد الروم.

كل ذلك قد يكون مقبولاً لكن من غير المقبول علاقته مع ابنته الحسنة، إنه سفاح المحارم الذي
ترفضه كل الشرائع، وهو لا يحاول أن ينفي هذا العهر وهذه الدعارة التي تقشعر لها الأبدان:

"وقد تناقلت الألسن في الواحة شائعة أن هذا السعادي بك على علاقة آثمة
بكريمته تلك، وبرغم أن الرعب الذي يسيطر على الأهالي يمنهم من تناقل الشائعات
أو ترديدها إلا أن ذلك لم يمنع هذه الشائعة من التنقل والانتشار حتى عادت إلى
مسامع البك نفسه، وكم كانت دهشة الجميع بالغة عندما وجدوا سعادي يقهقه ملء
شدقيه ويعلق ببرود إجرامي "وماذا في ذلك؟ لماذا أترك هذا الملاك يفلت مني ليرقد
في مخدع الأغراب؟..⁽⁶⁾

إلى كل ذلك يضاف إلى هذا البك غرامه بالشاعر المتنبي الذي يحفظ له شطراً من بيته "لا
تشتري العبد إلا والعصا معه.. ثم يكمل البقية باللغة التركية.. وحين يكتشف المعلم الشنقيطي
الذهب يسلب سعادي بك الكنز وتبدأ أحلام الثراء والرحلة إلى الأستانة وشراء رضا السلطان..
ولكن الموت يكون بالمرصاد لسعادي بك فقد دست له ابنته الحسنة السم - وهي عادة تركية
معروفة في قتل الأبناء أو الآباء أو الأخوة - ثم تهرب مع عشيقها بالكنز وهو أحد الإنكشاريين:

"انقضت ثلاثة أشهر على حادثة الهرب بالكنز عندما وجدوا الفتاة وعشيقها ميتين
من العطش، عارين من الملابس، متعانقين وفي رواية أخرى متلاصقين في وضع
جنسي..⁽⁷⁾

وبعد سعادي بك يبدأ الصراع بين الحاشية على خلافته، وبعد مداوالات يعين محمد سليم
خليفة له، ولكنه لقي حتفه بعد ثلاثة أيام حيث وجد مطعوناً بسكين في صدره، واستولى نوري

بك على المنصب بعد مذبحة صفى فيها خصومه من الفريق الآخر، وهكذا تكون المذابح والدسائس هي السبيل للسلطة آنذاك، ولا مناص منها.

ونورى بك هذا شخصية دموية، ماجن وخليع، وقد أوكّل للشيخ عاشور مهمة جديدة جعلت الناس يترحمون على سلفه:

”وأوكّل للشيخ عاشور الجاروف مهمة جديدة مخجلة أضافها لمهامه السابقة “استدعاء الفتيات العذارى” لخدعه سواء بالرضى أو بالرشوة أو بالقوة وقد بلغت به البجاجة أن وصف هذا العمل الإجرامي بأنه ”تحسين للنسل سوف يشكره عليه أهل الواحة في المستقبل عندما يرون الحسنات البيضاء وهن يتبخترن في أزقة الواحة الضيقة وقد جرى الدم التركي في خدودهن..“⁽⁸⁾

هنا بلغ الأمر حدّ الخطر فالتهمت الواحة بثورة عارمة وجرت معركة تطهير ضد الدخلاء كان النصر فيها للأهالي، ولأنّ السلطان في استانبول كان منشغلاً بحروبه في البلقان وغير معني بتلك الواحة البعيدة التي كانت عبارة عن منفى لخصومه فقد تركت بدون قائمقام فعرفت معنى الحرية وعادت إلى حياتها وبراءتها.

الحواشي

- (1) - الخسوف - ج2 - الواحة رباعية - إبراهيم الكوني - منشورات: تاسيلي - دار التنوير بيروت 1991.
- (2) - رمز طقسى يبدأ به الكوني عالمه الروائي في الرواية.
- (3) - لقد كان سروري عظيماً لعثوري على نصّ الكوني لأنّه يسدّ ثغرة في قراءتي النقدية لأنّه العمل الوحيد من المغرب العربي الذي يحكي عن الشخصية التركية بين يدي.
- (4) - الواحة ص 89.
- (5) - المصدر نفسه ص 89.
- (6) - الواحة ص 90.
- (7) - المصدر نفسه ص 105.
- (8) - الواحة ص 106.

• يمكن الرجوع إلى الأعمال التالية:

- | | | |
|--|-----------------------------|--------------------------|
| اسماعيل فهد اسماعيل | دار العودة - بيروت | - النيل يجري شمالاً |
| مجيد طوبيا | دار سعاد الصباح - القاهرة. | - تغريبة بني حنحو 1 - 2 |
| أبو المعاطي أبو النجا | سلسلة دار الهلال - القاهرة. | - العودة من المنفى 1 - 2 |
| حمدي موصلي - مسرحية-اتحاد الكتّاب العرب - دمشق | | - الفرواتي مات مرتين |
| محمود تيمور | مسرحية. | - العشرة الطيبة |

القسم الثاني

صورة التركي في الأدب العالمي

الفصل الأول

باشوات وعبيد

"اليهود صلبوا المسيح
والأنراك صلبوا كريت"
كازنترا كيس - الحرية والموت

"وفي الحال أثار التركي كراهيتي، فقد كان مهووساً بالمنطق
مما أثار حنقي عليه، وكان منطقاً رديئاً أيضاً.."
هنري ميللر - عملاق ماروسي

"كلكم خنازير.. إنني أكره شعبكم.. إنني أكرهكم
جميعاً.."
بيلي هيز - قطار منتصف الليل

صورة التركي عند كازنتزاكيس

الطريق إلى غريكو⁽¹⁾

يعدّ الكاتب اليوناني كازنتزاكيس واحداً من أهم كتّاب عصره بما حملته كتاباته من هواجس وهموم الإنسان وهو يحيا ويحب ويقاتل من أجل الحرية والكرامة والوطن.

وفي مذكراته التي كتبها تلوح لنا من خلال استعراضها صورة التركي أو قل الأتراك وهم يجثمون على صدر كريت كمحتلين ماجنين لا وزن لقيمة عندهم أو لإنسان أو لشيء.. يقول عن أبيه:

”وقد رأى مرة آغا يضع سرج التحميل على ظهر مسيحي ويحمله مثل حمار غلب عليه الغضب تماماً حتى أنه هجم على التركي..“⁽²⁾
وقد تأخذ المعاناة صورة أخرى لعريضة الأتراك:

”وذاث يوم بينما كان يمر عند الظهيرة في زقاق ضيق عائداً إلى بيته سمع امرأة تصرخ وأبواباً تصفق، كان هناك تركي سكران قد امتشق يطقانه وراح يطارد المسيحيين، واندفع نحو أبي في اللحظة التي رآه فيها، كان الحزّ لاهباً وكان أبي متعباً من العمل، لم يكن راغباً في التشاجر وخطر له بغتة أن يتحول إلى زقاق آخر وأن يهرب، لم يكن أحد يراه، لكن هذا سيكون مخجلاً، فك المئزر الذي كان يرتديه ولفه على قبضته وفي اللحظة التي بدأ فيها التركي الجبار يرفع يطقانه فوق رأسه وجه إليه ضربة عنيفة في بطنه وألقى به إلى الأرض، ثم انحنى وخلص البيطقان من قبضة التركي وسار إلى البيت..“⁽³⁾

بل يذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك حين يستحضر ما ترسب في ذاكرته من صور وأفعال ووجوه بل ورائحة أيضاً:

”كنت أميّز كل شيء بين روائح المسيحيين والأتراك، كانت هناك عائلة تركية لطيفة تعيش في الشوارع المقابل لنا، وحين كانت الزوجة تزور بيتنا كانت الرائحة التي تصدر عنها تصيبني بالقرف وكنت أكسر عوداً من الحبق وأشمه أو أضع في كل من منخري زهرة من الأكاسيا، لكن كان لهذه السيدة فطوم طفلة في الرابعة من عمرها

(لا بدّ أنني كنت في الثالثة) كانت تفوح منها رائحة غريبة، كنت أراها رائحة طيبة..”(4)

هذه الرائحة التي يراها دنسة ومقرفة ومقززة بشكل لا يمكن التغلب عليه عند الكبار تظل مقبولة عند الأطفال، فالطفل ملاك بريء، ومردّ ذلك عند كازنتزاكيس أنه يرى وبكل ثقة وإصرار أن:

”لا شك أن الهواء اليوناني مقدس، لا شك أن الحرية قد ولدت هنا..”(5)

ولأن الحرية ولدت هناك كان لابدّ من الصراع، صراع بين كريت وتركيا، يرافق هذا الصراع الحروب والمذابح والقتال، حتى صار لكل ما حوله وجهه: وجه كريت أو وجه تركيا.. وجه الخير ووجه الشر:

”كنت أنتحي جانباً وأنصت، الحروب، الهجمات، المذابح، وكانت ميغالوكاسترو تتلاشى وتسامى أمامي جبال كريت، الهواء مليء بالصرخات، صرخات المسيحيين وصرخات الأتراك، وتلتصع أمام عيني المسدسات ذوات القبضات الفضية. كريت وتركيا تتقاتلان، تصرخ الأولى ”الحرية“ فتجيبها الأخرى ”الموت“ ويمتلئ ذهني بالدم..”(6)

وتفوح الرائحة مرّة أخرى، رائحة مقرفة وقابضة للنفس، ترافق المذابح والدم والعبودية وتلوّث الهواء الكريتي:

”حينما كنت طفلاً، كان الهواء الكريتي مشبعاً بزفير الأتراك، رائحة وحش بري، كان هناك يطقان تركي مشرع فوق رأسي، وبعد سنوات عديدة رأيت ”توليدو في العاصفة“ فعرفت أي نوع من الهواء كنت أستنشق حينما كنت طفلاً”(7)

كل ذلك يهون، يصبح الأمر مقبولاً، ولكن حين تأتي المجزرة يختبط العالم، يتحول إلى أصوات، أصوات بشر غاضبة، أصوات أبواب تغلق، أصوات نسوة خائفات وأطفال، أصوات أسلحة وريح.. وتنحفر في الذاكرة بعيداً تلك الأصوات خاصة صوت الأم التي تصرخ ”الكلاب التركية“. إنها لا تجد سوى تلك الصورة، صورة الكلاب المسعورة لتصورهم بها، فعلى أثر مقتل أحد الأغوات انحدرت قطعانهم الغاضبة إلى ميغالوكاستر طلباً للانتقام.

”جلست وأمي وأختي متلاصقتين ومتترسبين داخل بيتنا. كنا نسمع الأتراك الهائجين في الشارع يشتمون ويهددون ويحطمون الأبواب ويذبحون المسيحيين سمعنا نباح الكلاب وصرخات الجرحى وحشرجات الموت وهدير في السماء كما لو أنّ الهزة الأرضية تتقدم..”(8)

إنها المجزرة التي سوف ترافق الكاتب، وتترك في نفسه أثراً بعيداً، فهي صورة للتركي أو للأتراك عامة.

"إنني أكتب الآن كلمة "مجزرة" ويقف لها شعر رأسي لأنني حين كنت طفلاً لم تكن هذه الكلمة عبارة عن عدد من الأحرف الأبجدية المتجاورة بل كانت هديراً هائلاً وأقداً ترفس أبواباً ووجوهاً كالحلة تحمل السكاكين بين أسنانها ونساء يرتجفن في كل مكان من الجوار، ورجالاً يحشون أسلحة وهم راكعون وراء الأبواب، بالنسبة لنا نحن الذين كنا أطفالاً في كريت في ذلك الحين هناك كلمات أخرى تمتزج أيضاً بالدم والدموع، كلمات صلب عليها شعب بأكمله: الحرية..."⁽⁹⁾

* * *

الصورتان اللتان يقف عندهما الكاتب متعاطفاً، مشفقاً أو معجباً أحياناً، فالأولى صورة المرأة، الطفلة كما مر معنا، والمرأة الناضجة التي يراها حزينة مأسورة مثلها مثل الحرية في كريت:

"و ذات ليلة بينما كنت أعبر الحي التركي سمعت امرأة تغني موالاً شرقياً بصوت مليء بعاطفة حزينة متشنجة، كان الصوت عميقاً وأجش وكثيباً، ينطلق من حنايا المرأة ويملأ الليل باليأس والسوداوية الحزينة. وحين أحسست أنه من المستحيل علي أن أتابع السير وقفت أنصت ورأسي مائل إلى الجدار ولم أستطع أن ألتقط أنفاسي. ولما لم تعد روحي المحتنقة قادرة على التلاؤم مع قفصها الطيني تدلت من قمة رأسي وراحت تتردد في أن تطير أم لا؟ لا لم يكن الصدر الأنثوي للمرأة التي تغني مترعاً بالحب، ليس ذلك السر الكلي الذي يزاوج المرأة والرجل ولا بالغبطة ولا بالأمل بابل، بل كان مترعاً بصرخة، بأمر موجه إلينا لكي نحطم قضبان سجوننا المؤلفة من الأخلاق والحجل والأمل وأن نسلم أنفسنا أو نهدر أنفسنا أو نتوحد مع (العاشق) الرهيب المغوي الذي يكمن منتظراً في الظلام ونسميه الله، وأنا أصغي إلى أغنية المرأة المرتعشة الحزينة في تلك الليلة شعرت أن الحب والموت والله متوحدون أو أنهم شيء واحد"⁽¹⁰⁾

أما الصورة الثانية التي تعاطف معها الكاتب فهي صورة الدرويش هذا الذي زهد فاعتكف في زاويته، بعيداً عما يجري في هذه الدنيا الزائلة الفانية، وهذا الموقف المتعاطف نرى موقفاً مغايراً من القس، الذي ربما يكون عدم التعاطف معه هو انعكاس لموقف الأب.

"وسأل الأب: أي اسم تطلقه على الله يا أبتني؟

فأجاب الدرويش: ليس لله اسم، إنه أكبر من أن تحتويه الأسماء، الاسم سجن والله حرّ.

وأصر الأب، ولكن إذا شئت أن تناديه، حين تكون هناك حاجة فأني اسم تستخدم؟

أطرق الدرويش مفكراً ثم افترقت شفتاه: آه.. هكذا أناديه ليس الله بل آه.
وأربك هذا الكلام الأب فتمتم: إنه على حق..”(11)

* * *

صور كثيرة مرّت، المذبحة والكلاب، الرائحة والدم، الحرية والموت، الدراويش والرقص، النساء والأطفال، السكاكين والأبواب، وإذا كان كل ذلك انقشع فإن الصورة الأكثر إيلاماً والتي يقف أمامها الكاتب خاشعاً مذهولاً فهي صورة مدينة القسطنطينية - كما يسميها - وهي تفرق في الضباب والمطر:

”كان مطر لطيف يهطل.. والمآذن البيضاء والسرو الأسود يخترقان الضباب مثل صواري مدينة غارقة، القديسة صوفيا والقصور والجدران الملكية نصف المهدمة كلها غارقة في المطر الصامت القانط، تجمعنا عند مقدم السفينة ورحنا نجهد أن تخترق نظراتنا الضباب الكثيف لكي نرى.

شتم واحد من رفاقي ”عليها اللعنة! العاهرة! تنام مع الأتراك“ وعيناه مليئتان بالدموع.

وتمتم آخر ”عبر السنين سيأتي وقت تعود فيه إلينا مرة أخرى..”(12)

أمام هذا الاغتصاب الذي اتخذ شكل أرض وقصور ومعابد وتاريخ وبشر كان الكاتب مسروراً:

”وكنت مسروراً لأن المطر منعني من رؤيتها، ومسوراً لأن الحراس الأتراك الضخام منعونا من مغادرة السفينة ووضع أقدامنا على الأرض المقدسة المشتركة..”(13)

هذه هي بعض تجليات الصورة التركية في مذكرات كازنتراكيس نعرضها وننتقل إلى كتاباته الإبداعية التي ظلت تمتاح من معين هذه الذكريات بكل ما فيها.

الحرية والموت⁽¹⁴⁾

تطالعك الرواية من عنوانها بأهدافها ومراميها ورموزها الواضحة التي عبر عنها الكاتب من خلال مذكراته في عمله "الطريق إلى غريكو"، فالحرية هي كريت والموت تركيا، والصراع القائم هو صراع بين الحرية والموت، بكل ما يترتب على ذلك من تضحيات وضحايا وآلام لا تنتهي.

فالرواية تحكي قصة هذا الصراع الدائر على أرض كريت، بين شعبين وبالتالي بين شخصيتين رئيسيتين تمثل كل منهما المعسكر الآخر بامتياز، حاملة خصائصه وميوله وأحلامه، وطبائعه الطيبة والشريرة، إضافة إلى شخصيات ثانوية تمثل شتى النواحي الأخرى.

فالكاتب ميخائيليس كان جديراً بلقب "الخنزير البري" في "ميغالوكاسترو" ولكثرة ما يتصف به من ثورات الغضب، وقد كانت عيناه العميقتان المستديرتان، وعنقه القصير الصلب، وجسده العريض الثقيل، كل ذلك جعله بحق جديراً باللقب، وهو يضرب بجذوره في هذه الأرض، فلقد جاء من صلب جده الجسور ميكائيليس المجنون الذي لم يكن يخشى الأتراك، وأنجب كل هؤلاء الأولاد والأحفاد.

أما في الطرف الآخر - وهو مجال دراستنا - فيقف ممثلاً للجانب التركي نوري بك.. فمن نوري بك؟ وكيف رسم له ولباقي الأتراك الكاتب صورتهم؟ سنعرض ذلك كما جاء في الرواية.

"نوري بك"

الشخصية الموازية والمساوية في الجانب التركي لشخصية الكاتب ميخائيليس وهو أخوه في الدم، له حضوره الطاعني والمؤثر في الأحداث، خلق ليكون سيداً وثرياً وأمرأ، فهو يحمل خصائص الأرستقراطية التركية، ويمثلها في كل نزاعاتها وميولها، وحرصها على أن تظل كريت جزءاً من ممتلكاتها التي آلت إليها بالفتح والحرب:

"رجل جسيم وقور، جليل الإيماءات، تطل من رأسه المستدير عينان لوزيتان داكنتان، وقد أضفت عليهما أضواء المصباح بريقاً أخاذاً شاربته الكثيف تتضح فيه الصبغة السرداء، كانت الوسامة الهادئة الشرقية ممثلة فيه. كان يشبه ذلك الأسد ذا الوجه القمري الذي كانت النساء التركيات في الماضي يطربزن رسمه فوق النسيج الفارسي، كان يرتدي سروالاً طويلاً من الصوف الأزرق ولكن حزامه كان أحمر

قانياً، وعمامته التي تغطي شعره بيضاء كالثلج وكان كنفاه معطرين بالمسك، وكانت رائحته "كرائحة وحش مفترس في حر الربيع.." (15)

إنها الرائحة مرة أخرى، رائحة الوحش يستحضرها الكاتب من ذاكرته، من مخزون طفولته، لتدل على الفرق بين كائنين: الكرיתי والتركي، هذه الرائحة التي تتكرر في أكثر من عمل ليجعلها ترافق حضور التركي كما ترافق كل وحش رائحته فهو "الكلب" وهو "الوحش البري" وهي رائحة مقرقة ومنتنة لأنها تلوث الهواء الكرיתי فتفسده.

"حين كنت طفلاً كان الهواء الكرיתי مشبعاً بزفير الأتراك، رائحة وحش بري.." (16)

وتتضارب مشاعر نوري بك تجاه الكابتن ميخائيليس، فهو لا يخلو من إعجاب به بل ويعتبره نداً وأخاً له بالدم. ولكنه لا ينسى ثأره عند عائلته، فلقد أقدم أخوه "كوستاريوس" على ذبح أبيه "هاني علي" لذا فهو ينتظر الساعة الملائمة وإن الموت قد اختطف المذكور، وابنه ذهب للدراسة عند الفرنجة إذن لا مفر من الانتظار.

وقد ولد نوري بك وميخائيليس في القرية نفسها، الأول "بك" له كل شيء، والآخر رعية أدنى من كلب، الأول يعيش في قصر ضخم ذي تحف ونافورات وشبابيك خشبية ذات درف شبكية، يأكل ويشرب ويملك أجمل النساء والخيول الأصيلة، والثاني يعيش حياة الرعية.

ولم يكن يعذب نوري بك سوى أمينة الجميلة التي تمردت عليه، وثأره الذي ينتظره، ويوم تحين الساعة.. ساعة الانتقام يتوجه نوري بك إلى منزل "مانوساكاس" شقيق الكابتن ميخائيليس الذي اعتبره أهان تركيا وعليه أن يدفع الثمن. ويبلغ ثأره بقتل "مانوساكاس" ولكنه يفقد ذكورته من طعنة وجهها له القاتل قبل موته في مكان حساس.

وتكون نهاية نوري بك مأساوية ولكنها تلبي بفارس من طرازه:
" . أيتها الدنيا الخائنة وداعاً..

ثم أخرج خنجره ذا المقبض الأسود، ورفع في الهواء غالياً وبكل ما تبقى في جسده من قوة.. غرسه في قلبه.." (17)

" مولانا " :

أو أفندينا كما ينادونه، وربما لقبوه "روث الخيل" وهو رجل وسط في العمر بلحية شقراء متماسكة، وعينين براقيتين وحشيتين، مستديرتين كالبيض ورأس تحتويها لفائف عمامة تركية، عريضة بيضاء، تركت أذناه فيها علامتين لأنها لا تكاد تفارق رأسه حتى يكون على أهبة الاستعداد لدخول الجنة متى دعي إلى ذلك، وقد حجج إلى "مكة" منذ سنوات، ومنذ تلك الأيام المقدسة ونتيجة للحج والعطش والفرع خولط عقله، وعاد ليصبح درويشاً في إحدى التكايا التي كانت لأحد أسلافه، وقد قام بتعليم الأطفال الأتراك القراءة والكتابة زمناً حتى كان يوم شج رأس

ابن أخت نوري بك فكان في ذلك نهاية المدرسة.

ومولانا شخصية بسيطة ومحبة، عرضها الكاتب بحب ممزوج بسخرية خفيفة وذلك أن شخصية الدرويش عند كازنتزاكيس شخصية أليفة، محبوبة، صادقة في نياتها.

"وعندما يقرصه الجوع، كان يجري نحو وسط الفناء من أقصاه إلى أقصاه في هياج وقد تصبب عرقه وليس فوق جسده سوى سرواله الواسع والعمامة فوق رأسه.. وكان الجيران يتجمعون لمشاهدته من خلال النافذة التي تطل على الشارع، بعضهم يضحك، والآخرون يحسون بالرتاء والأسف من أجله ويقولون له "بحق الله.. ماذا دهاك يا أفندينا؟.." فكان يصيح فيهم على الفور "ثمة لهيب بداخلي أيها الجيران.." (18)

وقد كان الكاتب ميخائيليس يدعو "أفندينا" في كل مرة يعدّ جلسة الشراب فقد كان يحب أن يكون فيها عنصر تركي لا يخشى جانبه، أما "أفندينا" فيتلقى الدعوة بخوف ولهفة فهو يتحرق إلى تلك الوليمة:

"وطوال العام كله.. كان "أفندينا" يتحرق شوقاً إلى لحم الخنزير والسجق والخمر.. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير، ولا أن يرفع بصره إلى عيني امرأة، ولو أن ذلك حدث لأصاب الرعشة جسده.." (19)

ودعوة الكاتب ميخائيليس هي المتعة الثمينة في حياة "أفندينا" يستعد لها بكل كيانه وروحه فهي المناسبة التي يمّون فيها جسده الهزيل بالطعام والشراب، ولكن لا بدّ له قبل كل شيء من فتوى يبدو فيها الأمر وكأنه مجبر على إتيان المنكر هذا، لذا تراه يطلب من الكاتب ميخائيليس:

"بحق ما أؤمن به يا كاتب "ميخائيليس" هددني، ضع سكيناً فوق عنقي وصح في وجهي.. التهم لحم الخنزير وعبّ من هذه الخمرة أو أقتلك أجبرني على ذلك يا كاتب ميخائيليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة" (20)

تلك هي الخطوط العريضة لشخصية مولانا كما عرضها الكاتب، شخصية ساذجة، مسالمة، بائسة وطريفة بأن واحد، وأطرف ما فيها قيامها بسرقة الزيت من قنديل الجد الولي في التكية لتملأ به قنديل القديس ميناس.

علي آغا :

تركي عجوز، أصلع يرتدي أسماً بالية، وهو خصي، مسالم وعفيف النفس جار للكاتب ميخائيليس، يعيش على ما يقدمه له الجيران وخاصة النساء اليونانيات من أطعمة زائدة اللواتي يجدن فيه شخصية أنيسة ولطيفة لا تحمل شراً لأحد. ودائماً يتصنع الشبع متحدثاً عن أطعمة شهية تناولها أو سوف يتناولها وهي تنتظره.

الباشا - حاكم ميغالوكاسترو :

رجل مسن، قوي البنية، شهواني، كثير التأفف والضيق، يرى أن صحته ليست على ما يرام، كما يحس أنه يطعن في السن، فيلعن هذه الشيخوخة التي منعتها من ممارسات تليق بلقب الباشا:

”أي باشا أنا إذن؟ هذه الشيخوخة الملعونة!.. كم كان لي من أوقات حلوة في أماكن يونانية أخرى حيث تعودت أن أبعث بجلادي ومعه تفاحة ملفوفة في قماش هدية للعروس، ورصاصة هدية للعريس، ليخبرهما أن الخيار بأيديهم، فكيف كان بمقدورهما إذن أن يختارا الرصاصة؟ كانا دائماً يختارا التفاحة، وكانت العروس تنجيء عندي غارقة في دموعها في ثياب الزفاف، وكانت تقاومني وتصارعني كما أحب في النساء دائماً ثم لا تلبث أن تجلس فوق ركبتني، ولكنني الآن أصبحت عجوزاً الدولة أيضاً أصبحت عجوزاً..“ (21)

وإحساس الباشا بالشيخوخة يوازيه إحساسه بعجز الدولة التي شاخت وأصاب قابها العطب، لذا كان لا يذهب بعيداً في رغباته، ويستخدم المساية والمكر واللين أحياناً للوصول إلى ما يريد، وهو لا يرى في رعيته من الأتراك واليونانيين أكثر من كلاب وقطط تتصارع وتقلق راحته الثمينة، ومعادلة الحكم عنده بسيطة جداً وتترك الفرصة للجميع أن يعيشوا بسلام.

”وقال الأناضولي الطيب:

- نعم لعل الأمر ما تقول يا أفندينا المطران، وأقسم بالشمس التي تضيء فوقنا أنه يمكن للمسيحيين وللأتراك أن يعيشوا كالأخوة.. اليونانيون يعملون، والأتراك يأكلون، والاثنتان معاً يعيشان عيشة سعيدة..“ (22)

وككل باشا كان مغرمًا بالهدايا والتحف، وهذا هو الطريق لإقناعه، والوسيلة المجدية لكسب وده وقلبه الذي يفرح لمراى تحفه الثمينة وقد فعل ذلك معه المطران العارف به جيداً:

”أنت خبير يا أفندينا الباشا وتعرف الكثير عن التحف، وهذا الصندوق من روائع مدينة ”جانيتا“ على جانب منه نسر ذو رأسين وعلى الجانب الآخر هلال محفور بفن رفيع، وكأنما يرمز إلى نفس ما تعمل أنت لأجله المسلمون والمسيحيون يعيشون معاً أخوة، ولأنني أعلم ما بقلبك فقد أردت من زمن أن أقدم هذا الصندوق هدية لك، وها قد جاء الوقت.. وعسى أن يمنحك الحظ السعيد.

ثم وضع الصندوق الفضي في راحة يد الباشا الممدودة...“ (23)

ما بقي بعد ذلك من شخصيات.. أغوات ورجال دين وأثرياء من ملاك الأراضي وشبان..

المسيح يصلب من جديد⁽²⁴⁾

بقدر ما في رواية "الحرية والموت" عند كازنتزاكيس من إثارة وتشويق وأجواء تركية عابقة بالأشكال والروائح والأفعال من أغوات وباشوات وبكوات، ورجال دين: الدرويش والمؤذن، ومن أمكنة: الحلي والتكية والجامع والمقهى والقصور التي تفوح منها رائحة المسك والرضا والنسوان الغاضبات أو الراضيات أو الحزينات ومواويل أمان.. أمان.

على عكس من كل ذلك نجد في رواية "المسيح يصلب من جديد" جواً طقسياً، يعبق برائحة يونانية أو كريتية ويمتلىء بأصوات القسس والرهبان التي لا يحبها الكاتب، وصدى الأسطورة والتراث الديني الذي يظل مسكوناً به مثل بدوي في صحرائه ومفتاح كل ذلك قيامة المسيح... نعم لقد قام المسيح..

والمسيح عند كازنتزاكيس يرتبط مع كريت برابط لا ينقسم، إنه رباط الألم والصلب، من هنا أخذ حيزاً كبيراً في كتاباته، ورمزاً دائماً.

"كان المسيح وكانت كريت يمتزجان معاً داخل قلوبهم، فالألمها واحدة، اليهود صلبوا المسيح، والأتراك صلبوا كريت، وكان الكريتيون يحسّون في أعماقهم كيف كانت آلام المسيح تعظم يوماً بعد يوم وهم يحسون بالضعف أكثر وأكثر من شدة ما يعانونه من الصلاة والصوم حتى بدأ ينمو في قلوبهم اتهام غاضب يبحث لنفسه عن مخرج بالقوة.. كانوا يتطلعون إلى الأتراك بوحشية وكانوا يمنعون أنفسهم بصعوبة بالغة من ضرب اليهود.." ⁽²⁵⁾

هذا الرمز الذي نراه في الرواية يظهر الكاتب عالمياً بقدر ما هو محلي، أسطورياً بقدر ما هو واقعي، إنسانياً بقدر ما هو كريتي تفوح منه رائحة ذلك الجنس الخالد، الجنس اليوناني، متفائلاً بقدر ما هو متشائم ويائس، ورواية "المسيح يصلب من جديد":

"رواية من نوع القصص السيكلوجية الاجتماعية، وهي عمل فني فذ، سطرها قلم راسخ متمكن، فيها رقة فنية، وقوة حيوية نشطة، ولمسة شعرية في صوغها وتصويرها المرهف لآلام المسيح، وهي صورة ملحمية لصراع الإنسان على طول التاريخ من أجل حياة أسمى، وهي أمل إنساني قوي عارم يعتمل في صدر كل إنسان،.. ولكن وهنا

تتجلى مسحة التشاؤم إذ يختمها كازنتزاكيس بقوله: لا جدوى يا يسوع". (26)

والرواية كما قلنا لا تظهر فيها سوى شخصية "الآغا" غريبة عن المحيط ولكنها لازمة فأحداثها التي تدور في قرية "ليكوفريس" تمضي في مسارها المرسوم الذي أراده الكاتب. ولا يعيننا من كل ذلك سوى "الآغا" تلك الشخصية التي تحمل خصائص جنسها النفسية وطبائعها وغرائزها.

يبدأ الكاتب الفصل الأول بعنوان مثير هو "البحث عن يهوذا". ثم يقدم لنا على الفور صورة "الآغا" كما يمكن لرجل يحمل مثل هذا اللقب ويعيش حياته المقررة وعوالمه التي يصنعها في جو غريب عنه، إنه يجلس في تلك اللحظة في شرفته المطلة على ميدان القرية، يدخل النارجيلة، ويحتسي العرق الذي أشاع في جسده الدفء وعن يمينه تابعه وحارسه الخاص حسين وقد أمسك بيديه بوقاً وهو عملاق شرقي خبيث وأحول، وعن يسار الآغا تربع غلام تركي وسيم في خديه غمازتان، يمد يديه بين الحين والحين ليشعل النارجيلة أو يصب العرق.

"أغمض الآغا عينيه الثقلتين نصف إغماضة، مستشعراً لذة الحياة في هذا العالم الممتد تحت قدميه، وجال في نفسه خاطر يقول: "صنع الله كل شيء فأبدع صنعه، وأن الحياة لفي غاية التمام والكمال" هل أنت جوعان؟ هناك الخبز واللحم المفروم بالصلصة وطاجن الأرز بالقرفة. هل أنت عطشان؟ هاك العرق اكسير الشباب. هل بك رغبة إلى النوم؟ الله خلق النوم وليس كمثله شيء حين يغالبك النعاس. وإذا كنت غاضباً فقد خلق الله السوط وأعجاز الرعايا، وإذا أصابك اكتئاب فقد خلق الله أغاني آمان.. آمان فإذا شئت بعد ذلك أن تنسى أحزان هذه الدنيا وهمومها فقد خلق الله يوسف فاكسي..." (27)

هكذا كان الآغا يستسلم إلى عالمه الذي خلق كما يشتهي ويرغب، وفيه كل الطيبات فمخازنه امتلأت بهدايا رعاياه في عيد القيامة: جبن وفطير بالسمن وكعك وبيض أحمر وأحضر أحدهم صندوقاً من لبان هدية ليوسف فاكسي يمضغه فيعطر فمه الصغير.

ولكي تكتمل سعادة الآغا طلب إلى غلامه الجميل أن يغنيه "دنيا تاير، رؤيا تاير.. آمان.. آمان آمان" ثم أغمض عينيه مسلوب اللب.. والقرية تستعد للاحتفال بعيد القيامة الذي استمر أسبوعاً.

* * *

ولأن الأيام لا تدوم على حال.

فذات صباح جميل طلع على الناس خبر مروع، هز القرية، وزرع الخوف في النفوس: لقد وجد يوسف فاكسي مقتولاً في مخدعه عند الفجر، وهذا معناه هلاك القرية ودمارها، إذا كان القاتل من أهلها، وقد جنّ جنون الآغا:

"- الآغا يجول بناظره بين البيوت، يلوح بمسدسه ويطلق النار على كل ما تبصره عينه، ويحطم كل ما تصل إليه يده في بيته، المقاعد، ودمجانات العرق والجرار ثم

يلقي بنفسه فوق جثة يوسفافي وينخرط في نواح وعويل هذا ما أنبأني به مارثا
العجوز..”(28)

ثم دعا بعد ذلك أعيان القرية إلى اجتماع في منزله، ولم يعد رعاياه في نظره سوى جماعة من
القتلة الكفار، الذين أهدروا دم حبيبه الغالي.. يوسفافي ففقدت الدنيا بهجتها في نظره. ولوح
بالعقوبات التي أعدها لكل فرد منهم:

فالقس جريجوريوس سوف ينتف شعر لحيته شعرة شعرة ويضعه على خازوق، أما الشيخ
بطرياركاس فسوف يقطعه بسكين صدى، قطعة قطعة ولمدة أسبوع كامل ليمتع يديه منه، وسوف
يشعل النار في القرية كلها..
”وعوى الآغا:

.. آه .. آه .. سأقيم جنازاً ملوكياً لحبيبي يوسفافي، سأبعث في طلب مقرئين من
اسطمبول ليرتلوا له القرآن، وسأشتري له شموعاً من سميرنا وتابوتاً مصنوعاً من
خشب السرو ليكون عطر الرائحة، وأنا بحاجة إلى مال وفير لأوفي به كل هذه
الطلبات...”(29)

وانهال بسوطه على الرعايا الموجودين يجلددهم على الوجه واليدين والصدر وهو يعوي من
الحزن والألم، ثم أمر بسجنهم وظل مع جثة الغلام القليل وحارسه الأحول ”حسين“ يعاني ما
يعانيه سيده، لأنه مصاب بالداء نفسه:

”وأحياناً يجد الآغا وقد مال فوق الجسد البارد لغلامه، وراح في إغفاءة من أثر
الحزن وشدة السكر.. فينحني هو الآخر فوق يوسفافي ويقبل فمه قبلة حارة شهوانية
ويعض بحرقة شفتيه المكتنزتين اللتين علاهما الشحوب..”(30)

وتتوالى الأحداث ويتقدم مانولي معلناً أمام الجميع أنه قاتل يوسفافي ليخلص القرية من شرور
الآغا، فلا يصدقه ومع ذلك انتظر، وخلال ذلك جاءت الأملة مدّعية بأنها القتالة وفي لحظة
غضب قتلها، ووضع السكين الملوثة بالدم بين الزهور فوق جثة يوسفافي.

ويأمر الآغا بشنق ”مانولي“ لكن العجوز مارثا.. تكشف سرّ الجريمة حين تعثر على ثياب
حارس الآغا الخاص حسين الملوثة بالدماء.. دماء يوسفافي.. هنا يأمر الآغا الجميع بالرحيل
ويبقى مع حارسه القاتل وحيداً تحت الشجرة:
”وزأر الآغا من جديد:

.. قف.

وتوقف الحارس، انقض عليه الآغا، ومزق عنه سرواله وأمسك بعضوه وبتره بضربة
واحدة من سيفه وطوح به فوق جثة يوسفافي وسط أزهار الياسمين، وهنا نادت عن
الحارس صرخة مروعة خرّ بعدها إلى الأرض.. أمسك الآغا بعنقه ورفع وأقعده فوق

الكرسي، ووضع الحبل حول رقبته وركل الكرسي، وتأرجح الحارس في الهواء بعد أن تقطعت أشلاؤه في وحشية والدم يغطي جسده..”⁽³¹⁾

* * *

وتعاود القرية بعد محنة يوسف اكي حياتها اليومية.. ولكن ماذا عن الآغا المفجوع وقد ترمّل؟! لا بدّ له من عزاء وبديل، والعزاء كان فتى تركياً جديداً جاء به من ”سميرنا” إنه براهيم اكي: “عندما وقع نظر الآغا على براهيم اكي شغف به حباً، فدنا منه، وراوده عن نفسه، وساوم الغلام، ثم اتفقا في نهاية الأمر، واشترى الآغا للغلام مهراً كستنائياً، وحلة جديدة من فاخر الثياب، وساعة فضية ذات سلسلة، وزجاجة مسك، وكيساً به باقة من زهور القرنفل والقرفة، وأخذ بعد ذلك إلى الحمام حيث استحجم هناك، ومزج ماء الحمام بزيت عطري، ثم اصطحبه إلى حلاق ليقص شعره، وأخيراً أسلمه إلى يد واحد من أصدقائه القدامى، وهو شيخ تركي يعمل (خوجة) ليعلمه بعض الحيل...”⁽³²⁾

ولأن براهيم اكي مهر صغير يحتاج إلى الترويض، فقد ضاق الآغا في البداية بطلباته التي لم يكن سابقه يطلبها، فهو يريد أن تكون له امرأة، وأن ترقص له فتيات القرية ومع مرور الوقت أصابه النحول وأصبح أكثر طواعية للآغا، يشعل الغليون ويملأ الكأس بالعرق. عند هذه الحدود تنتهي طموحات آغا ليكوفريسي.. وما يجري بعد ذلك لا علاقة له به.. فهو عبارة عن دعاية..

(1) - الطريق إلى غريكو - مذكرات كازنتراكيس - ترجمة ممدوح عدوان - نشر دار ابن رشد بيروت 1980 ج 1 - ج 2.

(2) - المصدر نفسه - ج 1 ص 29.

(3) - المصدر نفسه ج 1 ص 29.

(4) - المصدر نفسه ج 1 ص 45.

(5) - المصدر نفسه ج 2 ص 190.

(6) - المصدر نفسه ج 1 ص 67.

(7) - المصدر نفسه ج 1 ص 80.

(8) - المصدر نفسه ج 1 ص 85.

(9) - المصدر نفسه ج 1 ص 86.

(10) - المصدر نفسه ج 1 ص 143.

(11) - المصدر نفسه ج 1 ص 152.

(12) - المصدر نفسه ج 2 ص 154.

- (13) - المصدر نفسه ج 1 ص 155.
- (14) - الحرية والموت: كازنتزاكيس - رواية - ترجمة سعد زغلول نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1976 - سلسلة البنايع.
- (15) - المصدر نفسه ص 12.
- (16) - الطريق إلى غريكو ج 1 ص 80.
- (17) - الحرية والموت ص 150.
- (18) - المصدر نفسه ص 59.
- (19) - المصدر نفسه ص 59.
- (20) - المصدر نفسه ص 59.
- (21) - المصدر نفسه ص 73.
- (22) - المصدر نفسه ص 103.
- (23) - المصدر نفسه ص 104.
- (24) - المسيح يصلب من جديد - كازنتزاكيس - رواية - ترجمة شوقي جلال دار الكاتب المصري - القاهرة 1970.
- (25) - الحرية والموت - ص 107.
- (26) - المسيح يصلب من جديد ص 7.
- (27) - المسيح يصلب من جديد ص 11.
- (28) - المصدر نفسه ص 246.
- (29) - المصدر نفسه ص 253.
- (30) - المصدر نفسه ص 257.
- (31) - المصدر نفسه ص 303.
- (32) - المصدر نفسه ص 401.

إيفو أندريتش.

وتجليات الصورة عنده.

جسر على نهر الدرينا⁽¹⁾

يعد إيفو أندريتش من ألمع الأسماء الأدبية ليس في موطنه فحسب وإنما في العالم وعمله الأشهر "جسر على نهر الدرينا" الذي ظهر عام 1945م يعتبر علامة بارزة، وملحمة إنسانية رائعة، توالى فصولها على مدى قرون والجسر حاضر، وشاهد على تلك الأزمنة والتحويلات الهامة في مسيرة شعوب تلك المنطقة.

وتعدّ هذه الرواية من أغنى الأعمال الأدبية بالشخصيات وتنوعها وتفردها من كل السلالات والعروق والديانات:

"ونجد فيها تاريخ البوسنة منذ الاحتلال التركي لها، بمن فيها من سلاف مسلمين وضرب أرثوذكس وكروات كاثوليك، وأتراك وrehبان فرنسيسكان ويهود وغجر وطيان ومهاجرين.." ⁽²⁾

وصورة التركي لا يضارعها في التعدد وتنوع الأشكال والألوان سوى عمل كانزنتزاكيس في "الحرية والموت" ⁽³⁾ وسوف نعتبر الشخصية "المستتركة" من ضمن تجليات الصورة عند كاتبنا، فأصحابها قد اختاروا الجانب التركي للحفاظ على مكاسبهم ومناصبهم إذ كانوا من الطبقة النبيلة على الأغلب لذا لم تمس امتيازاتهم من قبل السلطة الحاكمة بل اتخذوا مواقع في هذه السلطة ومراكز حساسة:

"مع استقرار الاستعمار العثماني، استوطنتها بعض الأتراك وأسلم بعض النبلاء والأهالي، أو كما يقال وقتها "تركوا" أي صاروا مسلمين مثل الأتراك، وفاز بعضهم بامتيازات وظيفية وبعض الثروة مما أثار أحقاد الآخرين.." ⁽⁴⁾

والرواية تبدأ بحكاية فيها الكثير من الذاكرة الشفوية والثيقة والخرافي السحري والفن العالي، حكاية بناء الجسر التي دأبت مخيلة طفل في العاشرة من عمره من قرية مجاورة هي قرية سوكلوفتش في ذات صباح من عام 1516 بينما كان يرمّ بهذا المكان مسوقاً إلى المدينة البعيدة البراقة الخفيفة استانبول. كان مسوقاً مع غيره بناء على ضريبة الدم

”أما ضريبة الدم فتعترف عليها من كتب التاريخ، فبعد تكرار تمرد الجيش التركي واغتياله لعدد من السلاطين، فكروا في إنشاء الجيش الامبراطوري من غير الأتراك لتجنب الانقلابات، وكان رأيهم أن شبان البلقان أكثر شجاعة وصموداً في القتال من العرب، فأقروا قانون ضريبة الدم وهو أخذ طفل عنوة من كل أسرة بلقانية لها أكثر من ثلاثة أطفال، يأخذون هذا الطفل ويرحلونه إلى اسطنبول ويودعونه لدى أسرة تركية تتولى تنشئته نشأة إسلامية عسكرية فيشب ويكبر وهو يجهل تماماً أصله وموطنه فلا يدين بالولاء إلا للقوم الذين ربوه..“⁽⁵⁾

هذا الطفل يصبح في المستقبل ضابطاً كبيراً ووزيراً خطيراً في بلاط السلطان اسمه ”محمد باشا سوكونلي“ فيأمر ببناء الجسر وسط عنت وظلم القائمين على الأمر. وتتوالى الأحداث ويدفع الباشا نفسه حياته على يد مجنون.. أما تجليات الصورة التركية أو المستركة فتظهر وتغيب مع كل مرحلة من المراحل التاريخية التي يمز بها العمل.. وهي صورة كما قلنا حافلة بالخطوط والألوان القاسية.

الخازوق :

واحدة من أبشع تجليات الصورة التركية، تكشف عن نزوع إجرامي فريد ولذة سادية لم يعرفها العقل البشري خلال بحثه عن أفضل الطرق لقتل الأعداء، أو الخصوم، وقد عرضها الكاتب بصورة تنير القشعريرة في النفس، فالرجل التعس راديسلاف ألقى عليه القبض وهو يحاول تخريب الأعمال الجارية في بناء الجسر، فأمر عابد آغا أن تنزل به عقوبة الموت بالخوزقة.

وتبدأ إجراءات الإعدام أمام حشد الناس الذين تجمعوا لكن المشهد بلغ من الفظاعة في النهاية ما جعلهم يشيحون بوجوههم جميعاً، فلقد أمر الرجل بأن يستلقي بينما اقترب الغجريان منه وأخذاً ينضوان عنه فروته وقميصه وشدت يده إلى ظهره أولاً وربطت كل ساق من ساقيه بحبل وأخذ كل منهما يشد الحبل إلى جهته فتباعد الساقان مسافة كبيرة، بينما كان مرجان يضع الخازوق على قطعتين قصيرتين من الخشب بحيث يصبح رأس الخازوق بين ساقَي الفلاح، ثم أخرج مرجان سكيناً عريضة قصيرة وركع قرب الرجل الممدد ليقطع قماش سرواله وليوسع الفتحة التي سينفذ منها الخازوق إلى الجسم ومن حسن الحظ أن هذا الجزء الرهيب من عمل الجلاد لم يستطع الناس مشاهدته وإنما رأوا الجسم الموثق يرتعش تحت الطعنة السريقة القصيرة، ويرتفع بعض الارتفاع كأنه يريد أن ينهض ولكنه ما لبث أن سقط فجأة فطرق الألواح طرقاتاً أصم حتى إذا فرغ الغجري نهض واثباً

”فتناول مطرقة الخشب من الأرض وأخذ بها الطرف الأدنى المدور من الخازوق طرقاتاً بطيئاً محسوباً، وكان يتوقف بين طريقة وطريقة فينظر أولاً في الجسم الذي ينفذ فيه الخازوق، وينظر ثانياً إلى الغجريين الآخرين فيحضهما على أن يشدا الحبلين شداً ربيعاً بلا هز، وكان جسم الفلاح يتشنج تشنجاً غريزياً وقد تباعد ساقاه، فكلما نزلت

المطرقة بضربة جديدة انحنى عموده الفقري وتقوس، لكن الحبلين يشدان ويعيدانه إلى وضعه..”(6)

ويتتابع المشهد بكل ما فيه من قسوة وبشاعة، ولأن مرجان أمر ألا ينفذ الخازوق من القلب فتموت الضحية سريعاً، لذلك كان حريصاً على ذلك ليطول عذاب الفلاح المسكين.

”لقد أدخل الخازوق في الرجل كما يدخل السيخ في الخاروف لا فرق بين الأمرين إلا في أن الخازوق لم يخرج من الفم، بل خرج من الظهر كما أنه لم يصب الأمعاء ولا القلب ولا الرئتين بكبير أذى، وعندئذ رمى مرجان المطرقة واقترّب، ففحص الجسد الساكن ودار حول الدم الذي يتساقط قطرة قطرة من موضعي دخول الخازوق وخروجه ويتجمع بركاً صغيرة على ألواح الخشب..”(7)

تلك هي الصورة التي رسمها لنا الكاتب، وهي صورة بشعة وقذرة وغير إنسانية بالتأكيد لا يمكن أن يلجأ إليها شخص سوي أو عاقل، إنها تنتهي السادية.

عابد آغا :

الرجل الذي اعتمد عليه الوزير في بناء الجسر، رجل قوي البنية، أخضر العينين، على وجهه حمرة من مرض، وله لحية قصيرة شقراء وشاربان صفّفاً تصفيفاً غريباً على طريقة أهل الجعر، دموي المزاج، عنيف السلوك، مستبد برأيه واجه الجميع بقوله:

”لا شك إن إشاعات عني قد وصلتكم قبل أن أصل. وإنني لأعرف أن هذه الإشاعات ليست بالجميلة، ولا بالسارة لعلكم سمعتم من يقول عني إنني أطلب العمل والطاعة من كل فرد، وإنني أضرب وأقتل كل من لا يعمل كما ينبغي أن يعمل، أو لا يطيع طاعة عمياء بلا جواب وإنني لا أفهم معنى كلمة ”لا يمكن“ و”لا يوجد“ وإنني أطيح بالرأس بسبب كلمة أي إنني بإيجاز ”رجل متعطش للماء شري..”(8)

وكان كل شيء يجري بمراقبته، وتحت تهديد عصاه الطويلة الخضراء التي صارت موضوع أغنية شعبية لأن من يشير إليه عابد آغا بهذه العصا كان الحرس يقبضون عليه فوراً ويجلد حتى يغمى عليه، ثم يغطس في الماء ويعود إلى العمل.

استغل السكان ثلاث سنوات في أعمال بناء الجسر دون أن يدفع لهم شيئاً وكانت أوضاع العاملين غاية في السوء

”ففي زريبة واسعة جافة كان هناك نار متقدة في وسطها، أو قل نار أوشك انقادها أن ينتهي، إذ لم يبق إلا أصوات في الغرفة التي تشبه أن تكون مظلمة. إن المكان كله مليء بالدخان وبرائحة ثقيلة حادة هي رائحة الثياب المبللة والأجساد التي يقارب عددها الثلاثين، إنهم جميعاً رجال مسخرون، فلاحون من القرى المجاورة، أناس فقراء، مسيحيون عبيد، إنهم جميعاً وسخون، مبللون، منهوكون مهمومون..”(9)

وعابد آغا هو الذي أمر بإعدام الفلاح البائس راديسلاف على الخازوق، وقد كان يثير الرعب والخوف حيثما حلّ. حين انكشف أمره للوزير الأكبر أمر بإعفائه من العمل بعد أن استرد منه الأموال التي سرقها من جهد وتعب العمال الفقراء الذي عملوا بدون مقابل.

عارف بك :

رجل يختلف كل الاختلاف عن عابد آغا، عظيم طول الساقين، محدودب الظهر قليلاً، بارز الخدين، له عينان مزموتان، سوداوان ضاحكتان، لقيه الشعب "الجد" لوداعته، كان لا يصرخ ولا يحمل عصا، ولا يلفظ كلمات ضخمة ولا يذلل جهداً ظاهراً، وإنما يصدر الأوامر ويوزع الأعمال من عليائه ضاحكاً غير مهموم ولكن ما من شيء يفوته أو يغيب عنه، وهو رجل هادئ، سليم، شريف، ألغى السخرة مباشرة وتابع أعمال البناء بهمة وحماسة أشاعهما حوله.

داود خيجا :

مدير أملاك الوقف، فعل كل ما في وسعه لينقذ النزل، فأنفق من ماله الخاص عليه ثم استدان من أقاربه، وهو حكيم تقي، عنيد صلب، ظل يصارع الخراب الزاحف على النزل دون هواده، حتى مات.

صولي آغا عثمان آغتش :

واحد من أغنى أترك المدينة يملك جواداً عربياً أصيلاً وغالي الثمن، وحين أخذت مياه نهر درينا المحجوزة ترتفع بدأ الحصان بالصهيل حتى أيقظ كل أهل المنزل فأخرجوه وخرجوا قبل أن يدهمهم الماء. رجل عاقل متوازن.

عبد آغا عثمان آغتش وابنته فاطمة:

من عائلة عثمان آغتش المعروفة، رجل مشهور ومحترم في المدينة وهو باسل شديد البأس في حياته وفي أعماله، له مستودع في حي السوق لبيع الجملة، وهو فارغ القامة، مهيب الطلعة، أحمر الوجه لكن لحيته بيضاء تماماً وكذلك شارباه وله صوت أجش مخنوق، لأنه مصاب بربو شديد الوطأة منذ سنوات، وهو معروف في المدينة، بأنه رجل ذو سنّ قاطعة، ويد مبسوطة وقلب جريء، كما أنه مطاع في السوق يأخذ الناس بأرائه ويحبون حديثه لما فيه من صراحة وحماسة وحمية.

لعبد آغا خمسة أبناء متزوجون وابنة وحيدة هي آخر من أنجب، ولها حظ رائع من الجمال. هناك أغنية يردددها الناس عنها :

يا فاطمة ، بنت عبد آغا..

يا ذات النهى والجمال..

وقد قام حول فاطمة هذه سياجاً من الإعجاب والبغض والحسد والرغبات الصامتة والانتظار الخبيث بسبب رفضها للخاطبين الذين تقدموا إليها، وكأنما كانت فاطمة هذه على موعد مع قدرها، وهكذا كان: فنائل بك بن مصطفى بك حمزتش الوحيد كان من أوائل الذين تطلعوا إلى

فاطمة، وشغفه جمالها، فتقدم أبوه يطلبها وكان له ما أراد، ولكن الأمر انتهى بمأساة، ألقت فاطمة نفسها في النهر، واختنق عبد آغا بالسعال.

الأناضولي خير الدين :

جندي يعمل جلادا وهو رجل من الأناضول، ثخين أسمر، أصفر العينين معتكرهما، له شفتا زنجي، ووجه سمين أغبر، يتسم على الدوام ابتسامة أولئك الناس الذين صفت أمزجتهم وامتلاّت معدهم بطيب الطعام، كان يجد في عمله "لذة وزهواً" ومهما يكن من أمر فقد كان واسع الخبرة والسرعة، حتى قال السكان إن يده أخف من يد موشان حلاق المدينة، والجميع يعرفونه، وفي الأيام المشمسة كان يستلقي في ظل المتراس الخشبي، وينهض من حين إلى حين ليتفقد الرؤوس المعروضة على الخوازيق كما يتفقد البستاني شماماته، ثم يعود فيستلقي على لوحة في الطراوة مثائباً متمطياً ثقيلأً أعمش العينين، طيب المزاج، أشبه بكلب مشعر هرم من كلاب الرعاة..:

"وعند طرف الجسر وراء الجدار، كان يتجمع الأطفال مستطلعين وينظرون على خوف واستحياء ولكن خير الدين كان إذا جاء عمله، خفيف الحركة نشيطاً مجداً مجتهداً، وكان لا يحب أن يتدخل أحد في عمله وهذا التدخل في عمله يزداد بازدياد اشتداد العصيان، فحين أحرق العصاة بعض القرى فوق المدينة أصبح هيجان الأتراك لا يعرف حدوداً، فكانوا لا يكتفون بأن يقبضوا على ثوار وجواسيس أو على أناس يعتقدون أنهم كذلك.." (10)

ومع أن الأناضولي الجلال مات فجأة من الفحم، إلا أن ظلاله ظلت تسكن ذاكرة الناس طويلاً.

سالكو الأعور :

هجين أعور، جاء إلى الدنيا نتيجة علاقة آثمة بين غجرية وضابط أناضولي كان يقوم بخدمته في المدينة، وقد تركه أباه زهداً فيه، قبل أن يولد، وبعد موت أمه شبّ بدون أسرة، فكانت المدينة أسرته، ينتمي إلى الجميع ولا ينتمي إلى أحد، عمله في الدكاكين والبيوت، ينزع أوساخ الحفر والمجاري، يأكل حيشما كان، وينام حيشما وجد المأوى، وهو طيب القلب، حسن المعاشرة، مرح يحب الشراب ويكثر منه، كما يحب المراهنات على الأطعمة.

كان يغنى في خدمة الناس، يخدمهم في النهار جميعاً في كل شؤونهم، وفي الليل يخدم البكوات بتسليةهم حتى شاخ وكبر.. ولكن للأعور غرامياته التي أصبحت مثار حديث واهتمام عند الآخرين، فمن النمسية إلى الحسناء باشا.. التي اختارتها زوجة حاجي عمر ضرة لها بإرادتها لتنجب له ولداً لم تستطع أن تنجبه هي لأنها عاقرة، وذلك ما تمّ، فتزوج حاجي عمر من الجميلة باشا.. ورزق بالولد وعاشت المراتان بوفاق كأم وابنتها.

ذلك الحل السعيد كان سبب آلام الأعور سالكو، مما جعله سلوى المتعطلين في خمارة زاريا

وهم يقضون الليالي الطويلة أمام أقداح الراكيا التي تلهمهم تلفيقات وخيالات فاتنة تؤنس حياتهم الفارغة:

”خلال الليالي التي يقضونها أمام أقداح الراكيا، اختلقوا قصة طويلة عريضة ما ينفكون يروونها. أن أبا الأعور ضابط تركي مجهول لم يره ابنه أبداً، فقالوا إن هذا الضابط قد ترك في الأناضول لابنه غير الشرعي الموجود في فيشيجراد وهو ورثه الوحيد، قد ترك له مساحات كبيرة من الأراضي التي يملكها، ولكن أقرباء له هناك قد حالوا دون نفاذ الوصية ويكفي أن يذهب الأعور بنفسه إلى تلك المدينة الغنية البعيدة مدينة ”بروسه“ حتى يحدد مؤامرات ومكائد أولئك الورثة الكاذبين وحتى يحصل على حقوقه كاملة، فإذا فعل ذلك كان قادراً على أن يشتري كل ما يملكه حاجي عمر من ثراء..“⁽¹¹⁾

والأعور يصدق ولا يصدق هذا الكلام، ولكنه متى سكر صدق كل ذلك ووجد نفسه إنساناً معذباً منذ الولادة دون سبب، وكان مكبي آغا سراج أكثر من يثير الأعور ويريد منه أن ينتحر.. وفيما يشبه المعجزة استطاع الأعور أن يسير على الإفريز الحجري الزلج للجسر، مما عرضه للموت، ولكنه نجا بأعجوبة..

علي خجما متولتش :

من أحفاد داود خجما متولي النزل الحجري، شاب جثم النشاط، باسم الوجه دموي المزاج، صريح وعنيد، قاوم فكرة القيام بمقاومة مسلحة ضد النمساويين كأكثر مسلمي فيشيجراد، لا عن جبن ولكن لأن السلطان قد تخلى عن البوسنة لهم، وهذا الرأي أخرج المفتي الذي أمر أحد خدمه وهو حداد له جسم عملاق وعقل عصفور بأن يسرّ علي خجما من أذنه اليمنى بوتند سنديان بتمي من المتراس القديم محصوراً بين درجتين حجريتين على الكايا بعد أن يوثق يديه.⁽¹²⁾ وقد تم ذلك ولم يخلصه منه سوى جنود الاحتلال. وقد تزوج ثلاث مرات وأنجب أربعة عشر ولداً، وظل بعيداً ومحافظاً لم تؤثر فيه التبدلات التي جاء بها الأجانب وكان ينبجأ إلى حانوته فإذا ضجر أغلق باب الدكان وانزوى في ركن صغير من الحانوت يسميه ”تابوته“ مبتعداً عن العالم الصاخب من حوله.

ملا إبراهيم :

وهو رجل طويل نحيل، معروق له لحية قليلة وشاربان متدليان، من عائلة كبيرة، وصاحب ثروة طيبة ورثها عن أبيه، لكنه بلغ من الإهمال ومن النحول والخلج مبلغاً كبيراً وهو بعينه الزرقاوين كميني طفل أشبه بناسك من السد أو فقير من الفقراء منه برجل هو سليل أسرة عريقة، وهو خجما مدينة فيشيجراد إضافة إلى ذلك كان مصاباً بتأتأة قوية، وقد اشتهر ملا إبراهيم في المدينة وما حولها بسماحة نفسه وكرمه. وكانت رقة الحاشية ودماثة الخلق ورباطة الجأش في شخصه كله فينسى المرء عيوبه الأخرى. وكان المرضى والمحتاجون والمنكوبون يأتون إليه من أبعد القرى،

فأمام بيته دائماً أناس ينتظرونه، يلتمسون الرأي أو المعونة، وهو لا يعطي أحجية غالية الثمن ولا تعاويز أو تمائم شأنه شأن رجال الدين الآخرين. كما كان ملا إبراهيم متسامحاً تجاه الديانات الأخرى وعلاقته مع القس مثالية بل حميمة حين تجمعهما مصالح الرعية أو الجلسات.

حسين أفندي :

مدرس فيشيجراد، رجل أقرب إلى القصر، بدين رغم أنه ما زال شاباً، أنيق الملبس، حسن الهندام، له عينان سوداوان مدورتان ولحية قصيرة سوداء مقصوفة على شكل بيضوي منتظم تحيط بوجه أبيض وردي، وهو رجل متعلم يعرف أموراً كثيرة ويعدّ مثقفاً من المثقفين ولكنه يقدر ثقافته فوق قدرها. يحب أن يتحدث إلى الناس، وفي حديثه تصنع وتكلف، فهو يستعين بإشارات مدروسة، يرفع ذراعيه قليلاً ويجعل يديه في مستوى الذراعين (وهما يبدآن يضاوان طريتان، لهما أظافر وردية، وتظللها غابات كثيفة قصيرة سوداء). وحسين أفندي يملك أكبر مكتبة في المدينة، خزانة محاطة بحديد، مقفلة في عناية مملوءة بكتب أورثه إياها أستاذه عرب خجا الشهير قبل أن يموت. وهو لا يصون كتبه من الغبار فقط بل ومن القراءة فلا يخرجها إلا نادراً.

شمس بك برانكوفتش :

وهو واحد من أغنى بكوات المدينة وأبرز وجوهها، له ستة أبناء تزوج أربعة منهم، كانت بيوتهم تشكل قرية، وكان شمس بك رئيساً غير منازع لهذه العشيرة كلها، وكان رجلاً قاسياً صامتاً، طويل القامة، قد أحنّت السنون ظهره، وكان لا ينزل إلى المدينة بعمامته البيضاء المطرزة بالذهب إلا يوم الجمعة للصلاة في المسجد. ومنذ أول يوم من أيام الاحتلال أصبح لا يتوقف في أي مكان بالمدينة ولا يكلم أحداً، ولا يلقي نظرة حوله، وما من أحد من أولاده يقوم بأي عمل له صلة بالحكم الجديد، وكان أتراك الحي التجاري الذين يتفاعلون مع الوافدين الجدد ويختلطون بهم، كانوا إذا مرّ شمس بك في السوق يحيونه باحترام صامت فيه خوف وإعجاب وقلق ضمير.. وقد ظل الجميع يزورونه كما يزورون ولياً حياً من أولياء الله.. وقد مات في السنة الثالثة من الاحتلال دون مرض.

تلك هي أهم تجليات الصورة صورة التركي عند إيفو أندريتش في روايته الرائعة جسر على نهر الدرينا.. وهي صورة غنية بخطوطها وألوانها وتنوعها.

الفناء الملعون⁽¹³⁾

للمسجن عذاباته التي لا تنسى، وذكرياته الحريفة الحادة التي تظل كندوب في الروح والجسد، من هنا جاءت رواية "الفناء الملعون" لإيفو أندريتش تعبيراً عن تجربته المريرة التي عاشها وليست هي تجربته بالذات.

"وفي آخر الأيام جاءت "الفناء الملعون" ذكرى لتلك الواقعة، حيث تتكرر الأحداث بشكل أكثر تعقيداً، وأقسى قدرية، في سجن ملعون بوطن غريب، كمكان يسوقك إليه قدر شرير سواء أكنت مذنباً أم بريئاً؟ فتتأكد من أنه لا شيء أبشع من الظلم ونرى المجرمين والأبرياء ورجال الدين والعلماء ضمن سور واحد.."⁽¹⁴⁾

وتمتاز السجن بالتنوع الأقوامي ففيها اليهودي حاييم وفيها الأرمني كريكور العجوز وعائلته، وفيها الراهب البلقاني بيتر، إضافة إلى العنصر التركي، والرواية تدور في سجن من السجون التركية حوى كل أشكال العناصر البشرية:

"هنا يتواجد كبار الخارجين على القانون وصغارهم، من فتى سرق عنقود عنب أو تينة من فوق بسطة إلى المحتالين العالمين واللصوص الخطرين، كما يتواجد الأبرياء والمفتري عليهم، المخبولون والضائعون أو الرجال الذين اقتيدوا خطأ من استانبول ومن كل أنحاء البلاد أكثر الموجودين هنا سجناء من مدينة استانبول نفسها نخبة من الحقير إلى الأحقر، أولئك الذين يشترحون في ميناء استانبول ودكاكينها أو أولئك الذين يتسللون إلى أوكارها على أطراف المدينة إنهم محطمو الخزائن ولصوص المحافظ، والمقامرون المحترفون، والمحتالون الكبار والمبتزون أو فقراء يسرقون ويحتالون حتى يعيشوا، وسكارى ورفاق ليل..."⁽¹⁵⁾

عالم غريب، ذلك هو السجن بكل ما يحتويه من بشر وحنثالات أو نخبة لكل منها سلوكها وعاداتها وما يهمنها من كل هؤلاء.. الشخصية التركية التي تبرز قوية مرسومة بألوان حارة وخطوط قاسية على طريقة الكاتب. ومن تجلياتها:

زعيم آغا :

رجل قصير، محني إلى الأمام، ذو منظر مرتعد، يتكلم بهدوء ولكن بثقة وإلهام لمجموعة

الرجال الواقفين حوله كل صباح، وما يقوله دائماً يدور حول نفسه، يقصه كله بنقلات كبيرة ودون توقف:

”في آدابازار تزعمت وتزوجت، أخذت امرأة عاقلة وجيدة، احترمني الناس جيداً، وكانت دكانني لأعمال الدهان الأولى في تلك البلدة.

- ولماذا لم تبق هناك؟

- أخ.. لماذا؟ أفتعني الشيطان فتزوجت ثانية، ومنذ ذلك اليوم انقلب كل شيء رأساً على عقب..”⁽¹⁶⁾

ويضطر زعيم آغا نتيجة لسوء أخلاق زوجته الثانية أن يرحل عن البلدة هارباً يجوب العالم، حتى يصل ”تراييزنت“ وهناك يتزوج من أرملة غنية عاش معها بضعة سنوات في نعيم وعزٍّ ولكنها مرضت وماتت، فانطلق زعيم آغا مرة أخرى في تجواله بأشكال عدة حتى يصل عدد الزوجات ثماني عشرة زوجة.. ثم يضيء صوته في مشاجرة قرية تحدث بين بعض السجناء.

لطيف آغا ”الكراكوز“ :

هو مدير السجن الملقب بكراكوز، وقد أصبح هذا اللقب اسمه الحقيقي والوحيد، كان أبوه معلماً في مدرسة حرية، رجلاً هادئاً محباً للكتب والتفكير، تزوج في سن متأخرة ورزق بهذا الولد فقط، وكان هذا الصبي في بداياته ذكياً، يحب الكتب والموسيقا، والرقص، وبعد سنّ الرابعة عشرة بدأ يتغير، فأصبح شرساً، ضخماً، وبدأت عيناه العسلتان الذكيتان تهتران وكأنهما فوق قدر من الزيت، وترك المدرسة، رافق عازفي المقاهي، ولاعبي الحفّة، والسحرة والمقارمين والسكراري والحشاشين مما عرضه للاعتقال أكثر من مرة يتدخل فيها أبوه لإنقاذه، وفي النهاية وجد مدير الشرطة ”الحل“ الأفضل وهو أن يخدم الفتى في سلك الشرطة، فكان شرطياً استانبولياً جيداً بفضل معرفته بتلك الأوساط المشبوهة من رفاق السوء السابقين حتى بلغ في النهاية منصب مدير السجن.

ومنذ السنة الأولى حينما مات أبوه باع لطيف بيت الأسرة واشترى أرضاً مهجورة قرية من السجن بنى فيها بيتاً جميلاً وسكنه، لذا كان بإمكانه دخول ”الفناء الملعون“ في أية لحظة، وقد عمل منذ البداية من ”الداخل“ وبما أنه ترهل وسمن في سن مبكرة فقد كهل بسرعة، ولم يتهبأ لأحد أن يرى على وجهه ظل ابتسامة أو ضحكة:

”لم يكن في شكل كراكوز أي قدر من الهيبة العثمانية التي كان يتحلى بها المسؤولون حتى ولا بطريقة حديثه أو حركاته، لقد كان في كل حالة ومع كل شخص مشتبّه به يلعب لعبة خاصة من دون حياة أو اعتبار لهذا الشخص أو لنفسه..”⁽¹⁷⁾

وكان بإمكان كراكوز أن يقضي ساعات مع رجل متهم بسرقة أو احتيال أو اغتصاب أو خرق للقانون أو جريمة قتل، يهدر أو يصيح أو يهمس، يمثل دور المغفل أو الرحيم المتفهم، يتصارع مع

المتهم أو يعاقبه حتى يصل إلى هدفه. فبات الجميع يخافونه ويكرهونه معاً. وقد مارس هذا الدور مع الأرمني كريكور وغيره، لكنه كان يكره السجناء السياسيين ولا يرتاح إليهم.

جميل بن طاهر باشا :

شاب "مختلط الدم" من أب تركي، وأم يونانية كانت ملكة جمال ذائعة الصيت تزوجت في مطلع حياتها من يوناني كثير الغنى ثم تزلزلت فتزوجها والد جميل طاهر باشا وسناً. استغراب الجميع من أبناء طائفتها، وكان غنياً يكبرها بسنوات كثيرة، ذا مركز مرموق ومتعلماً، احتل في شبابه مراكز هامة في السلك الدبلوماسي، وقد رزقت منه بولد وبنت ماتت في سنتها الخامسة، أما الطفل فأسموه "جميلاً" وكان جميلاً فعلاً. أحب الرياضة واللهو ثم انكب على المطالعة والكتب وقد توفي أبوه تاركاً له أملاكه الضخمة. أحب فتاة يونانية رفض أبوها زواجه منها لاختلاف الدين، فعاش غربة روحية ووحدة فما يبعده عن اليونانيين كثير وما يربطه بالأترك قليل فعاش حياته مع الكتب منصرفاً إلى دراسة حياة بايزيد الثاني وأخيه "جم" وقد وصل الأمر إلى والي أزمير وهو ضابط مريض بالشك والغباء مما أوقع "جميل" في ورطة اقتيد بسببها إلى السجن بتهمة تهديد أمن الدولة وعانى ما عاناه. وقصة بايزيد وأخيه جم قصة تذكرها كتب التاريخ وهي مثال الأخوة الأعزاء والصراع على السلطة الأبدي.⁽¹⁸⁾

وما بقي من الشخصيات عائم بلا ملامح أو سمات..

المراجع والحواشي

- (1) - جسر على نهر الدرينا - رواية - إيفو أندريتش - ترجمة د. سامي الدروبي - نشر دار النضال - بيروت 1984.
- (2) - أخبار البوسنة في 300 سنة / مجيد طويا - مجلة العربي - عدد تموز 1993.
- (3) - سوف تعتبر المسلمين الأسلاف من الشخصيات المشتركة التي اعتنقت الإسلام وبالتالي أصبحت في صف الأتراك.
- (4) - أخبار البوسنة في 300 سنة / مجيد طويا - مجلة العربي - عدد تموز 1993 وقد فضل الكاتب استخدام تسمية "تتركو".
- (5) - المصدر السابق نفسه.
- (6) - جسر على نهر الدرينا ص 56.
- (7) - المصدر نفسه ص 57.
- (8) - المصدر نفسه ص 30.
- (9) - المصدر نفسه ص 36.
- (10) - المصدر نفسه ص 108 - 109.
- (11) - المصدر نفسه ص 296.
- (12) - راجع ما ورد عند دوستيفسكي في الأخوة كارمازوف ص 505 - 506 من تسمير الأتراك لأذان البلغارين ويبدو أنها طريقة شائعة عندهم مثلها مثل الإعدام على الخازوق.

- (13) - الفناء الملعون - رواية - إيفو أندريتش - ترجمة د. وليد سباعي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1992.
- (14) - من تعريف المترجم بالكاتب والكتاب ص 134.
- (15) - الفناء الملعون ص 13 - 14.
- (16) - المصدر نفسه ص 18.
- (17) - المصدر نفسه ص 29.
- (18) - القصة موجودة كاملة في المختارات آخر الكتاب.

الأخوة كارامازوف^(١)

دوستوفسكي معلم بارز من معالم الرواية العالمية، وحاذق خبير بيواطن النفس الإنسانية وخباياها، وروايته "الأخوة كارامازوف" عالم كامل، ودنيا يختلط فيها الحلم المنحج بالواقع الحقيقي، كل ما يصدر عنه رفيع ومختزل ويملك طاقة من الإحياء بلا حدود، هو الشك، والإلحاد، والإيمان المعتقد، والعين الفاحصة التي ترى ما لا يراه الآخرون.

وفي تجليات الصورة الإنسانية، نلمح لديه صورة التركي، لكنها صورة المجموع وليست صورة المفرد، ولنقل "المفرد بصيغة الجمع"⁽²⁾ والتركي عنده شامل، الغازي، الدامي، الجامح إلى تخليد متأثرة "الذئب الأعبر" أو ما فوق "الإنسان حيوان كاسر" لأن في ذلك ردّ اعتبار للحيوان. فالأترك عند حيوانات، ولكن هذا الحيوان التركي "فنان" في أساليب القتل، فهو يعطي لأصابعه لكي تفعل الفرصة، واللذة، والوقت الكافي، والضحايا اللازمة.

فهو يعرض لنا صورة الجندي الروسي الذي يقع في يد قبيلة تركية، تسلخ جلده حياً لأنه رفض اعتناق دينها، وهذه الصورة تنافي كل ما جاء في الأديان أو الدعاوى المذهبية وتعتبر - إن عبرت - عن ذلك النزوع البربري البدائي لتقديم الضحايا إلى الوثن. والضحايا غالباً من الأسرى.

هذا على الأراضي الروسية، ولكن ماذا في بلغاريا؟ :

"بالمناسبة لقد قصّ علي بلغاري في الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون في بلاده "بلغاريا" إلى أنواع شديدة من القسوة، بغية إرهاب الشعوب السلافية التي يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة..⁽³⁾

فماذا عن هذه الأنواع الشديدة من القسوة التي مارسها الترك والشراكسة لإخماد الثورة في بلغاريا؟..:

إنهم يحرقون القرى، ويذبحون السكان، ويغتصبون النساء "والأطفال" ويستمرّون بعض السجناء من آذانهم بسيّاح، ثم يدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون إليهم في الصباح ليشنقوهم.

إنهم تارة ينتزعون بالخناجر صغاراً من أرحام أمهاتهم وتارة أخرى يرمون رضاعاً إلى فوق ويتلقفونهم بالحراّب على مرأى من أمهاتهم.

”ولقد حفظت ذاكرتي على الخصوص مشهداً وصف لي: أم ترتجف جزءاً وهلماً وفي يديها طفل رضيع، وأترك يحيطون بها، ويتخللون لعبة صغيرة، إنهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه، ويسلونهم ويضحكونه، والطفل سعيد فيها هوذا يضحك وفي تلك اللحظة يصوب إليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشم جمجمة الصبي..“⁽⁴⁾

تلك هي الصورة عند دوستوفسكي وهي موجزة ولكنها بشعة ومرعبة وفنية. يقف أمامها الإنسان مبهوراً ومرتاعاً ليسأل نفسه فجأة وكأنه لا يصدق:
- أومن الممكن أن يصل الأمر بالإنسان إلى كل هذا الفن؟!
نترك السؤال معلقاً.

الهوامش والحواشي :

- (1) - الأخوة كارامازوف - دوستوفسكي - ترجمة د. سامي الدروبي. دار رادوغا - موسكو 1988.
- (2) - بالتأكيد مصطلح نحوي وليس غير ذلك.
- (3) - الأخوة كارامازوف ص 505.
- (4) - المصدر نفسه ص 506.

(i) - بايزيد -

وهي المسرحية السابعة لراسين، مثلت للمرة الأولى على مسرح «الأوتيل دي بورجوني» عام 1672 م. والمسرحية ذات صبغة سياسية مستوحاة من التاريخ العثماني بكل ما فيه من أهواء جامحة وصراعات ضارية وحركة عنيفة مما ترك بصمته ولونه على المسرحية.

«مسرحية سياسية تتخللها ألوان من الحب العفيف والحب العنيف، تظل في صراع دائم إلى أن تنتهي «بمجازرة» بشرية لا عهد لمسرح راسين بمثلها من قبل إلا في مأساة طيبة أولى محاولاته المسرحية...»⁽²⁾

هذا المزاج من العنف والجموح إذن أعطي روحه في المسرحية فطابعه واضح بارز فيها لأنه سمة من سمات الشخصية التركية، وصورة من صورها التي نراها عند عامة الأدباء .

والمسرحية تقوم على ذلك الصراع الدموي الضاري، فالسلطان في صراع مع أحداثه في الخارج حيث تمتد أجنحة امبراطورية العلية، وصراع في الداخل مع الجند والإنكشارية المتمردين المتربصين به ليكون مصيره كمصير غيره من السلاطين الضعفاء الخلع أو الخنق أو السجن. بالإضافة إلى القصة المستمرة دائماً قصة «الأخوة الأعداء»⁽³⁾. التي لا تخلو منها سيرة سلطان من سلاطين آل عثمان.

والمكان الذي تجري فيه الأحداث هو قصر السلطان الذي تفوح منه رائحة الدسائس والمؤامرات والأهواء وهو غائب يقاتل في بغداد أعداءه، وتبدأ المسرحية بتلقي وزير السلطان تقريراً عن أوضاع السلطان وعسكره أمام أسوار بغداد فالتصر قد تأخر ، والإنكشارية ينتظرون

«عثمان: إن نجاح المعركة سيحدد مسلكهم، علينا أن نرقب إما انتصار السلطان عليهم والإبقاء على شهرة أمجادهم الحربية، إنهم لن يخونوا شرف كل هذه السنين. وعلى أي حال فالتصر رهن بمشيئة القدر.

إذا عاونهم مراد على إظهار بطولاتهم فصادفه السعد ودان له النصر في ساحات بغداد فإنك ستراهم خاضعين يحملون إلى القسطنطينية لواء طاعة عمياء دنيئة، أما إذا حدث في المعركة أن أصاب القدر وهو الأقوى سلطة مراد

الناشئة بضربة من ضرباته فلاذ بالفرار فلا يساورنك في أن أفول نجمه سيملؤهم
ضراوة فلا يقنعون بكراهيته...»⁽⁴⁾

وبناء على هذا التقرير يعدّ الوزير لمشروعه التأمري ويحبك خطوطه للانتقام من مراد الذي أقصاه عن قيادة الإنكشارية، فيكون المفتاح لكل ذلك قلب روكسان محظية السلطان وعشيقة التي تتعلق بحب أخيه السجين بايزيد ورسولها إليه «أتاليد» التي تحب بايزيد أيضاً حباً عفيفاً طاهراً، من هنا يبدأ الصراع، صراع الأهواء والأحلام والطموحات بين القلوب والأطماع. وينتهي كل ذلك بمأساة أو أقل مجزرة بشرية. يذهب ضحيتها روكسان على يد أورخان أحد عبيد السلطان ورسوله إليها لإعدام بايزيد، وأتاليد، أما الوزير فيهرب على سفينته التي تنتظره، من هنا نجد راسين يعرض لنا في عمله هذا صورة من صور القصور العثمانية وما يدور فيها: وأهم شخصياته التي رأيناها:

- السلطان مراد :

وهو شخصية حقيقية⁽⁵⁾. يخوض معركة تحدّد مصيره، وتحسم صراعه مع الإنكشارية الذين تمردوا على الدولة، فأصبح يدهم عزل السلطان أو توليته، كما يحمل الخوف القديم لتمرّد أخيه بايزيد عليه لأنه يحمل الدم الملكي نفسه والأطماع نفسها بأن يكون سلطاناً. والسلطان كما يبدو في المسرحية حازماً مهاباً يحاول أن يوطّد دعائم حكمه، لكنه يعاني من عدم وجود وريث يرث الحكم بعده .

- بايزيد:

أخ غير شقيق للسلطان مراد، شجاع وجسور، ويحلم بالسلطان ولكن ذلك مرهون بزواجه من «روكسان» جارية أخيه وعشيقة المفضلة وهنا يبدأ صراعه مع طرفين: أولهما قلبه فهو يحب الفتاة الناعمة «أتاليد» التي عرفها منذ طفولته. وثانيهما : التقاليد السلطانية التي تمنع مثل هذا الزواج

- روكسان: عجباً مولاي! ما هو العائق الخفي الذي يعرقل سعادتنا؟

بايزيد: سيدتي وهل يخفى عليك أن هيبة الحكم.. لماذا لا توفرين عليّ مرارة

الإفصاح؟

روكسان: نعم إني أعلم أن أحد أباطرتكم وهو بايزيد⁽⁶⁾ بعد هزيمته من أحد البرابرة القساة العتاة⁽⁷⁾، رأى زوجته مقيدة إلى عربة هذا المنتصر يجرها خلفه عبر آسيا بأسرها. منذ ذلك الحادث قلما تنازل خلفاؤه بأن يمنحوا نساءهم لقب «الزوجة»⁽⁸⁾ حفاظاً منهم على «الشرف» العثماني، ولكن الحب لا يخضع لتلك القوانين الوهمية ولن أذكر لك أمثلة عادية حين أذكرك بما فعل سليمان⁽⁹⁾..

وقد كانت نهاية بايزيد القتل على يد رسول أخيه «أورخان» لكي يأمن على سلطانه⁽¹⁰⁾

- أتاليد :

فتاة ناعمة وجميلة أحببت بايزيد حباً عفيفاً طاهر وقضت بعد قتله انتحاراً.
ما بقي من شخصيات من عروق مختلطة. حاشية وخدم في القصر.

- الهوامش والحواشي:

- (1)- بايزيد- راسين - مسرحية - دار المعارف بمصر :
- ترجمة بسيم محرم - مراجعة وتقديم : عبد الحميد الدواخلي - فحص : إيليا نعمان حكيم
- (2)- من: مقدمه: عبد الحميد الدواخلي ص 7
- (3)- يذكر سليمان القانوني في قوانينه أن أول دم يشربه السلطان هو دم إخوته وذلك بناء على فتوى «الفتنة أشد من القتل..»
- (4)- هو السلطان الغازي مراد خان الرابع ولاء الإنكشارية بعد عزل عمه مصطفى الأول.
- (5)- شخصية حقيقية وقد قتل فعلاً على يد أخيه .
- (6)- المقصود به بايزيد يلدرم أي الصاعقة .
- (7)- المقصود تيمورلنك الذي قام بأسر بايزيد.
- (8)- معنى ذلك أن السلاطين بعد بايزيد ونتيجة لهذا القانون كانوا أولاداً غير شرعيين.
- (9)- هو سليمان القانوني الذي خالف القانون السابق وتزوج من روكسان محظيته وشاركها الفراش والحكم .
- (10)- إنها عادة شائعة عند السلاطين.

- الحصن - (١)

رواية ذات نفحة قومية تهدف إلى استرجاع الماضي

لا تعيش فيه بالتأكيد، ولكن لتقول للأجيال «هكذا حدث معنا ذات مرة» حين كان علينا أن ندفع «ضريبة الدم»^(٢) وكان دماً أزرق يرفض التهجين أو المطامنة، لذا كان الحكم: السيف وثبات الجنان في ملحمة «ثار الوطن» وطن الأجداد المسلوب، وكان أن أضاء النور تلك الأيام ولكن دون أن يتدنس أو يتلوث لأنه يرفض الاندماج أو روح الخضوع والانصياع. وكان الحدث العظيم:

«في مساء اليوم الرابع من شهر نوفمبر عام 1443 م وفي سهل نيش "NISH" الذي يتصل بأوروبا الوسطى حين كان الجيش العثماني يزحف إلى أوروبا. ويخوض أعنف معركة دموية في ذلك العصر - حينذاك - نفذ القائد الألباني اسكندر مصطحباً حرسه مشروعاً خطط له حيث غادر ميدان القتال في أدق المراحل، يحمل مرسوماً مزوراً باسم السلطان^(٣) كان قد انتزعه بعد أن هدد بالسيف أحد كتبة السلطان^(٤). وذهب ليلاً إلى الحدود الألبانية، وحينئذ عرفت القوات التركية الهزيمة التي ستلحق بها بعد أن فقدت أمهر فادتها»^(٥).

ذلك هو موضوع الرواية، فجورج كاستريوت - اسكندر بك - ابن جان كاستريوت، أمير ألبانيا الشمالية أخذه السلطان مع إخوانه رهينة ليضمن خضوع واطاعة أبيه، ثم قام بضم بلاده بعد أن توفي وقد اختفى الإخوة في ظروف غامضة من القصر، أما اسكندر بك فاستطاع أن يكسب ثقة السلطان ويتدرج إلى مرتبة قائد لامع في سن الثانية والعشرين نظراً لمهاراته.

وتوجهت الحملات العسكرية العثمانية يقودها أشهر القادة والباشوات لقمع تمرد وإعاده «الابن العاق» إلى الطاعة من جديد، وقد أخفق الجميع حتى السلطان محمد الفاتح، وقد اختار الكاتب إحدى هذه الحملات موضوعاً لروايته الرائعة التي تظهر كفاح شعب من أجل الحرية.. فكيف بدت صورة التركي في الرواية؟ وكيف تجلّى عند كاتب جار مثل اسماعيل كاداره:

- طبول الحرب :

«في نهاية فصل الشتاء، وحين غادر رسل السلطان البلاد، عرفنا أنه لا بدّ من الحرب، إذ أنهم لجؤوا إلى مختلف الضغوط لنقل بسيادة حكم السلطان، في البداية لجؤوا إلى الخداع والوعود ثم

حاولوا اتهمنا بالتمرد والجحود والعمل لصالح الفرنجة، وبصورة أوضح لصالح أوروبا وأخيراً أخذوا يهددوننا على نحو صريح، وقالوا: إنهم سيخضعوننا بقوة السلاح (إنكم تثقون كثيراً بأسواركم وإذا لم تقهر تلك الأسوار سوف نحيطكم بحصار آخر من الحديد وسنجبركم على التسليم ونجعلكم ترون كل حصاد حقلاً من السنابل في السماء ومنجلاً في القمر). ثم غادرونا وبعد أسبوعين جاءنا عامل من السلطان في قناع الصديق الزائف مقترحاً علينا وساطته فأخفق هو أيضاً وحينئذ وفي أقل من شهر من الزمان قطع ولاية الأقاليم بأمر من السلطان علاقاتهم واحداً بعد الآخر.

عندئذ تأكدنا أنهم سيأتون وكنا على معرفة أنهم في هذه المرة سوف يجردون حملات تأديبية...»⁽⁶⁾

«وفي صباح 18 حزيران أعلن حرسنا أن غيمة صفراء داكنة تبدو من بعيد .. إنها غبار خيولهم ..»⁽⁷⁾

إذن في 18 حزيران وصلت إلى القلعة طلائع القوات العثمانية فتار غبار غطى الرجال والدروع والرايات والخيول والعربات والجمال.. صورة أولى هي صورة الغازي.. الجيش الفاتح القادم لقهਰ الحرية. أما الصور الأخرى فهي صورة الرجل ..

– طورسون باشا :

قائد الحملة، كان يتساءل طوال مسيرته: أكان إسناد قيادة هذه الحملة إليه من أصدقائه أم من أعدائه؟ من أصدقائه ليبنى مجدداً، أم من أعدائه لتكون نهايته، فالمرء لا يخلو من صديق أو عدو. وقد اصطحب معه بعضاً من نسائه لأنه يعرف أن الحصار سيطول .

وكان يحلم بالعزلة في بلاده، أرض الأناضول الهادئة، وأن يحال على التقاعد قبل مماته، فهو متعب من حياة لم يكن فيها سوى الحملات والحروب. لكن هيهات فهو في نقطة حرجية إما الصعود إلى قمة المجد وإما السقوط الأبدى إلى الحضيض ليترك مكانه بعدها لمئات الشبان الوصوليين وهم يحوكون الدسائس ويهجمون كالوحوش الضارية على الثروات والمجد، إضافة إلى ذلك فهو قائد ماهر، ورجل فظّ الخلق.

قاد عملية الحصار للحصن بشراسة وقوة، ولكن المدافعين وحصنهم ثبتوا له وصمدوا في وجه جيشه ومدافعه وفرسانه :

«اندفعوا غاضبين يتسلقون أسوارنا مطلقين صيحات مرعبة وزمجرات مخيفة وهم يهزون سيوفهم التركية وحراهم ودبابيسهم الحربية وأعلامهم وشاراتهم عازمين على تنفيذ جميع التهديدات التي توعدونا بها مدة أشهر طويلة، كانوا يعتمدون كثيراً على أسلحتهم ولا بد أنهم كانوا يتصورون أن القصص المستمر من مدافعهم العملاقة يكفي في نهاية النهار أن يوقعنا في الفوضى والاضطراب. أو ربما ينتهي بنا إلى الجنون..»⁽⁸⁾

وقد استخدم الباشا كل الحيل الحربية لاختراق الحصن، فأطلق مدافعه وفرسانه وحفر الأنفاق

وقطع الماء، وأرسل الجرذان الملقحة بالأمراض السارية عليهم ومع ذلك لم يسقط وهذا معناه نهاية طورسون باشا، فالهزيمة لا تليق بقائد عسكري كل مجده أن ينتصر، أما الهزيمة فتمنحها أغلى بكثير.. لأنها النهاية والسقوط الأخير. وقد كان ذلك ..

«لبث الباشا في وسط الظلام ثم طلب من خادمه كأساً من الماء، فأثاه بها. قال له أريد أن أنام ، فاخفني الخادم كالطيف، فتح صندوقاً صغيراً وأخرج منه ورقة مطوية، وأفرغ ما تحتويه في كأس الماء ثم أخذ الكأس وأفرغها في جوفه دفعة واحدة، وهو يتصور ما عساها تفعله هذه السحابة الصغيرة من المسحوق عندما تنزل إلى أحشائه...»⁽⁹⁾

- المولى شلبي:

مدون الوقائع وكاتب الأخبار اليومية للحملة، شخصية نمطية، ذات مهمة محددة مثلها مثل السائرين في وكاب القادة اللامعين، فهو ليس أكثر من بوق من الأبواق المسبحة بحمد السلطان ورجاله .

- وهناك آخرون من دراويش وفرسان وشعراء وقادة أشاعوا الموت والدمار وسفكوا الدماء وأحرقوا القرى.. الجيش الغازي..

- يبقى في النهاية «الحريم» غائبات مسلوبات..

الهوامش والحواشي:

(1)- الحصن - رواية- اسماعيل كاداره - ترجمة عبد اللطيف الأرناؤوط - وزارة الثقافة دمشق - 1986 .

(2) ضريبة الدم ما يؤخذ بموجبه من أولاد البلاد المفتوحة - المسيحيين - للعمل في السلك العسكري أو من أبناء الملوك والأمراء كرهائن في القصر لضمان طاعة آبائهم وحفاظهم على العهد .

(3)- السلطان المقصود بذلك هو : مراد خان الثاني .

(4)- القصة كما توردها كتب التاريخ :

في سنة 1443 م حين كان السلطان مشغولاً بحاربة هوناد وملك الصرب الزم اسكندر بك كاتب أول الملك أن يمضي له أمراً بتوجيه إدارة مدينة (آمن حصار) من أعمال ألبانيا له، وأخذ الأمر بعد أن قتل ممضيه خوفاً من إنشاء السرّ، وسار إلى هذا البلد ودخله وفي الحال استدعى إليه رؤساء الأرؤد، وأظهر لهم مشروعه، وهو استخلاص ألبانيا من يد الأتراك فوافقوه، وبالفعل استطاع طردهم من معظم بلاد آبائه وأجداده.. تاريخ الدولة العلية - محمد فريد بك الخامي .

(5) - الحصن ص 5

(6) - المصدر نفسه ص 9

(7) - المصدر نفسه ص 10

(8) - المصدر نفسه ص 107

(9) - المصدر نفسه ص 342 - إنه السم وسيلة القتل الشائعة عند الأتراك.

(١) - رسول الحرية -

مرة أخرى هي الحرية المسلوقة، ومرة أخرى تلد العبودية محررها، ذلك هو موضوع «رسول الحرية» لميرسيا مكديرموت، الرواية الوثيقة التي أرادت أن تؤرخ لبلد آخر عانى ما عاناه غيره من الشعوب المجاورة، من ظلم وقهر وتسلط واستعباد على مدى طويل على يد الأتراك:

«ونحن البلغار - نحن بدورنا عبيد - لقد غزا قطاع الطرق والإنكشاريون الأتراك أرض آبائنا، غير أننا ساعون بدورنا، إلى تحطيم قيودنا لطرد الأتراك السفاحين من أراضينا، والنهوض وبناء معبد الحرية الحقيقية، وإعطاء كل ذي حق حقه ..»⁽²⁾

تلك هي صرخة رسول الحرية «فاسيل ليفسكي» البطل الأسطوري لبلغاريا القرن التاسع عشر، وتلك هي رسالته التي أداها على أكمل وجه وهو يعلن عن نفسه منذ السطور الأولى دون لبس:

«أنا فاسيل ليفسكي، المولود في كارلوفو، المولود «يوناك» من أم بلغارية، لم أشأ أن أكون عبداً للأتراك أو أي سواهم، أو أن أرى شعبي العزيز في مثل هذه المحنة ..»⁽³⁾

إنه ميلاد البطل، المحرر، الملهم، الذي عرف طريقه إلى هدفه بحاسة لا تخطئ أبداً وصورة التركي في النص.. هي الصورة المألوفة للمحتل الفظ، القاسي القلب، المستعبد الذي يصادر الحريات حتى حرية العبادة:

«وطوال قرون مديدة فرض العرق الحاكم حظر بناء الكنائس، فجعل البلغاريون يتعبدون وراء الجدران الشامخة في كنائس محظورة، غارقة في جوف الأرض، مخفية على أشكال بيوت سكنية..»⁽⁴⁾

كما نراه في صورة الإقطاعي الذي يريد أن يغير من الحقائق الثابتة على الأرض. فيطلق أسماء تركية على القرى والإقطاعات كجذور تمد من عمره هناك، وتعطيه الثقة والثبات والاستمرار في وطن غير وطنه وبين شعب غير شعبه.

كان اسم «كارلوفو» ذاته تركياً يخلد ذكرى «كارلو زاد غازي لا لا علي بك»

هذه الذي خلع عليه السلطان بيازيد الثاني الأرض المجاورة له في كرم وأريحيه، وفي عام 1485 م بنى كارلو زاد علي بك مسجد كورشوم في ملكيته الجديدة، وما إن ذرّف به العمر وانثنى عائداً إلى الأناضول موطنه الأصلي حتى عبر عن تقواه فأورث مدخول أراضيه بأسرها لصالح المسجد...»⁽⁵⁾

من هنا ترافق الخوف ووجود الأتراك بصورة الجماعة - في كل مكان حلّوا به كما رافقتهم الرشاوي والفساد واندلاع النيران في المخازن والبيوت الآمنة، والاستدعاءات إلى «الكوناك» حيث القاءهم بالانتظار فإمّا لقاء ودي على فنجان من القهوة المرة وإمّا رحلة مرعبة إلى أغوار الزنزانات البازلتية السوداء في ديار بكر على مبعده ألف ميل في الجبال الجرداء المقفرة في آسيا الصغرى.

ولم تكن المأثورات الشعبية والأغاني في بلغاريا بأسرها تتحدث عن الحب الفتي وأفراح الحياة العادية وأتراحها فقط، بل كانت تروي بكل بساطة ما يقوم من ممارسات قهرية إزاء الشعب المقهور:

«إنها تتحدث عن نساء ينتزعن من بيوتهن ويختطفن من أطفالهن ويتمّ سوقهن بعيداً مكبات بأغلال الاسترقاق، عن الحبيبات المخطوفات عن إرغام قهري لاغتناق الإسلام، عن العذابات والاستجوابات عن السجن والشنق...»⁽⁶⁾

وقد عرض للأهالي خاطر خبيث، وماكر جذراً عالية جداً أحاطوا بها منازلهم لينسوا وجود الغازي التركي، وأقاموا جنات صغيرة من عرائش الورد والشجر كالدفلى الغريب والبنفسج والرمان القرمزي.. كل ذلك في محاولة لخلق واحة من الأمن وسط هذه الصحراء من الخوف والشت.

وكما قلنا لا ترسم لنا الرواية الوثيقة صورة فردية متعددة للتركي وإنما تعطينا صورة جماعية لممارساته في البلدان المحتلة، وهي كما رأينا صورة قائمة وكريهة تثير الخوف والازدراء، وتستمرّ الأحداث لترصد تفاقم هذا الصراع الذي يتطور ويخرج إلى العلن بين الأتراك والبلغار، بين الحرية والعبودية:

«تفضل عندي لحظة من الموت..

حياة بأسرها في العبودية!..

ماذا نجني من ممتلكاتنا.

في هذا الجحيم الوحشي الذي خلقه الأتراك؟

أكيد أن الإنسان لم يخلق ليصير عبداً؟

فما فائدة تثقيفه..

إن كان يشب والنير في عنقه مثل الثور.

يتأكل حياته رهين السلاسل؟...»⁽⁷⁾

وتتجلى صورة ليفسكي - رسول الحرية - ناصعة وشفافة كنقيض للآخر التركي وتتصاعد الأحداث وتتشابك التفاصيل ويعدم ليفسكي لكنه يبقى مثال الشجاعة والفروسية والوطنية. ورحل الوجه البغيض في النهاية وانجابت ظلال هذه الصورة البشعة للاستعباد.. ولكن ظلت ملامحها في الأذهان والذاكرة والمأثورات الشعبية.

الهوامش والحواشي:

- (1) رسول الحرية: رواية وثائقية - ميرسيا مكديرموت - ترجمة المحامي سهيل أيوب - منشورات دار طلاس - دمشق 1986
- (2) المصدر نفسه ص 9 - 10
- (3) المصدر نفسه. ص 23
- (4) المصدر نفسه ص 57
- (5) المصدر نفسه ص 27
- (6) المصدر نفسه ص 27
- (7) المصدر نفسه ص 91

- الدرويش والموت - (١)

غاية من الرموز الشرقية الشفيفة التي تريد أن تعلن دون مواربة أو ممارسة عن قصد وغاية في منتهى الإبهار والدهشة، تريد أن تعود إلى موضوعة شرقية غاية في الأهمية، «موضوعة الموت» هذا الذي يأتي مستعجلاً على مهل، فيهرب النفوس ويوجف القلوب. وذلك دون نظر إلى كسب وإنما لحاجة أعظم من الكسب، وأسمى من العقل. وما ذاك التخليد، تخليد تلك التجربة أو المعاناة.

رواية صلبة بكل المقاييس، إذا ما وجهت للعقل الغربي، لكنها باهرة وصادقة في طريقة التناول والتعبير، تلمح دون أن تفسر، وتعلن دون أن تبوح، تستكشف دون أن تبالغ في العري الروحي الذي لا يرى. وصاحبها اتخذ وضع المتنبي^(٢) لكن القول لا الواقع، لأن المعنى سيف الدولة:

«هأنذا أدرك أنني أكتب كتابة رديئة متشابكة، فيداي الآن ترتجفان من أجل المحاكمة التي سأبدؤها والتي سأكون فيها كل شيء: القاضي والشاهد والمتهم...»^(٣)

إنه يعود إلى البساطة والبركة الأولى بلا جرح أو خجل وهو في ذلك صادق كل الصدق، من هنا جاء عمله رغم كل الاعتبارات، إنسانياً ومعذباً لأنه كان كذلك.. فالصدق هو الإيمان بأن نقول الحقيقة..

والحياة والموت عند كل الأمم :

«بديهيان ماورائيان ولغزان قديمان» حسب عبارة إيمانويل سيوران» ولكن الانسان، ولو كان قاصراً عن إدراك الغيبيات يصطدم بسرّ واقع بشري ملموس، يحاول فهمه، ويصطدم بالمعنى الذي ينبغي أن يعطيه للحياة معتبراً في ذلك الموت المحتوم بل إن من يدافع عن التعفن المفصوح، مبرراً بذلك نمطاً من الحياة غريباً يصارع الموت هو أيضاً...»^(٤)

وبقدر ما الحياة حقيقية وواقعية فالموت حقيقي وواقعي ولكن هناك الشوق والطموح الأبدي الشرقي للخلود حتى لا يكون النسيان وبالتالي الموت المجاني الذي لا معنى ولا بريق له. مجرد هيكل عظمي فقد الثوب واللحم والعصب ويبقى الاسم:

«اسمي أحمد نور الدين، أطلقوا علي هذا الاسم وحملته مزهواً، وإنني الآن وبعد

أن مضت سنوات طويلة، تلتصق بنفسي كما يلتصق بي جلدي، أفكر فيه متعجباً أحياناً وضاحكاً أخرى، لأن نور الدين ذلك الاسم الذي حملته معناه الفخر، وأنا الآن أحجل من هذا الاسم الذي يحمل هذا المعنى كيف أكون نوراً؟ وبم أكون مضيئاً؟ بالعلم؟ بالمواهب الدنية؟ بالقلب الطاهر؟ بالطريق المستقيم؟ بعدم الشك؟ كل هذا يدعو إلى التساؤل: وأنا الآن أحمد فقط، لست شيخاً ولا نور الدين. كل شيء قد سقط عني كما يسقط الثوب أو الدرع وبقي ما كان قبل: جلد دون ساتر، ورجل عار..»⁽⁵⁾

ويبدو أن المعين الذي امتاح منه الكاتب رموزه وإشاراته ومعانيه هو التراث الإسلامي وفلاسفته، وهو ما ألح إليه في هامش من هوامشه.. ومن معاني الموت كما أوردها في نصه.

« لم يملككم الخوف فتضطرب قلوبكم وتلتف الساق بالساق عندما يحضركم الموت؟ إن الموت هو الانتقال من دار إلى دار، إنه ليس الفناء بل هو ميلاد جديد. وكما تنشق قشرة البيضة عندما يحين موعد خروج الفرخ منها، يكون الحال عند الإنسان إذ تنفصل روحه عن جسمه عندما يحين أجله. إن الموت شيء لا مفر منه. فهو معبر ضروري للحياة الأخرى التي يصل فيها الإنسان إلى أوج قمته.

كما قلت: إن الموت هو فناء المادة لا الروح.

وقلت: في يوم موتي عندما يحمل نعشي.

لا يدورن بخلدك أنني سأشعر بالألم على فراق هذه الدنيا..»⁽⁶⁾

والمعروف في التراث والمأثورات الإسلامية هو إنصراف الدراويش عن زخرف الدنيا ومباهجها إلى التأمل والرقص والحلقات الأسبوعية للذكر في زواياهم وتكايهم.

ولا نعرف لماذا اختار الكاتب درويشه من شيوخ الطريقة المولوية وليس من البكتاشية وهي الطريقة الشائعة في تركيا ومستعمراتها السابقة بل نراه ينحاز إلى الطريقة المولوية ويصفها بأنها أكثر الطرق عدداً وأنقاها. أما بناء التكية فيقول عنه.

«وقد كانت في الماضي حريماً للأجداد، ثم أهداها إلى الطريقة المولوية رجل موسر يدعى «علي جانيتش» لتكون مجعاً للدراويش وملجأ للفقراء إذ أنهم قلوبهم منكسرة، وقد طهرناها بالدعوات والبخور مما كان بها عن الآثام والشرور، وارتدت بذلك ثوب الشرف الذي ترتديه الأماكن المقدسة على الرغم من أننا لم نستطع على وجه التمام أن نبعد عنها أشباح الشابات. فقد كان يخيل إلينا أحياناً أنهن يطفن هنا وهناك وأن رائحتهن تصل إلى أنوفنا..»⁽⁷⁾

وسط هذا الجو عاش شيخنا أحمد نور الدين، حتى زج بأخيه في سجن القلعة فاستيقظ كل شيء دفعة واحدة، وبدأ رحلته لخلاص أخيه الذي يكون قد أعدم، فيتحول من درويش معتكف

زاهد إلى ثائر... وهذه الصورة التي نراها في الدرويش والموت صورة فلسفية أكثر منها صورة واقعية، وشخصيته نراها شخصية محبوبة عند الجميع خاصة في المستعمرات التركية السابقة لأنها غير مؤذية ومسالمة وودودة، راجع إيفو أندريتش وكازنتزاكيس وغيرهما.

الهوامش والحواشي:

- (1) الدرويش والموت، ميخا سليموفيتش - رواية - ترجمة: د. حسين عبد اللطيف - أحمد سمايلو فيتش - الناشر: قطاع الكتاب والتوزيع والإعلان - ليبيا - طرابلس 1981
- (2) المقصود بذلك مقولته الرائعة: أنت الخصام وفيك الخصم والحكم.
- (3) الدرويش والموت ص 9
- (4) الموت والانبعاث - دراسة - جان فونتان - ترجمة: محمد قويعة - منشورات الدار التونسية للنشر - 1984 ص 7
- (5) الدرويش والموت ص 10
- (6) المصدر نفسه ص 16 - 17
- (7) المصدر نفسه ص 12

الفصل الثاني

«ميراث الدم .. دائماً»

مداخلات صغيرة بمثابة المقدمة:

«لم يكن أتيلا سوى ملاك بالقياس إلى الهمجيين الجدد، الذين لم يبقوا على شيء..»

هنري فيرنوي - مايريك

«عراض الوجوه، فطس الأنوف، عبل السواعد، ضيقو الأخلاق، والغالب عليهم الغضب والظلم والقهر وأكل لحوم الحيوانات، لا يريدون لها بدلاً ولا يراعون فيها نضجاً ولا يرون إلا ما كان اغتصاباً..»

القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد

«يحقّ لولدي الذي يكون طريق السلطنة مفتوحاً أمامه أن يقتل أخوته في سبيل الإبقاء على النظام..»

سليمان القانوني - قانون نامه

«من غير مراعاة شأن النساء والأطفال وأصحاب العلل .. يجب القضاء على وجودهم في الحياة..»

24 نيسان 1915

التوقيع طلعت باشا، وزير الداخلية.

بني يعرب إن «الذئاب» تصول

بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها

من نواح الزهاوي على الشهداء

«والي: عدليه باش سنجق.

سنجق: أفندمز.

والي: أخبّار يوك أفندم.

سنجق: أخبّار سنجقيه العدليه يا مولاي كثيرة جداً، أولها إصدار قرار بحبس المتهمين قبل محاكمتهم. وثانيها إلغاء لفظ محامي من جدول القضاء. وثالثهما إصدار قرار بأن يكون القاضي أحرص أطرش مكسح أعمى.

والي: وبعد ذلك أنتم إعمل إيه؟!

سنجق: وبعد ذلك يا مولاي ما فيش حاجة. ألعب النطة في المحكمة والعدل يجري مجراه.

والي: تشوك جوزال.

محمد تيمور - العشرة الطيبة

دار ألف القاهرة - 1990

- بعد أن يجعل السلطان حظاياه العاريات في البركة يروح يتسلى بقذفهن بكرات صغيرة تلسع أجسادهن وتلتصق بها، وقد يعمد أحياناً إلى زيادة الماء في البركة حتى يغمر رؤوسهن فيحاولن، وهن يفرقن، الصعود إلى أعلى لاستنشاق الهواء فإذا هن صاعدات هابطات في لجة المياه طلباً للحياة، وعندما يكتمل سرور السلطان بهذه اللعبة المسلمية يأمر بتفريغ الماء وينادي على المخصيين ليخرجوا من البركة من بقي على قيد الحياة منهن ...» سير جورج مورتهوب.
راجع كتاب أساطير أوروبا عن الشرق - رنا قباني ترجمة د. صباح قباني.

«راح يتودد إلي ويقول عني: كم أنا صبوح البشرة وغض.. وكم هي شيقة يداي وقدماي، وأنه سيعفيني من التدريبات والمهمات وسيجعلني وصيفه ويدفع لي أجراً لو أنا أحببته.»

لورنس

أعمدة الحكمة السبعة - حادثة درعا.

«فلأترك سمعة مخيفة في الشرق الأوسط فهم يعدّون بدواً عديمي الحضارة، انقضوا من الشرق كالمغول مثلاً، فأخذوا يضطهدون ويذبحون الشعوب المستقرة في طريقهم...»

الدكتورة مرغريت كان - أبناء الجن

- مايريك (أميمتي) - (١)

تتماز رواية «مايريك» بحساسية عالية تبلغ أحياناً درجة التصوف. ولا عجب في ذلك فهي سيرة ذاتية تروي حياة صاحبها، وصاحبها فنان مرهف. تغرب عن وطنه لا لشيء إلا لكونه أرمنياً.. يحمل اسمين، وتاريخين، وثقافتين وحالتين حالة حصار، وحالة بحث عن التوافق أو المصالحة أو على الأقل الفرصة لاستيعاب ما جرى سابقاً في الوطن ويستعيده عبر الذاكرة الشفوية لأسرته وأحاديث أبيه، وما يجري من ممارسات لنسمها «عنصرية شوفونية» من هنا كانت الرواية مثقلة بذلك الإحساس الشفاف والمرهف. والنظرة الحانية إلى الأشياء. والتشبث ببعض الرموز والدلالات والأفعال لا لشيء إلا لكونها أرمنية وفي تأكيدها تأكيد لهويته القومية:

«(منتشيس). هذه الكلمة الهمجية لما فيها من عدة أحرف صامتة وحرف صوتي واحد. هي نسخة صوتية لكلمة الأصل يجب علي أن أشرحها.

ليس لها فخامة كلمة «ابني» ولا الخطأ اللغوي «الابن لي» وليست «بني» أو «ولدي» الخاصين لطبقة من طبقات المجتمع، ولا «كنزي» ولا «صغيري» وهذه الكلمات يزول استعمالها عندما ينمو الولد.

هذه الكلمة تأتي من أحشاء الأب أو الأم وهي تربطهما حتى الموت وللأبد بهذا الابن الذي يصبح شيئاً منهما، أقبيحاً كان أم مذلولاً، أو متفوقاً كان أم قليل الذكاء وحتى إذا حكم عليه الآخرون فسيبقى ذلك الابن الذي له على والديه كل شيء...»⁽²⁾

وتروي «مايريك» حكاية عائلة أرمنية أجبرتها المذابح التي جرت في بلدها الأصلي على الرحيل، واللجوء إلى فرنسا لتواجه حياة قاسية في بلد أجنبي لا تملك فيه شيئاً وتجد من أهله الكثير من التعالي والقلّة من العطف. إنهم أجانب، وفقراء. بالتالي يدون في وضع رثّ قياساً حتى للفقراء الوطنيين، وقد كتبت عليهم المسكنة وقلة الحيلة، وضعف الإمكانيات المتاحة ولولا ما استطاعت تهريبه الأم من مال قليل لكانت العائلة على شفا الموت جوعاً والمبيت في العراء. وكان ثمن البقاء على الأرض الفرنسية غالياً. يرتبط بختم ضخم مستطيل يدمغ جوازات العائلة بجملة واحدة.. «لا وطن لهم» هكذا ليكونوا ضيوفاً ثقلاء على الأرض الفرنسية بصفة «لاجئين» لم تنته

الآلام عند هذا الحاجز، فهناك حواجز كثيرة لكن أهمها حاجز اللغة، فالعائلة لا تعرف الفرنسية:

«قامت مشكلة معقدة عند اللحام، نظر والذي إلى اللحوم المعروضة على المنضدة ولكنه من الواضح أنه لم يجد ما يطلبه، فلما جاء دورنا حاول أن يشرح ما يريد فأشار إلى قطعة من اللحم ثم رسمها رسماً خيالياً بيديه في الهواء، ولكن لم يفهم كلامه المعبر عنه بحركات جسمه، كان يحسن قول الكلمة باللغات الثلاث التي يتكلمها، ولكن ما من أحد يفهم التركية ولا اليونانية ولا الأرمنية.

كان الزبائن وأجير اللحام وأمينة الصندوق جميعاً ينظرون إلى هذه الرجل الآتي من عالم آخر يحرك ذراعيه في الهواء ليتكلم. أغلب الظن على أنه حيوان أسطوري غير معروف في فرنسا. وإذا بسكوت تام قد ساد الحانوت فضرب والذي وقد أخذه اليأس. ثلاث ضربات قوية جداً على فخذه الأيمن ولفظ بصوت متهدج ثناء:

- بالاع.

فانطلقت الكلمة من جميع الصدور انطلاقاً واحداً. هذا الرجل يريد فخذاً وانتهت التمثيلية الإيمائية عند هذا الحد.»⁽³⁾

ومن حاجز اللغة، إلى عداة السكان، إلى نظرات الجوار، كل ذلك بدأ يتجمع في تلك الذاكرة الصغيرة التي تلتقط بأصابعها الطرية كل شيء، الصوت، والألوان، والأشكال أشكال الوجوه، والبيوت، والشوارع، ومقاعد الدرس، وتخزنه ليكون خميرة فيما بعد لأفلام وصور وكلمات تركت الأثر في الناس، وهكذا شأن الذين لا وطن لهم:

«إن الذين لا وطن لهم، هؤلاء الناس الذين لم يأتوا من مكان معروف يتعرضون لأن تكون لهم طفولة ذات نسختين، على نحو مستمر في الوقت نفسه. يجب أن يضطلعوا بنسخة أصيلة بثقافتها وعاداتها ونظراتها، إلى أمور الحياة، ولكن يجب عليهم أيضاً، ما إن اجتازوا الباب مجابهة نسخة أخرى في التصرف ولغة البلد الذي يقبلهم...»⁽⁴⁾

ولكي يواجه كل هذه الأمور واللغة والناس.. ويتبع طريقه في الحياة وسط الدموع والأفراح الصغيرة والمسررات الغامضة.. وقد عانى كل ما عاناه لأنه طفل مسروق الطفولة والوطن فمنذا الذي فعل به وبشعبه كل ذلك؟ كيف انعكست صورته في هذا العمل الروائي - السينمائي الرائع؟

إنه يحمل له ويدون مواربة صورة «الوحش» وهذا الوحش ليس فرداً أو عصابة وإنما سلطة حاكمة بكل رموزها، وأدواتها: الجندرية، الوزراء، القادة، رأس الدولة، قطاع الطرق الذين استخدمهم كأدوات. القبائل الهمجية التي أيقظ كل غرائز القتل البربرية فيها:

«ابتدأت الأمسية بقراءة هذه البرقية المكتوبة بالرموز. وقد أرسلها (الوحش)

التركي إلى جميع الحكام...»⁽⁵⁾

وتتوالى ممارسات ذلك الوحش الطاعن الذي كان أشرس البرابرة في التاريخ ملاكاً بالقياس إلى «وحش طوروس» تتوالى على شكل تداعيات ترسم ملامحه وهوسه وصورة وجهه القبيح: «رأيت أشباح الشهداء بوجوهها التي حرثتها السياط، وأطفالاً حطمت جماجمهم على الصخور، ومأساة أمهات بقرت بطونهن، وصبايا انتحرن ليفلتن من الهوان، والفراش يجرف ألوفاً من الجثث المقطعة إرباً إرباً. طغاة مهووسون في هذيانهم لإقامة الجامعة التركية وحلمهم بامبراطورية عثمانية تشمل آسيا.. ذلوا العقبة الأولى عن طريق أضغاث أحلامهم التوسعية: الأرمني، هذا المسيحي الشرقي من كنيسة رسولية والذي لا ينكر دينه لأبد من إبادته ليترك للفاتح أرمينيا.. بلا أرمن.»⁽⁶⁾

وتتربع صورة طلعت في المكان وهو لا ينفك طالباً الإسراع في العمل فبدل الموت البطيء والترحيل يأمر باستخدام الفأس والمطارق والمجارف..

وهنا يتفق الكاتب.. بل تطابق كتابته ما جاء في الروايات سواء منها العربية أم الأجنبية، فالضحية شعب.. والمجرم دولة بكل قدراتها.. إنها الصورة المألوفة.. الذئب ذو البرائن الملوثة بالدم..⁽⁷⁾

الهواش والحواشي:

- (1) مايريك: هنري فيرنوي - رواية أخرجهما كاتبها في فيلم سينمائي لاقى صدى واسعاً وتقبلاً كبيراً. ترجمة الأب يوسف قوشقجي - نشر دار الحوار - اللاذقية - واللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية بحلب - (1992)
- (2) المصدر نفسه ص 15
- (3) المصدر نفسه ص 28
- (4) المصدر نفسه ص 45
- (5) المصدر نفسه ص 61
- (6) المصدر نفسه ص 62
- (7) يمكن الرجوع إلى مذكرات فايز الغصين - رواية الهدس لآبراهيم الخليل - رياح الشمال لنهاد سريس - أوراق الليل والياسمين لفصيل خرتش - مدارات الشرق لنيل سليمان - الأيام الأربعون لجبل موسى لفرائز ويرفل - وما كتبه مورغنتاو وسواه.

- الأيام الأربعون لجبل موسى - (١)

مرة أخرى يعود قلم آخر كان شاهداً على ما جرى من فظائع ومجازر ومذابح ليرسم لنا صورة الوجه البشع للجزار الذي كان «دولة» بعسكرها وقادتها وسفاحيها، وهم يقومون بذبح شعب كامل بأطفاله ونسائه وشيوخه وشبابه، حتى جافت الأنهار والدروب والبوداي من رائحة الجثث المتفسخة، وشبعت الوحش من اللحم البشري، وأغضت الإنسانية خجلاً مما كان يجري. «فالأيام الأربعون لجبل موسى» رواية تلك الأيام التي شهدت ما حدث في تلك القرى :

«إنها قصة القرى الأرمنية السبع القابعة في مرتفعات انطاكية والمطلة على سهل السويدية وخليج الاسكندرون.. هذه المنطقة التي كانت مسرح خطة تركية رهيبة بدأ تنفيذها آنذ في بلدة زيتون ثم في دير الزور وفي أماكن أخرى كانت تقطنها غالبية أرمنية.

كانت قرية «يوغونولوك» و «جبل موسى» وسفح «الداملجيك» وما يلود بتلك الربوع مسرح تلك الأحداث، إنها حكاية الأسابيع الستة أو محنة الأربعين يوماً..».

ويذكر أن فكرة تأليف هذه الرواية قد راودت مؤلفها في آذار عام 1929 خلال فترة إقامته في دمشق، إذ أن رؤيته لجموع الأطفال اللاجئين ممن فقدوا كل شيء وباتت لقمة العيش عسيرة وهم يعملون في مصنع من مصانع السجاد كل ذلك حفّزه على الكتابة وتصوير ما حدث. فكان بحق العمل الوثيقة، والرواية الرفيعة المستوى، الإنسانية المنازع.

وبطل الرواية «كابرييل باكراديان» أرمني عائد من باريس مع زوجته الفرنسية جوليت وطفله الصغير ستيفان، ومع أن أسرته شأن الأسر الأرمنية المسورة كانت تعاني التجارة فإن كابرييل اتجه اتجاهها مغائراً فاهتم بالفنون والآداب والفلسفة، وكانت هذه العودة بقصد إنجاز بعض الشؤون التجارية المتعلقة بمصالح الأسرة. لكن الأمور اتخذت مساراً آخر، فالحرب الكونية أعلنتها الدول على بعضها، والسفريات باتت أمراً غير مأمون، وكان لابد لكابرييل أن ينتظر، وأن يرى الوطن الذي غاب عنه مدة ثلاث وعشرين سنة، عاشها في باريس يتمثل ويهضم ما يراه، حيث السوربون الذي تابع فيها دروسه، والحياة الملونة، والبشر والأمكنة وأوهاج الفكر والحضارة والأفكار التي تشع لتبهّر هذا القادم من الشرق في مهمة غير مألوقة، العلم، ورغم كل ذلك، حين

عاد كان أكثر امتصاصاً للتربة الأصلية، وأكثر تفاعلاً مع المناخ، فكان أرمنياً أكثر من الأرمن الموجودين حتى من شقيقه اللاهي وراء الصيد في الجبال. جبال طوروس وهارون. وتفاقم الأمر بموت أخيه مما اضطره إلى البقاء لإدارة أعمال شركته التي أصبح وارثها... ولأن كابريل ضابط احتياط سابق في الجيش التركي فقد كان ينتظر أن يستدعى مرة أخرى للخدمة. وهذا ما حدث فقد استدعي إلى انطاكية بعد سحب جوازات السفر العائدة له ولأسرته. وهو إجراء فرضته ظروف الحرب كما حاولوا أن يفهموه في دار الحكومة. لكن ما سمعه في الحمام العمومي من حديث كشف له عن البدايات التي تنتظر الأرمن، والمؤامرة التي تبيت لهم فأهّمه ذلك وأغضبه وتمضي فصول الرواية لتبرز ما تمّ من مآسي، وترسم صورة للوحش التركي سواء على المستوى الفردي أم الجمعي (الدولة). ومن تجليات هذه الصورة التي أمدنا بها الكاتب، وكانت البداية في زيتون...:

- (طلعت بك - أنور باشا) من أركان المؤامرة ومدبري المذابح الرهيبة للشعب الأرمني كما أنهما يمثلان السلطة الحاكمة إضافة إلى (جمال باشا) وغيره.
- (الحميديون): كتائب ألفها السلطان عبد الحميد من البدو وقطاع الطرق والمجرمين الذين أفرج عنهم من السجون والرعاع وذلك لكتّم أفواه الأرمن وقد لعبت دوراً قذراً في تلك المرحلة.
- (الوالي والمتصرف والقائمقام) أدوات التنفيذ لأوامر السلطة العليا حيث كانوا ويمتازون غالباً بالغباء والشراسة والدموية.
- الجندرمة: العسكر النظامي والمخيف في ممارساته التي لا يمكن للعقل الإنساني أن يفهمها أو يفسرها فالقتل في شريعتهم للقتل. ومن صور المجزرة التي وردت :

1- «ثلاثون أو أربعون رجلاً يستلقون على الأرض والدماء تنزف منهم بغزارة ومع رؤية الدم تعود الرغبة المتأججة في نفوس الحراس المثارين - رغبتهم القديمة المتأججة - في امتلاك نساء هذا الشعب المنكود إذ يمكن النيل من أكثر من امرأة من أولئك النسوة اللاتي لا حول لهن ولا قوة وبعد أن يفرغوا من ذلك، قلما يدرك هؤلاء الدرك كيف حدث ذلك».

2- «ثم بدأ سيل الطلقات المنبعثة من المسدسات العديدة تنهال على المرأة والأطفال الأربعة وغطت الغرفة سحابة كثيفة من الدخان إلا أن سر كيس لم يصب بأية رصاصة وكان أول من لقي حتفه ميسروب البالغ من العمر سبع سنوات، وتعلق جسدا الفتاتين الصغيرتين وهما متدليتان في ذراعي أمهما التي ظلت ممسكة بهما. كان وجهها المستدير المتكبر صلباً جامداً، وأصابته إحدى الرصاصات ذراعها اليمنى ثم ثقت رصاصتان أخريان وجهها، سقطت إلى الأمام وانحنى فوق سر كيس الذي كان ما زال متشبثاً بها، وأخذ الدم المنساب من أمه يتدفق فوق شعره وغطته بجسدها وبقي ساكناً تحت جسد أمه الدافئ»

الذي كان يتنفس بصعوبة لكنه لم يعد يتحرك أبداً. وثقبت أربع رصاصات أخرى الحائط، وشعر قائد المجموعة بأنه أنجز مهمته بنجاح، وصاح:
- «تركيا للأترك».

3- «فكانوا يتهاكون على الأرض، ويتكلمون في الحفر حيث يلقون مصرعهم، وكانت عصي الدرك تنهال على ظهورهم المرتجفة وذلك لأن هؤلاء الدرك كانوا يتميزون حقاً فقد كانوا يحيون حياة تعيسة حتى يتمكنوا من إيصال قوله لهم إلى حدود الناحية الأخرى، وفي البداية كان يجري تفقد المهجرين إلا أنه ما إن علت سطوة الموت والمرض وبدأت ترمي المزيد من جثث الأموات وخاصة الأطفال في الخنادق لم يعد المأمور يأبه لإجراء التفقد فمن يهمله أن يعرف أن جسد سركيس أو اسدغيك أو هاييت أو أنوش أو فارتوغي أو كورين قد أصيب بالنز في مكان ما من العراق؟»

هذه بعض صور المأساة كما مارستها الدولة بأركانها ومثليها وعسكرها ولكن لا ننسى صورة علي ناصيف الطيب، والوالي جلال بك الذي رفض أن يشارك في تلك اللعبة القذرة.

الهوامش والحواشي:

(1) الأيام الأربعون لجبل موسى - رواية - فرانز ويرفل - ترجمة خالد الجبيلي - منشورات دار الحوار - اللاذقية . واللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية - حلب. 1995

(i) - أعمدة الحكمة السبعة -

من للأعمدة حين تسمق عالياً غير الحكمة لتبّرر وتدحض وتطامن؟! فهذا الانكليزي الحالم بالشرق، شرق من الزهو المتألق، والوهج الرملي والشهوة الشرسة، هذا القادم من ضباب وتلج، من الآخر المسمى «الغرب» إلى صحراء الجزيرة العربية وبدوها. بثيابهم الفضفاضة وملامحهم الحادة وعيونهم الصقرية فأراد أن يكون على شاكلتهم. لكنه ظل انكليزياً في ثياب عربية. ومع ذلك خلف أسطورة له صداها في الغرب، كانت هذه الأسطورة البديل عن نسب لا يشرف. فأعلن في بداية الكتاب:

«حين عشقتك

جعلت هذه الجموع من الرجال في قبضة يدي

وكتبت وصيتي بالنجوم على صفحة السماء..»

ولورنس في أعمدة الحكمة السبعة، رجل حالم، مسكون بالوهم، لذا جاء ما كتبه - وإن كان معظمه مختلقاً ينافي الطبيعة البدوية أحياناً أو الشرقية - مثيراً للقارئ الغربي، ويصيب الشرقي أحياناً بالذهول. وما يهمننا هو صورة التركي عنده، فالتركي في أعمدة الحكمة يأخذ منحنيين: «الدولة» وكانت في أخريات أيامها تتساقط أجزاؤها كرجل مصاب بالجذام، إذ تراجع جيوشها وتتخبط أمام الحركات التحررية حيث وجدت لها سلطات.

أما على المستوى الفردي «فالتركي» رجل فظ، شهواني، لواطى، مهووس بالغلما ن مما يذكرنا بأغا «ليكوفريس» في رواية كازنزاكيس «المسيح يصلب من جديد». وتظل حادثة درعا أكثر ما جاء في كتاب لورنس إثارة - رغم أن لورنس كان لواطياً وعلاقته بالصبي السقاء من منبج والذي أهده القصيدة في مقدمة الكتاب غير خافية - وحادثة درعا كما يرويها لورنس ملخصها أنه وقع في يد الحامية التركية هناك، وهو يقوم بمهمة عسكرية، فاقبذ إلى قاعة كبيرة فيها عدد من الجنود الوسخي الثياب، انتزعوا حزامه وخنجره وأمروه بعدها بالإغتسال ثم قدموا له الطعام، وقد أدعى بأنه شركسي ويرغب في إطلاق سراحه فوعده خيراً إذا أشبع رغبات البيك. ثم قادوه إليه:

«أدخلوني إلى غرفة البيك في الطابق الأول، وكان ساعته ممتدداً فوق سريره في ثياب النوم يرتجف ويتصبب عنه العرق كأنه مصاب بالحمى، لم يرفع رأسه ساعة

دخولنا وكل ما فعله أن أوماً للحراس بالخروج ثم عاد إلى الصمت بعد أن أشار إلي بالجلوس قبالة على السجادة وبعد برهة رفع رأسه وبدأ يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم طلب إلي أن أقف وأستدير فأطعت، وإذا به يأخذني بين ذراعيه عنوة فتملصت بعد أن تبينت غايته ووقفت قبالة يملأني الجبور لاكتشافي بأني كنت ندأ له في العراك على الأقل. أخذ البيك عندئذ يلاطفني ويتغزل بقوامي ولون بشرتي الأبيض واستدارة قفائي، ثم وعدني بإعفائي من الخدمة العسكرية والسخرة مجزلاً لي العطاء. كل ذلك مقابل إشباع رغباته الجنسية الشاذة»⁽²⁾

بعد هذا السرد المثير، والخلاب، الذي يهزّ وجداني الغربي خاصة، ويكشف عن نزعة حيوانية، وشهوة شرسة تضاف إلى صورة الشرق يتابع وصف المشهد بلذة وتزويق:

« - دخل هؤلاء وأوثقوا لي رجلي بعد يدي ولما لم يعد بإمكانني القيام بأية حركة، استأسد البيك من جديد وبصق في وجهي متوعداً. بعد ذلك غرز أظافره في عنقي ثم أسنانه، وبعد ذلك قبلني ولما أشبع رغبته هذه، استل حربة الحارس وأخذ ينكرني بها فصرخت من الألم بينما الدم يسيل على فخذي وقد بدا علي البيك أنه مغتبط جداً بما يفعل.»⁽³⁾

تلك هي حادثة درعا، وقد رسم فيها صورة البيك التركي وإن كنا نشك في صحة كل تلك التفاصيل.

الهوامش والحواشي:

(1) أعمدة الحكمة السبعة - لورنس - منشورات : دار الآداب - بيروت

(2) المصدر نفسه ص 315

(3) المصدر نفسه ص 317

★ رجال بأربع أصابع^(١)

عالم من السواد والقنطرة والكآبة، عالم هذه الرواية، التي تعلو فيها نبرة الصدق وحرارة العاطفة إلى درجة عالية جداً، فهي ترصد عالم أولئك الذين قذفتهم أوطانهم خارج حدودها أو فزوا طائعين خائفين ليمارسوا حياة قاسية في أوطان أخرى ليست لهم، تستقبلهم على مضض وتعاملهم بازدراء. وقد تنوعت فيها الشخصيات والقوميات والأديان والجنسيات والعروق والنزعات والأهواء:

«قدرٌ تقول؟! أجل قدر، لكنه خنزيري. ففي البداية تحب وطنك، وتجاهد من أجله، تنزف وتنفخ بدمك النازف، لكن الوطن الغالي يلفظك على مزبلة غريبة، نازفاً مشخناً بالجراح والدموع فأين المعين ولا شيء سوى الليل والغربان؟ فتقول محشرجاً: يا وطني الوحيد.. لا تسمح لهم أن ييصقوا ابنك.. لكنهم يطردونك من فوق المزبلة مشفوعاً بعواء الكلاب وأبشع النعوت..»⁽²⁾

وسط العالم الخليط من سلاف وصرب وكروات تبرز صورة التركي أيضاً وتهمننا شخصيته التي يرسمها الكاتب وسط عالم اللاجئين السياسيين هذا، عالم المبتدئين إذا أردنا الدقة، الذين يعيشون بأسنانهم وسكاكينهم وسط تلك الغابة من العمالة الأجنبية والغوريلات، غوريلات بشرية مهمتها المرافقة والحراسة والقتل أحياناً.

وتبرز صورة التركي في الرواية بـ (ملا يوسف تاتاروغلو) الذي يمثل لوناً من ألوان تلك اللوحة البشرية في هذا العمل الأدبي:

«تاتاروغلو منجم للذهب. إنه يبحث في الأعداد أيضاً، لكن بطرق مناسبة أكثر من بارباش. سترى..»⁽³⁾

إذن نفهم منذ البداية أن المدعو تاتاروغلو هذا منجم للذهب، ولكن من أين جاء بالذهب؟! وكيف استطاع تكوين تلك الثروة والاسم؟!

«كان ملا يوسف تاتاروغلو أغلى شريك للآزاريتش وأكبر متعامل معه وكان من عادته أن يصل في منتصف الليل بشاحنات البراد ماركة هنشل آخر هتغار

بقيادة لازاريتش شخصياً، حيث يساعدهم مارك وبو في عملية الحمل والتفريغ. وكانت الخراف البيضاء تنزل بصفوف إلى المستودع فتشبه نفقاً طويلاً متجهداً بينما تعزل الخراف التي يشير إليها التركي بعصاه داخل سيارة صالون خاصة.

كانت الخراف المذبوحة والممهورة بخاتم مسلخ أزمير وختم شركة البلقان للاستيراد والتصدير تذهب من هنا إلى العمال الأجانب الأتراك والعرب في شمال ألمانيا والدانمارك والسويد، أما الخراف التي عزلت في سيارة الصالون فتذهب إلى غرفة خاصة، تلك التي كان يقف على بابها سيمون ذو العين الواحدة واصبعه على زناد الماوزر، فيخرج التركي منها قطعاً ثقيلة ملفوفة بالسلفوفان ويسلمها للازاريتش الذي يشمها بدوره ويرتبتها ويسجلها. كان اللحم الذي استخرجت منه المخدرات يفوح برائحة بشعة، فيرمى أمام الكلاب من دون تقطيع بأمر من لازاريتش حتى يكون العواء أشد وأطول وحتى يسمع نباح حراس الجدران اليوغسلافية وكنوزها إلى بحر الشمال، يقول هذا معجبا بمنظر الكلاب وهي تتذبح..»

تلك هي التجارة ذات الوجهين التي يمارسها تاتاروغلو، ومن هنا جاء بذهبه وأمواله، إنه المهرب الخفي، والتاجر المعلن، كمتعهد للحوم هنا في ألمانيا بينما له مزارع الأفيون في الأناضول، مزارع محروسة برجال جيدي التسليح والتدريب، إضافة إلى ذلك تجارة السلاح وسواه.

ولا يتحرك ملا يوسف تاتاروغلو هذا إلا وحوله جيش من حرسه الغوريلات ذوي أبواز كالثعالب، وأجسام كالعمالقة، دون أن يحاولوا إخفاء قوّات أسلحتهم وسكاكينهم وساطور الجزار على خصر كل منهم.

تلك هي صورة تاتاروغلو في العمل والتصرف وجمع المال ولكن كيف يرسم الكاتب صورته الأخرى..

«كان التاجر التركي الكبير من أزمير ملا يوسف تاتاروغلو عملاقاً على ساقَي قزم. كان يبدو إذا جلس والمسبحة في يده ومشرب السيجار في فمه أطول مما هو واقف - هكذا كان يصفه لازاريتش في ساعات غضبه - كان تاتاروغلو ملتحمياً، يعتمر قبعة بحرف عريض. وكان يذكر الآخرين بتولوس لاوروس العملاق. كان أبوه مكدونياً وأمّه بوسناوية، لهذا كان يقول أن ساراجيفو وسكوبيا أحب إليه من استمبول وأنقره وكان غالباً ما يحضر إلى لازاريتش في سيارته الرولس رويس السوداء ومن حوله الغوريليات الأناضولية..»⁽⁴⁾

ويصنف مع ذلك تاتاروغلو في السجلات الألمانية مع «الملونين» بين آسيا والشرق الأوسط والهند.

تلك هي صورة التركي في خطوطها العريضة. وملامحها العامة كما يرسمها الكاتب في رواية قائمة وكثيية لكنها حارة وصادقة حتى في بذائاتها.

الهوامش والحواشي:

- (1) رجال بأربع أصابع - رواية ميودراك بولاتوفيتش - ترجمة وليد السباعي - منشورات وزارة الثقافة - دمشق 1994
- (2) المصدر نفسه ص 7
- (3) المصدر نفسه ص 348
- (4) المصدر نفسه ص 340

★ العزّاب^(١)

رؤية العالم السفلي في أمريكا، عالم المخدرات والرقيق الأبيض، والابتزاز والصفقات المشبوهة، والأتاوات التي تدفع، والأحكام التي تصدر في غرف مشبعة بالدخان والأنفاس والنظرات الثلجية. وقد وفق الكاتب (ماريو بوزو) في رسم هذه الصورة بكل دقة وهي زاخرة بالقسوة والصلابة والشراسة كما أنها متنوعة الأعراق ففيها الصقلي والايّرلندي والأمريكي المندمج والإيطالي ومن ثم التركي. وشخصية التركي تمثل في صورة (فيرجيل سولوزو) الذي يريد له الكاتب أن يكون تركياً في التصرفات والأفعال أكثر مما يهمه أن يكون من أصل تركي. بحيث نراه يستخدم صفة التركي أكثر مما يستعمل الاسم الفردي في الحديث عنه.

«كان فيرجيل سولوزو الملقب بالتركي، رجلاً معتدل القامة، ركين الجسم وكان لسمرته يمكن الاشتباه بأنه تركي حقاً. كان أنفه سيف ضلع، وعينه سوداء وحشية، وملبسه ذو لياقة طاغية»^(٢)

وقد دخل لعبة «المافيا» وهو يحمل مشروعاً جديداً، ترويج المخدرات وحين وقف الدون كورليون في وجهه، ورفض التعاون معه، عمد التركي إلى كل أشكال الخبث والمكر للخلاص من الرجل المخنك العجوز ولم يقدم خطوته إلا بعد أن اشترى حماية ومساندة أقوى العائلات وهي عائلة «أتاغليا». وتبدأ الحرب، يتعرض الدون العجوز إلى محاولة اغتيال بتدبير من التركي، وحين ينتقل إلى المشفى حياً، يحاول الإجهاز عليه مرة أخرى، ولكن الأمر ينتهي في النهاية بتصفية (سولوزو) ويعقبه بحر من الدم تفرق فيه العائلات الأخرى.

صورة قاسية لكنها لا تختلف عن صور الآخرين، لأن العالم الذي تصوره الرواية هو عالم المافيا، وليس في هذا العالم غير الأشداء والقساة والقتلة ليستمر.

★ الهوامش والحواشي

(١) العزّاب - ماريو بوزو - دار الآداب - بيروت 1979 - وقد حوّلت الرواية إلى فيلم مشهور.

(٢) المصدر نفسه ص 68

قطار منتصف الليل^(١)

هي رواية وفيلم وقد اعتمدنا على الفيلم وما كتب عنه في نقل صورة التركي كما نقلته ريشة الكاتب أو كاميرا المخرج.. وبطل الفيلم هو السجن «سجن تركي» نموذجي.

«والفيلم مليء بالعنف والقسوة والتعذيب. وقد لا يحتمل المتفرج رؤية هذا العنف والألم، ويخرج للهواء الطلق ليلتقط أنفاسه، ولكن ما يدفع الكثيرين إلى الاستمرار واكتمال مشاهدة الفيلم هو الفضول لمتابعة موضوع يدور في بلد إسلامي. حيث ترتفع قباب المساجد، وتردد صوت المؤذن.. وكان المقصود بالتحديد هو إظهار هذا «التباعد» بين الدين والمعاملة الوحشية»⁽²⁾

نعم إنها المفارقة والتباعد بين ما يدعو إليه الإسلام في رسالته السامية من تسامح وتواد وبين ما يمكن أن يقوم به الآخرون من تصرفات تنافي تعاليمه. وتعتبر عن الأهواء الجامحة والغرائز الوحشية التي تسكن تلك الأجساد:

«والفيلم تدور أحداثه في تركيا وبالتحديد داخل السجن التركي الكبير الممتلئ بالآلاف من المساجين المجرمين واللصوص المنحرفين ويدير السجن مجموعة من الضباط والجنود الذين يتفننون في طرق الإهانة والتعذيب وإهدار كرامة الإنسان حتى تحوّل المساجين على أيديهم إلى أشباح آدمية هزيلة محطمة»⁽³⁾

والقصة حقيقية بطلها «يلي هيز» وهو طالب أمريكي كان في رحلة سياحية مع صديقتين وقد فكّر الطالب بتهريب كمية من الحشيش، المخدر، والمتواجد في الأسواق علناً وبكثرة ليستفيد من بيعه في أمريكا وهكذا فعل، لكن أمره يكتشف فيقاد إلى السجن الرهيب المسمى (ساجا ملكار) لتبدأ مشاهد العنف والتعذيب:

«ففي أول ليلة في السجن يشعر الشاب بالبرد فيذهب إلى الحارس ليطلب منه غطاء، ويجدها الحارس فرصته «لتدشين الزبون» الجديد فينادي زملاءه الذين يكتفون الشاب ويلقونه من ساقيه ويضربونه بشدة، حتى تتفجر الدماء منه.. وينطلق صوت المؤذن لصلاة الفجر..»⁽⁴⁾

وتدور الأحداث والمشاهد بعد ذلك داخل السجن الرهيب هذا، الذي يمتليء بكافة أشكال

المجرمين والمنهارين الذين دمّرت نفسياتهم وحطمت أجسادهم ومقاومتهم المعاملة الشرسة والجو الخائف المتعفن داخل الزنانات الكثيرة حيث تدور أحداث هذه الملحمة الإنسانية.

وكما كان «كراكوز» في رواية «الفناء الملعون» يدير السجن بالأعباء وأساليبه الغريبة، فإننا نصادف هنا شخصية «حميدو» الرجل المفترس والمتوحش الذي لا يتوقف عن إهانة السجناء بسبب وبلا سبب.

ولأن الشاب كان بحاجة إلى محام فقد وجده في صورة ذلك الرجل السمين، الدبق، الذي يضحك عن أسنان ذهبية ويكاد لعبه يسيل لمراى النقود، وفي المحكمة يصدر القرار بسجنه لمدة أربع سنوات وشهرين يعيشهما في هذا الجحيم المرعب، وقبل نهاية الحكم بخمسين يوماً تعاد مسرحية المحاكمة من جديد ويكون الحكم المفاجأة، لقد قررت المحكمة تمديد المدة بسجنه مدى الحياة وينفجر هنا صارخاً: «كلكم خنازير، إنني أكره شعبكم.. إنني أكرهكم جميعاً..»⁽⁵⁾

ويفكر جدياً بالهرب بعد أن استطاعت صديقه تهريب مبلغ من النقود له، فيقابل مدير السجن عارضاً عليه رشوة ليساعده في الهرب:

«ويتسّم مدير السجن ويصحب الشاب إلى غرفة جانبية ويغلق الباب عليهما ويسفر مدير السجن عن كل وحشيته، لقد ظن الشاب أن الأمر انتهى ولكن تصعقه مفاجأة مدير السجن. إنه ينهال عليه ضرباً ثم يحاول الاعتداء عليه جنسياً. ولا يحتمل الشاب الإهانة فيدفع مدير السجن برأسه وبكل ما تبقى له من قوة فيتدحرج مدير السجن ليصطدم ببروز في الحائط يهشم رأسه ويسقط صريعاً.»⁽⁶⁾

ويرتدي الشاب ثياب مدير السجن ويتسلل هارباً من ذلك الجحيم التركي وهو يستعد لمعانقة الحرية والحياة من جديد.

الهوامش والحواشي:

(1) قطار منتصف الليل - رواية وفيلم. كان مرجعنا الشريط السينمائي إضافة إلى ما كتبه الناقد المصري رءوف توفيق - مجلة الدوحة - السنة الثالثة - العدد: (35).

(2) المصدر نفسه

(3) المصدر نفسه

(4) المصدر نفسه

(5) المصدر نفسه

(6) المصدر نفسه

فئران الأنابيب «البخشيش»^(١)

رواية تفوح منها رائحة النفط والدولار وصفقات العصر والرقيق الأبيض والسلاح، عالم يحكمه أباطرة المال الجدد، والتجارة العالمية، والأسماء البراقة والشعارات الخاصة. والكلمة السحرية فيه دائماً تتردد بهمس «البخشيش» كما تتردد كلمة «افتح يا سمسم» في المآثورات الشرقية فتفتح الأبواب عن كنوز ولصوص.

عالم تتصارع فيه ديناصورات العصر ولا مكان للصغار فيه ومعظم النهب القائم ينصب على أموال العرب وحرمات العرب وخاصة السعودية التي هي محور العمل ومادته الأساسية.

والشخصيات تتنوع من الرعاع والعاهرات والبلطجية إلى الشيوخ والأمراء والملوك، ومن لبنان إلى السعودية وانكلتره وأمريكا إلى فرنسا، تنوع في المكان وتنوع في البشر. ولكن أين موقع التركي فيه؟.

في الرواية شخصية تركية أو قل من أصل تركي، إنه سليمان بن التركي جبيء به من مخدع محظية شركسية من محظيات آخر سلاطين آل عثمان فعاش في كنف العائلة السعودية، فكان صهر الملك فيصل ومستشاره فهو خريج أرقى الجامعات الغربية، والمتنوّز الذي يعتمد عليه للتعامل مع الغرب معاملة النّد. يعيش حياته كسفير متنقل ومستشار، يحب الخمر والنساء والملذات التي يعيشها سائر الأمراء من آل سعود وحاشيتهم، لكنه ينأى بنفسه عن الخلافات والصراعات ويحاول أن يبدو رصيناً متوازناً يملك أعصابه. كانت نقطة ضعفه غرامه بآماليندا أو آمال التي تحمل نفس الدم الذي يجري في عروقه، ونفس الشهوانية المتبدّلة، مع أنها زوجة لرجل سعودي مهم هو كمال وهي التي تقول له:

«في بلدنا المومسات أقوى من الملوك، إنهن قادرات على زعزعة الحكومات، وحتى على إزاحتها، إني أحبك يا سليمان ولن أتركك، ولو كان نمر مكانك لسلخت جلده»^(٢)

وسليمان يظل إلى نهاية الرواية شخصية ذكية عاقلة تعرف كيف تخفي عيوبها،

ومغامراتها. ولا يفقد مكانته إلا بعد مقتل الملك فيصل، وهي الشخصية الوحيدة كما أرى التي مرت وتحمل هذه الخصوصية «المتنوّرة».

الهوامش والحواشي:

(1) فتران الأنابيب «البخشيش» - ميشال كليرك - مراجعة وتقديم: سامي ذبيان دار المسيرة - بيروت 1978.

(2) المصدر نفسه ص 30

كلمة صغيرة بمثابة الخاتمة

لقد شئت لقراءتي النقدية هذه أن تكون موجهة إلى النقاط وتلمس خطوط وألوان وملامح الشخصية التركية في تجلياتها كما رسمتها أقلام كبار كتّاب العصر الحديث من عرب وسواهم، كما حاولت صادقاً أن أترك الفرصة للنص ليقول كل ما فيه دون اجتزاء أو تأويل أو تمخّل وقد أرفقت كل ذلك بمختارات تكمل الأجزاء التي جاءت كشواهد على ما ذهبت إليه من أراء أو استنتاجات.

وأزعم بعد كل ذلك أن جهدي كان موجهاً إلى النقاط أدق الجزئيات لكي أستطيع الإحاطة بكل جوانب هذه الصورة، وأرى أن كل تلك النصوص قد ساهمت في رسم قواسم مشتركة لهذه الصورة. وأترك للقارىء اكتشاف تلك القواسم.. فأرجو أن أكون قد وفقت.

نصوص مختارة

عروس فرغانة(*)

جرجي زيدان

. فخبجل المرزبان من ذلك الإطراء وسأله: - أقادم أنت توأ من العراق؟

قال: - نعم يا سيدي وقد وصلت إلى فرغانة مساء أمس.

قال: - وكيف فارقت القوم هناك؟

قال: - فارقتهم في شغل شاغل بالمشكلات وكل واحد يخاف صاحبه، ويحذره ويستعين عليه بجند من غير جنسه، وإنما السبق اليوم للجند التركي.

فقال: علمت أن الخليفة الجديد المعتصم بالله، استعان في تأييد خلافته بأخواله الأتراك فأعانوه وفي جملتهم الأفشين ملك أشروسنه وأنت.

فسره أن قرن المرزبان اسمه باسم الأفشين فقال: «إن الأفشين عون كبير للخلافة وأما أنا فلا أستحق الذكر».

فقطع المرزبان كلامه قائلاً: «- إن مستقبلاً مجيداً ينتظرك لما أعلمه من بسالتك وعلو همتك، إنك لنعم القائد البطل ولا شك أنك تقدمت في جند الخليفة.»

قال: «نعم أصبحت بفضل مولاي رئيساً للحرس.»

قال: «رئيس حرس الخليفة». قال: «نعم سيدي»

فبان السرور على وجه المرزبان والتفت إلى جهان كأنه يشركها في إعجابه بذلك التقدم السريع فرأى جهان شاخصة إلى ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتفقه ببصرها، ولو أدنى المرزبان أذنيه من صدرها لسمع خفقات قلبها، فالتفتت إليه وابتسمت ثم سكنت وعيناها تتكلمان كلاماً لم يفهمه وإن فهمه ضرغام.

وعاد المرزبان إلى الكلام عن الجند فقال: إذن في العراق الآن جند كثر من الأتراك؟

قال: إنهم يزيدون على عشرين ألفاً وفي جملتهم أبناء ملوك فرغانة الأخاشيد وغيرهم.

(*) ص 33-34، المكتبة الأدبية. بيروت. بلا سنة نشر.

أحمد بن طولون^(*)

جرجي زيدان

. فقال: « إن ابن طولون داهية كبير النفس، ذو تعقل ودهاء، ألا ترى أنه لم ينزل في الفسطاط؟ لما ترك قصر الإمارة والمسجد فيها؟ وابتنى لنفسه وجنده قطائع خارج الفسطاط بجوار المقطم أنفق فيها الأموال الطائلة؟

فأطرق اسطفانوس ولم يجر جواباً، فاستأنف أبو الحسن كلامه وقال: «اعلم يا بني أن ابن طولون هذا تركي الأصل، وهذا العصر عصر الأتراك، فيعد أن كانت الدولة للعرب، وكان قوادها وأمرؤها من العرب أخذت السيادة تتحول عنهم إلى الأتراك حتى أصبحوا أهل النفوذ والسطوة في بغداد وسامرا ومنهم أكابر الولاة والأمراء والأشراف، وأظنكم لحظتم انحطاط شأن العرب في مرافق الدولة في الفسطاط نفسها، حتى صار الولاة الأتراك يعدّون العرب منافسيهم ويخافون من إنتقامهم فلا يأمنون القيام بينهم فأخذوا يبنون المنازل الحصينة لأنفسهم خارج المدن التي يقيم بها العرب، وقد بدأ بذلك الخليفة المعتصم فخرج بأترাকে من بغداد وابتنى لهم مدينة سامرا، والفسطاط كما تعلمون بلدة عربية، فلما استتب الحكم لابن طولون، ابتنى القطائع بين الفسطاط والمقطم على بعد الماء عنها، واضطر إلى إنفاق الأموال الطائلة في جرّ المياه، وأظنكم تعلمون أن حبيبنا سعيداً قد أخذ على نفسه جرّ الماء إلى القطائع وأخبرني أن الأمير أنفق في ذلك مالاً كثيراً.

(*) ص 27 دار مؤلفات زيدان - بيروت، بلا سنة نشر.

على باب زويله^(٥)

محمد سعيد العريان

. كان جقمق الأشرفي تاجر الرقيق من نزلاء خان يونس في تلك الليلة وكان رجلاً كثير الرحلة بين مصر والشام وبلاد الروم ليتسوّق الممالك وكان له مكان ملحوظ في بلاط السلطان الأشرف قايتباي صاحب مصر لذلك العهد، فقد كان الأشرف حريصاً على أن يزيد عدد مملكته ليكون له منهم جيش قوي يرّد به عادية الأمراء الذين ينافسونه على العرش في داخل بلاده ويدفع به عن مملكته عدوان المغيرين من أمراء البلاد المجاورة، وكان ملك قايتباي يمتد من صحراء ليبيا إلى حدود اليمن وما وراءها شمالاً وجنوباً على أنه لم يكن يخشى أحداً من أمراء البلاد المجاورة خشيته ابن عثمان ملك الروم، من أجل ذلك كان دائماً على الأهبة فلم يكن له هم إلا زيادة جيشه بما يجلب له التجار من الرقيق الذي يتسوقونه من بلاد المشرق أو يظفرون بهم من سبي الروم والفرنجية، وكانت وظيفته « تاجر الممالك » في ذلك العهد وظيفة رسمية من وظائف الدولة لها إقطاع بعض أمراء البلاط وكان جقمق هذا واحداً من أولئك التجار الذين يركن إليهم قايتباي فيما يريد من هذا السبيل وكثيراً ما باعه من جلبانه غلماناً رقى بهم السعد حتى بلغوا مرتبة الإمارة في البلاط.

على أن جقمق في هذه الرحلة لم يكن قد وفق إلى شيء يطمع أن يحوز به رضا السلطان فلم يقع له في رحلته إلا غلام رومي اسمه خشقدم وهو فتى فيه مخايل من ذكاء وفطنة وفيه خبث وتدبير وكيد وله إرادة وعزم ولكنه غلام واحد.

(٥) دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة القاهرة - بلا سنة نشر .

في سبيل الحرية^(٥) الرئيس عبد الناصر

- أنت واهم يا طاهر أفندي، فيمجرد أن يتحرك العسكر من رشيد يرفع فردوغلي أغا خيامه المضروبة في الحماد ويمعن هرباً في قرى البحيرة حيث لا نستطيع إدراكه، ويجدها العسكر فرصة للنهب والسلب، وإذا كان فردوغلي أغا اقتلع أرزك وسرق مواشي الفلاحين فإن العسكر سيدمرون لك الأرض ويسرقون البيوت في القرى! لا يا سيد طاهر .. أنت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وتحتر طاهر، فإن منطق السلانكلي معقول، وقد حدث ذلك من قبل فعلاً، فهؤلاء الجنود من أخلاط الدولة العليّة يعدّون أي مكان ينزلون فيه غنيمة حرب... ينهبونه ويستبيحون محارمه، ويفرضون عليه الأتاوات، وهو لم ينسَ بعد ما حدث أيام الغزو الفرنسي فقد كان الفرنسيون المقيمون في رشيد يفرضون الإتاوات وينهبون البيوت والمتاجر. فلما أدخلوا البلدة وانسحبوا منها، دخلها عساكر الترك فاعتبروها غنيمة حرب مع أنهم لم يقاتلوا الفرنسيين عليها فاستباحوها ونهبوا متاجرها وبيوتها أيضاً.

«وما العمل إذن ؟ أتترك أنفسنا تحت رحمة فردوغلي أغا وأمثاله؟! »
«العمل هو ما قال السيد حسن كريت: يجب أن يكون للبلد عساكر من أبنائها.

(٥) قصة الرئيس عبد الناصر وهو طالب بالمدارس الثانوية. أمّتها: عبد الرحمن فهمي ص 108 - 109. طبع
وزارة التربية والتعليم. 1960

صخرة طانيوس^(٥)

أمين معلوف

في ذلك الزمن، كانت السماء واطئة إلى حدّ أن أحداً لم يكن يجرؤ على الإنتصاب بكامل قامته، ولكن، كانت الحياة قائمة فكانت هناك رغبات وأعياد، وإن لم يكن الناس يرتقبون الأحسن أبداً في هذا العالم، فقد كانوا يأملون دوماً تجنب الأسوأ. آنذاك كانت الضيعة بأسرها ملكاً لسيد إقطاعي واحد كان وريث سلالة طويلة من المشايخ ولكن عندما يحكى اليوم عن عهد « الشيخ » بدون إيضاح آخر، يعرف أن المقصود هو ذاك الذي عاشت في ظله لميا.

كان يلزمه الكثير ليكون من أكبر المتنفذين في البلاد، فبين السهل الشرقي والبحر، كانت توجد عشرات من الأملاك الأوسع من ملكه أما هو فكان يملك فقط « كفر يقدا » وبعض المزارع المحيطة بها، أي أن سلطته لم تكن تشمل أكثر من ثلاث مئة بيت وأعلى منه ومن أنداده كان يوجد أمير الجبل وفوقه باشاوات الولايات، باشاوات طرابلس والشام وصيدا وعكا وأعلى أيضاً أعلى بكثير قرب السماء كان هناك سلطان استانبول.

(٥) تعريب: جورج أبي صالح، منشورات ملف العالم العربي - FMA - بيروت، الطبعة الأولى . شباط 1994

الرغيف^(١)

توفيق يوسف عواد

- الخامس من أيار السنة 1916

وقفت الشمس في الشفق البعيد ترسل آخر شعاع من أشعتها إلى عالية، ثم جاءت غيمة كبيرة سوداء فحجبت وجهها بها وغارت في البحر، وامتد الظلام كثيفاً على المدينة فخنق فيها حتى الهواء، فما تختلج ورقة على غصن ولا تميل عشبه.

وكان القنديل في رواق السجن شاحباً، تندافع دخنته من الفتيل المجروح متسارعة متجاهدة، فيشهق لها النور ويرسل إلى الحيطان وإلى الغرف أجنحة خفافيش جبارة تضرب السقوف والزوايا والسجناء واقفون، لا يغمض لهم جفن، يشبكون أيديهم على النوافذ أو يتمشون ذهاباً وإياباً كأسود في أقفاص.

كانوا يحسون بالموت يرود حول السجن ويهمهم فما يسعل حارس أو يتحرك حتى تعلو القلوب في الصدور، وتطل الرؤوس على الأبواب وتتبادل العيون من خلال الحراب المنصوبة نظرات فيها البطولة والذعر، والتحدي والاستسلام، والسخرية والحقد، والإيمان والكفر، فيها من الحياة والموت كل أسرار الموت والحياة إذ يصطدمان على مفرق طرق ويتواجهان.

دقت الساعة التاسعة فانفرج باب الرواق وانتصبت فيه عينان وانطلق صوت:

- سعيد عقل : البس ثيابك واخرج.

فرأى القنديل الضئيل وجوهاً تميل ميلاً واحدة إلى زندان المختار ثم رأى شبحاً طويلاً يخرج مرفوع الجبين ثابتاً لا يلتفت يميناً ولا شمالاً فراققه رئيس الحراس إلى الباب ثم أقفله وراءه.

ومرت دقيقة .. دقيقتان .. عشر دقائق، كان الزمان ثقيلاً كجذع ضخم يجزّه حطاب عاجز، خمس عشرة دقيقة، ففتح الباب وظهرت العينان:

- الشيخ أحمد طبارة. البس ثيابك واخرج.

فجأراً المختار الثاني: لا إله إلا الله !...

ثم ردها بخشوع:

- لا إله إلا الله.

ولبس ثيابه وخرج، فلما تَوَسَّطَ الرواق، أجال نظره في رفاقه.

- أولادي، أولادي، أوصيهم بأولادي، قولوا لهم ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل....

ولم يدعه الواقف بالباب يكسّس فهجم عليه، وأمسكه من كتفه وقذفه ومضى ربع ساعة وعاد صاحب العينين والصوت:

- عمر حمد، البس ثيابك واخرج.

فغص القنديل غصة كبيرة وارتفع إلى السقف خيال ذراعين عظيمتين، كان عمر قد لبس ثيابه وتهياً من قبل، فلم يسمع اسمه حتى وثب إلى الرواق هاتفاً:

- إلى الموت إلى حياة الأمة العربية!.. إلي يا إخوان ننشد جميعاً

نحن أبناء الألى جردوا السيف سنا

فهرعوا والتفتوا حوله، وشدّ سامي كتفه بكتفه ودوت أرجاء السجن:

ومشوا في الأرض يجلون من الأرض سما

ودار عمر على رفاقه يعانقهم وهم ينشدون فلما وصل إلى سامي اغرورقت عيناه ثم مد يده إلى جيبه ودفع إليه ساعته وقال:

- احفظها تذكراً مني.. إذا لم تطلب الحرية دمك غداً.

فشدّ سامي على يد صديقه وأكمل:

نفندي الأوطان بالأرواح هانت ثمنا

وعند منتصف الليل أطبق الباب فلم يعد يمتح شقيقه، فالتفت الباقيون بعضهم إلى بعض وعدوا النقص ثم تجرّروا إلى حجرهم ينظرون إلى أماكن رفاقهم وقد استوحشت فليس فيها إلا حذاء تحت السرير مقلوب أو شملة على الوسادة بقناعة أو كتاب مفتوح على سطوره السوداء.

ثم اخترق الليل سهيل خيل ووسوسة حراب، ثم علت ضوضاء مبهمة وارتجت أركان السجن، وكرت العربات على طريق بيروت.. طقطق فاتكاً سامي على الشباك وأرسل بصره في الظلام فجالت بين أجفانه غبطه محروقة ثم نسّم الهواء فقطرها دمعته، ثم ترامت إليه أصوات من بعيد وبينها الصوت العريض الذي يحبه:

رن فينا صوتهم فنفضنا الزمننا

ومشيننا نترك الدرب موشى بالدمنا

فارتعشت شفتاه يرافقه من وراء شبابه بصوته الحار نشيد السابقين الذاهبين إلى الفجر:

علقونا سلماً للمجد

يتلو سلماً

وخيم على السجن سكوت مبغوت ثقبيل لا يسمع فيه إلا وقع قدمي رئيس الحراس في نزهته الأزلية الأبدية.

وما هي إلا دقائق حتى دخل رشدي بك ويده ورقة كبيرة فأمر شفيق أفندي فنادى السجناء، فلما اجتمعوا في الرواق أجال بصره فيهم حتى اهتدى إلى سامي:
- ألا تزال هنا؟!..

ومدّ يده إلى مسدسه ودفعه إليه، فترددت عينا سامي بين المسدس ووجه الضابط واختلجت أصابعه وهم بأن .. فإذا برشدي بك يسحب يمينه بالمسدس ويمدّ له بما في الشمال ويأمره:
- اقرأ على رفاقك.

وانصرف فتكفل السجناء حول سامي يقرأون معاً:

«بلاغ القائد الكبير عن تنفيذ حكم الإعدام بخائني الوطن..»

«... وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية، وجعلها إمارة مستقلة، فحكم على من يأتي ذنرهم هنا بالإعدام شنقاً: شفيق بك أحمد المؤيد العظم، الأمير عمر ابن الأمير عبد القادر الجزائري، عمر مصطفى حمد، رفيق بن موسى رزق سلوم، محمد حسين الشنطي، شكري بدري العسلي، عبد الغني محمد العريسي، عارف محمد سعيد الشهابي، توفيق أحمد البساط، سيف الدين أبي النصر الخطيب، الشيخ أحمد حسن طباره، عبد الوهاب الانكليزي، سعيد فاضل عقل، بترو باولي، جرجي موسى الحداد، سليم محمد سعيد الجزائري، علي حاجي عمر، رشدي أحمد الشمعة، أمين لطفي محمد الحافظ، جلال سليم البخاري...»

«.. ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم: شفيق بك المؤيد، الأمير عمر، شكري العسلي، عبد الوهاب الانكليزي، رشدي الشمعة، رفيق رزق سلوم، هؤلاء قد جرى إعدامهم في هذا الصباح في الشام في 6 أيار والآخرين جرى إعدامهم في بيروت وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منفاهم وحبوسهم.

وعلى هذه الصورة تقرر في سوريا وفلسطين السكون والأمن إلى الأبد».

قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال

شروال برهوم (أيام من سفر برك^(١))

نادية الغزي

- لا حظت أن جلسات أبي المسائية مع أصدقائه أصبحت سرية ومغلقة ولم نعد نوقد أي فانوس أو سراج لا في غرفة ولا في حديقة فكل الرجال كانوا خائفين من « سفر برك » ومن « أبي لبادة ».

أعوذ بالله وبكلماته الصادقات، ومن يكون هذا الرجل؟ من هو أبو لبادة؟ كانت المدن والقرى محصورة بالأسواق وكانت يومها تحت حكم جمال باشا وكان الأتراك يرسلون إلى كل مدينة وقرية في بلاد الشام واحداً من عساكرهم يغلب أن يكون من أهل قونية يتتبع بلبادة يضعها على رأسه. وهو بمثابة الشرطة العسكرية، أما تسميته في الجيش فكانت «قانون شاويش» وكانت مهمته البحث عن الهاربين وملاحقة المتخلفين عن الخدمة العسكرية.

والواقع أن السواد الأعظم من رجال الشام كانوا هاربين من العسكرية وغير طامعين بهذا الشرف المستعار.

* * *

فحككت بصوت عال حين عرفت كيف كان الناس في المدن والقرى المحيطة بدمشق بخاصة يتخلصون من «أبي لبادة» فما إن يظهر الرجل في أول السوق أو الحي حتى يصرخ أحد الناس «عباية» ويغم نداء «عباية».. «عباية» ويتردد من دكان إلى دكان، وفي القرى يتردد بين الحقول ومساكن الزيتون والكروم، ويهرب الرجال. يختفون يودون الرجوع إلى بطون أمهاتهم فما أن يصل «قانون شاويش» حتى يجد المكان قاعاً صفصفاً، ولربما وجد بضعة رجال هدّتهم الشيخوخة أو المرض جالسين على عتبات الدكاكين، الأعمى، والأكتع، والمشلول، والمسلول، والحرف.

ضحكت لكنني بكيت حين عرفت أن «أبا لبادة» كان يسوق الرجال رجالنا بالحبال إلى المعسكرات وأصبحنا جميعاً نعرف أن الذهاب إلى الحرب مفقود..

أيننا منك يا بلاد القفقاس؟ عسى سهولك وجبالك ومراعيك وتلوجك تحدثنا عن الدماء التي سفكت .

جدتي^(١)

جبران مسعود

. وكان « الترك » يحتلون من قصصها الحيز المرموق. فهم ملأوا البلاد وشغلوا الناس، فكان بديهيّاً أن يملأوا القرية الوادعة ويشغلوها وكانت جدتي حين تقص علينا قصة من قصص الحيات - هكذا كانت تسمي قصص « التراك » - تسترسل في الحماسة، وتحتشد في وجهها روايب من دم لا هو أحمر ولا هو أصفر حتى إذا ما بلغت من قصتها الذروة ضربت وجهها بكفها وقالت: - الله لا يعيدها هالك الأيام، الله لا يعيدها... يخرب بيتن ما كان أظلمن.

والحقيقة أن أمارات الاحتقار لم ترتسم أمام وجهي يوماً مثلما كانت ترتسم في وجه جدتي وفي كلامها حين تتحدث عنهم، كانت تستنزل على رؤوسهم الويلات وهم الذين « شمشطوا » زوجها إلى المجلس العرفي، وأعادوه قشرة من جلد على عمود من عظم وكانت ترميهم بالمعاصي، كل المعاصي، حتى ولو كانوا من بعضها براء، فالجراد من أعمالهم، والموت من أعمالهم، وإفقال باب البحر من أعمالهم، وعندما تنتهي من سرد مخازيهم، تختتم كلامها بهذه الآيات وقد احتقن الاحتقار في عينيها وشفثتها:

- الله يحققهن... كنا نطعمهن كمان... يطعمهن كاسات العمى.

الوباء (٠)

هاني الراهب

- عام 1916: وصلت الحرب العالمية الأولى إلى سورية.

وأثناء تراجع الجيش التركي ، عمّ الخراب بلاد الشام على نحو لم تعرفه منذ دخوله إليها قبل أربعمئة عام، ولأن المواسم فنية والمؤونة نهبت، والمواشي نفقت، والأموال أخذت، والرجال شنت، هام الناس على وجوههم هرباً من الموت، عشرات الآلاف، ولو كان عدد السكان أكثر لصاروا مئات الآلاف، هؤلاء تركوا بيوتهم وانساحوا على وجه الأرض من البوادي والسواحل تدفقوا إلى القدس، ومن بيروت وحوران إلى دمشق، ومن الجبال إلى حماه واللاذقية، ومن السهول إلى حلب وفي الشوارع كان صوتهم المسموع الوحيد: خبز!.. خبز! ومع متاعهم القليل البخس سرعان ما حملوا أمراضاً قاتلة، كان التيفوس أكثر تمسكاً بهم، لقد وجد القمل في رؤوسهم وآباطهم مزارع مستعدة، فتكاثر بأسرع مما كانوا يموتون ، لذلك ماتوا بأسرع مما عرفوا. تجمعوا في ساحات المدن وصاحوا: خبز!.. هناك ناموا وقاموا، بالوا وزالوا، ولم يأت الخبز، وإنما زمن يذكر انفتح بهم بطن الأرض واتسعت المقابر، وإنما زمن يذكر صاروا ينقلون إلى المقبرة على عربات تجرها الحمير، وفي حالة الرفاهية، تجرها البغال، وعند حفرة قطرها عشرون متراً وعمقها ثلاثة ، تدار العربة حتى تصير مؤخرتها فوق الحفرة لتفرز حملتها الشبيهة الهلامية، كان الزمن يتم ببطء منح القمل فرصة للدب خارج القبر، وبعض الموتى فرصة لرفع رؤوسهم ومسح المكان بنظرة، قبل أن يهال عليهم التراب.

(٠) ص 13- 14 منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق .

الطريق إلى الشمس - تشريةة آل المر^(*)

عبد الكريم ناصيف

بعد ذلك وجد رئيس المخفر أنه سيعود خالي الوفاض فأرغى وأزبد وأقسم بالبواب العالي الممجد أنه لن يغادر الريحانة إلا بثلاثة على الأقل ممن جاء في طلبهم ولو أطبقت السماء على الأرض.

وكانت الطاقة الكبرى بالنسبة إلى « الريحانة » ومختار الريحانة، فقد مضى هذا هنا وهناك، يفتش، يسأل، لكن الجميع غائبون.. هو يعلم أن نذير الخطر قد إنتقل إلى كل بيت وأنه ما من أحد يرضى أن يليي نداء السلطة « العلية » في الآستانة السلطانية لكن ما تراه يفعل؟ الدرك رابطون في منزله ورئيسهم يجيش كالبركان على أتم الاستعداد لأن يطلق حممه في أية لحظة، والمختار يعلم تماماً ما تعني تلك الحمم.

ثلاثون سنة من الأخذ والعطاء مع « العصملي » علمته الكثير، هم أناس لا تعرف الرحمة قلوبهم، بل ربما هم بلا قلوب البتة، ما يريدونه يصلون إليه باللين، بالشدة يصلون، كم تراه عانى منهم طوال هذه السنين، يأتون إليه في طلب الميرة، حنطة وشعيراً وعليه أن يقدمها سواء كان في القرية حنطة وشعيراً أم لم يكن، أحياناً يطلبون رؤوساً من البقر أو شياهاً أو ماعزاً بل وفي بعض الأحيان يطلبون الدجاج والبيض، وكان يتساءل في سره.. دولة عظيمة على رأسها خليفة عظيم تنزل إلى مستوى الدجاج والبيض؟ لكنه لم يكن يملك إلا أن يقدم لهم ما يطلبون.. وها هم اليوم يطلبون رجالاً إنها الحرب.. ورحى الحرب لا تدور إلا بالرجال.

« سفر بلك » كان قد بدأ منذ أشهر، المختار سمع به.. في المدن، في القرى القريبة من المدن، كانوا قد شرعوا يجندون الرجال، لكن الريحانة بعيدة في أعلى الجبال، فمالهم وللريحانة؟

خمسة عشر شاباً يريدون من الريحانة، فكيف يعطيهم إياهم؟ زهرة شباب القرية، خيرة أبنائها، ترى أمن العدل أن يقطعوا تلك الزهرة ويمضوا بخيرة الأبناء؟ هو بين المطرقة والسندان لا يملك إلا أن يندفع تحت ضربات المطرقة إلى خلايا السندان يبحث في بيوت الريحانة عن شبان أفرنقوا قبل حين من الزمن في كل إتجاه.

رغم ذلك لم تكسر كلمة رئيس المخفر ذي الشارين المعقوفين اللذين يقف عليهما الصقر. فقد ظل متربصاً إلي أن أمسك بثلاثة من الشبان ودعتهم القرية بولولات النساء وآهات الرجال وبأنهار من الدمع والأحزان، فقد كان الكل يعلم أنه وداع بلا لقاء.

المذابح في أرمينيا^(*)

فائز الغصين

أنواع القتل والاتلاف متنوعة، أما في ولاية بتليس فقد روى لي أحد الضباط أن الحكومة تجمع الأرمن في المتابن وتضع تبناً كثيراً في القسم الذي يلي الباب وتحرق التبن فيموت الأرمن الذين هم داخل المتبن من الدخان. وقال لي أنها كانت تضع المثات في متبن واحد بعض الأحيان وبعض الأحيان تقتلهم بصورة أخرى. وقد زادني حزناً لما قال لي أنه رأى عروساً ضمت عريسها إلى صدرها وتلقت الموت غير وجلة ودخلت المتبن .

أما في موش فقسم من الأرمن أتلّف بالمتابن والقسم العظيم أتلّف رمية بالرصاص وطعنًا بالسكاكين. وكانت الحكومة تستأجر قصايين، تعطي لكل واحد منهم ليرة عثمانية يومياً. وقد قص علي أحد الأطباء ويسمى عزيز بك بأنه كان في قضاء مرزيفون من أعمال ولاية سيواس وعلم أن قافلة من الأرمن سترسل للقتل فذهب لعند القائمقام وقال له: تعلم أيها القائمقام إنني طبيب ولا فرق بين الجزارين والأطباء إذ أن الأطباء يشتغلون بتشريح الإنسان في أكثر الأوقات. ولما كانت وظائف القضاين في هذا الآونة كوظيفتنا، أي تشريح أبدان الإنسان فأرجو أن تأذن لي بالذهاب لأرى هذه العملية التشريحية بأمر عيني. فرخص لي وذهبت فوجدت أربعة من القضاين، بيد كل واحد منهم مدية طويلة وأفراد الدرك يفرقون كل عشرة من الأرمن على حدة ويرسلون الواحد بعد الآخر لعند القضاين فيقول القصاب للأرمني: مد رقبتك فيمدها فيذبحه ذبح الغنم. وكان يتعجب هذا الطبيب من إقدام الأرمن على الموت دون أن يتكلموا بكلمة أو أن يظهروا خوفاً.

وكان أفراد الدرك يربطون النساء والأطفال ويلقونهم من محل عالٍ جداً إلى أسفل فلا يصلون إلى الأرض إلا قطعاً وإرباً. وهذا المحل هو بين ديار بكر وماردين على ما يقال وعظام القتلى فيه كالتلال إلى الآن.

وقال لي آخر أن حكومة ديار بكر كانت تقتل الأرمن رمية بالرصاص وتارة بواسطة القضاين وآونة ترمي بكثير منهم في الآبار والمغاور وتسد عليهم تلك الآبار والكهوف فيهلكون. وبعض الأحيان يرمون بهم في الدجلة والفرات. وقد فشلت الحمى النمشية من هذه الأجساد.

(*) حلب 1991 . مطبعة أريبليك. ص 35 - 36 ضمن منشورات اللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية .

أوراق الليل والياسمين - فيصل خرتش (١)

. قرب أرزنجان، وكيف وقف عساكر الخيالة من الفرقة 86 وكمنوا أمام صخرة في جبل كاماخ وعندما حصرروا الناس في ممر الجبل وراحوا يطلقون النار عليهم، قتلوا عشرين ألف رجل وخمسة وعشرين ألف امرأة، طبعاً لا تصدق هكذا قال له الأرمني العجوز الذي يحدثه بذلك، لقد اختار الرب هذا الشعب ليضحي به ويغسل أخطاء البشرية في ديار بكر. هكذا قالت السيدة التي كانت تبكي أخذوا أكثر من ست مئة ووضعوهم في طوافة ودفعوا بهم في نهر دجلة، لم يصل أحد منهم، امتلأ النهر بجثثهم وأطرافهم، ماذا فعلوا لهم، لا شيء إنهم مجموعة من المسنين والنساء والأطفال، ليذهبوا إلى أولئك الذين يقاومونهم إنهم لا يستطيعون الاقتراب من جبالهم، لقد دكوا البيوت بالمدفعية ليحاسبهم الله على ما اقترفت أيديهم، لقد وصلت رائحة الجثث إلى السماء، وأهلك مرض التيفوئيد من تبقى واستطاع أن ينجو من المجازر.

أما في موش وبتليس فإنهم أحرقوا السكان وهم في بيوتهم، هذا لا يصدق، قالت المرأة ذلك، ثم أعولت وهي تصرخ ليتني أموت أنا الأخرى لم يبق لي أحد، كل أهلي دفنوا أحياء تحت الانقراض حتى محصول القمح لم ينج من أيديهم، لقد أحرقوا الزرع أمام عيوننا يا إلهي، ماذا فعلنا كنا آمنين في بيوتنا فماذا حصل؟ لم يستطع هشام أفندي أن يتابع بقية الأخبار وأصيب بالغثيان لهذا الذي يحصل، ذهب إلى الغرفة في الخان واستلقى على الفراش، لم يستطع أن يفعل شيئاً حتى أنه نسي أن يأكل فقط استلقى وظلت عيناه مفتوحتين يحرق في أعمدة السقف الخشبية وقال جملة واحدة فقط: يا إلهي لمن سيشكو هذا الشعب آلامه؟

(١) دار النافذة - أثينا - اليونان - نادي الشبيبة السورية - اللجنة الثقافية - 1994 - ص 130 - 131

رياح الشمال (السوق الصغير)^(١)

نهاد سيريس

. جلس مدحت باشا على الأريكة الخشبية فصرّت من تحته، خلع طربوشه الأحمر ومسّد مثانته التي تكورت إلى الأمام، الغرفة نفسها، واللون الأبيض الناصع نفسه ولم يتغير السرير أو مكانه ولا المدفأة الحطبية. تطلع إلى الباب فوجدها واقفة عند العتبة وقد كتفت يديها على صدرها وكأنها تحمي عنقها كانت تلبس الأسود، حتى قشطة رأسها كانت سوداء وجواربها أيضاً، لا تتعل صندلاً وكأنها لا تحس بالبرد من ملامسة أرضية القبة الحجرية الملساء.

قال لها بصوته الجرش وهو يريد أن يبدي لطافة:

- تعالي اجلسي بجانبني، ألم تشتاقي إليّ؟ أنا مدحت باشا.

كأنها لم تعرفه هكذا تحسب، فقد كانت واقفة ببلاهة مشدوهة كيف تجرأ هذا الخبيث اللعين بيده هذه البيضاء السمينة قتل زوجها ميخائيلس، لقد جاء إليها هكذا بدون علم، دخل وأرسل حارسه إلى ساحة القرية لينتظره وهنا في هذه الغرفة بطحها على السرير وقذف نفسه فوقها، قاومت، عضته بأسنانها، خرمت رقبته بأظافرها إلا أنه استطاع أن يمزق سروالها، وعلى حين غرة أحست أنه ولجها فاستسلمت، كيف للمرأة ألا تحس باللذة وهي تغتصب؟ إنه من حقها على الأقل، فهذا أيضاً سلاح، شعرت بنفسها تبكي، حينذاك إنهمرت دموعها، عفتها المسكينة الضائعة، شرفها المهذور تحتاج لبعض الدموع وعندما قذف زجر من أنفه، تصلب وهمس مم.. مم.. ثم إنفك عنها، إلا أنها أحست بغثيان يقلب أمعاءها وراحت تشهق وهي تبكي وتكورت على فراشها وماؤها يسيل منها مدراراً لماذا يقذف الجنود كل هذا الماء؟ نهض آنذاك مدحت باشا وراح يصلح سرواله عندما انفتح الباب، دخل زوجها وتسرّع عند العتبة منشدها مثلها الآن إلا أنه تجاسر وراح يصيح باليونانية، نثر اللعاب على وجه مدحت باشا...

هذا اللعين القذر إلا أنه لم يتفوه بكلمة واحدة، أخرج مسدسه من حزامه بهدوء شديد، لقمه، بسط يده موجهاً المسدس إلى رأس الزوج ثم لفظ كلمة أو كلمتين، فهمت أنه كان يقول: ابن الزانية. ثم أطلق مباشرة على رأسه اخترقت الرصاصة صدغه وخرجت من الطرف الآخر ودخلت في الجدار خرّ ميخائيلس صريعاً، يفر الدم منه كنافورة ماء، ميزت فروساكي آنذاك الأصوات وكل الحركات، سقط الزوج على الأرضية وهو ينتفض ويخور وسرعان ما استكان، لم يغمض

عينيه، بل كان يتطلع بجزع إلى أسفل السرير والدم يسيل ببطء هذه المرة دون صوت وهو يكون بحيرة حمراء قانية والجسد يسبح فيها، أما مدحت فقد أعاد المسدس إلى حزامه ثم تطلع إلى بنطاله الأسود وبوطه العالي حتى الركبتين، فقد تلوث بالدم، ثم وضع طربوشه، أمسك عصاه وخرج إلى صحن الدار منتشياً.

رياح الشمال 1917^(*)

نهاد سيريس

. وتابع قائلاً:

- لقد حكمنا الأتراك مئات السنين، وهم في كل سنة يولون علينا والياً بالمراد ثم يقلبونه ليعثوا إلينا بغيره ليقوم بنهبنا أكثر لأنه دفع للسلطان مقطوعاً أكثر إنهم يأخذون الأعشار تلو الأعشار، انظروا إلى هؤلاء الباشوات، إنهم يعيشون كالأمراء بينما نحن نموت من الجوع. وأنا قادم إلى هنا رأيت النساء في قسطل المشط جالسات على الأرض يمتن من الجوع بينما الباشا في قصره والسلطان في يلدز يأكل بأموالنا ويطعم حاشيته.. هل هذا يجوز؟

تطلع في الوجوه وهو مندهش لقد استطاع دولا به أن يدور، كانت العيون تحدق إليه دون أن ترف. كان الشيخ وحده مطرقاً بينما الآخرون لا يأتون بحركة، كيف استطاع أن يقول كل هذا الكلام وبهذه الطلاقة؟ إنه يتقدم. هكذا فكر، ثم خطر بباله أن يسرد عليهم ما يعرفه عن الباشا والي حلب، لا شيء إلا كي يروا كم هو فصيح وخطيب ويعرف الكثير، أراد إدهاشهم أكثر، قال وقد بدا يحرك يديه وقع كلامه:

- وهل تعلمون يا شباب لماذا ينهبوننا؟ لأنهم يرسلون الأموال والحبوب إلى الجيش الألماني والجيش العثماني، لأنهم يريدون الاستمرار في هذه الحرب، لأنهم يعيشون ببطر ليس له مثيل (سأل البقار) أنت تموت من الجوع أليس كذلك؟

- إي بالله أجب البقار.

فتابع صالح وهو يلمس كتفه:

- نعم أنت تموت من الجوع ولكن الباشا العثماني متخوم من الأكل، هل تعلمون أن للباشا رجلاً يشرف على حمامه يسمى الخراماجي باشا؟ وآخر يقدم له المشروبات والمربيات هو المعجون أغاسي؟ وشخص يهتم بتدخين الباشا هو التتنجي باشي؟ وهل تعلمون أن هناك من يهتم بتياب الباشا الداخلية هو الشماشرجي باشي؟ وبمناشفه هو المحرمه جي باشي؟ وبابريق التشطيف الخاص به اسمه الإبريقدار آغا؟ حتى أن للباشا مستخدماً خاصاً ليحمل أذنان خيله هو التخشي باشي.

(*) ص 215 - 216 إبداعات جديدة 2000-1993 حلب .

مدارات الشرق - الأشربة (١)

نبيل سليمان

هل عاش العم حاتم ذلك حقاً؟! النعش يشكك ويطوي أوهامه وهو الذي لم يكن قد فكر بالزواج يوماً، ولا في النساء، مثلما سوف يغدو بعد أن جزوا رقبة شتاً، كان أقرانه يسخرون منه قبلها، كما سوف يسخرون منه بعدها، ولكن الشيخ قرأ الفاتحة مباركاً، ولم ين يضحك طوال الوقت، متعجباً من الدنيا، الشبيخة حربة أيضاً كانت لا تني تضحك وتوصيه بـ شتاً، وهو ينكر أن يأمر الشيخ زوجته الأولى بأن تخلي مكانها للعروسين، كان الشيخ لا يفتأ يسأله عما إن كان مزق الورقة التي زوده بها أم أنه ما زال مصمماً على السفر إلى استانبول حيث سيذبحون له زوجته ويذبحونه معها ولم يكن قادراً على الجواب، كان ثلماً بدون بطحة عرق، والشمس تشرق وتغيب على هواها قبل أن يصحو على الحصان والجمل والعبد وبندقته، ينتظرون أسفل الدرج وهو يودع الشيخ وعشرات من النساء والرجال والأولاد تقدمهم الشبيخة يلوحون ويودعون ويضحكون.

لماذا أصرّ قبل أن ينتصف النهار على العبد أن يعود بالحصان والجمل؟ لماذا انطلق وشتاً كل يحمل صرة، أعزلين ووحيدين؟ هل كان السكر بدون العرق قد عاوده؟ لماذا استجاب العبد له؟ هل كان يكفيه أن يعرف تلك الطريق؟ من حيث تركه العبد إلى أي مكان في الدنيا، مثلما يعرف الطريق من المحطة إلى بيته هذا أو بيت الشيخ رزق؟.

كانت شتاً تهدل مثل الحمامة البيضاء التي توشك أن تطير، كانت استراحتهما الأولى قرب أحد الغدران، جمع الخطب وأوقد النار دون الحاجة إلى الدفء، توقدت وجنتها وصهل في عروقه الحصان، على العشب استلقيا يلتحفان السماء، أتت النار على إحدى الصرتين وهما يتمرغان، أيقظتهما رائحة النسييس بعد حين فنهضا يضحكان، وإذا بالخيالة والبواريد تلوح، شرقي الغدير توقفا ريثما يعبرون، لكن الخيالة تسوروا حولهما وفي ومضة عين كان كل شيء قد انتهى، أمره أحدهم أن يرمي بما يحمله من نقود، أمر آخر بأن يناوله الصرة التي لم تحترق، أقسم ثالث أن البنت أرمنية وقفز "على" حصانه مشرعاً السكين، قفز آخرون يكتفون العم حاتم، وأشرعت سكين فوق رقبته وجعرت الأصوات:

- انطق بالحقيقة يا كلب.

اندفعت شتماً إليه مولولة تصيح:
- اتركوه كرمي لله.. أنا أرمنية فما ذنبي؟
رماها أحدهم على الأرض وحزّ رقبتهما فيما دفعه الآخرون:
- لا تنظر خلفك.. اجر.. اجر..
وحين جرّو على أن يلتفت إلى الوراء كانت الشمس قد غابت. كان قد نأى عن الغدير
والذبيحة ولم يجده أن يعود ويبحث عنهما طوال الليل وهو موثق.

* * *

من ذلك المكان تاهت به الطريق طويلاً، لم يعرّج إلى حيث ما يزال له أهلون وأقران كان يسير
دون أن يدري في البداية إلى استانبول، ظل عاجزاً عن النطق حتى ديار بكر كان كل ما يصادفه
يزيد لسانه شللاً، ليست جثة شتماً وحدها إذن، إنها جثث صبايا وأطفال وشيوخ، مذبحين
وأحياء، لا فرق، إنها قطعان البشر تطلع من مكان إلى آخر، بعضها يحرسه الدرك وبعضها سائب
وهائم، إنها الحكايات التي تزيد السمع شللاً أيضاً، فليست هذه المرة الأولى التي تشهد فيها هذه
الأرض ما تشهد منذ عشر سنوات أو عشرين وربما منذ أكثر أيضاً، كانت قوافل الشركس، واليوم
هي قوافل الأرمن. والدرك وسوى الدرك يشكون أحياناً في الشاب الشريد الأخرس الأطرش،
يأمرونه بالكشف عن قضيبه، وإذا يتأكدون من طهوره، يبعثونه حياً من جديد.

بفضل قضيبه استطاع أن يحافظ على عنقه، حتى أفضى به تيهه إلى ديار بكر فأصابه المسّ،
لازمته الحمى أياماً في أحد الخانات، ولم تفارقه شتماً، مرة كانت تنجلي في المرأة التي ثقت بثديها
الأيمن رصاصة وثديها الأيسر رصاصتان، مرة تعود طفلة شقراء شقت رأسها ضربة فأس أو فراعة
ورميت على الطريق الفائرة بالزهر الأصفر، مرة كانت شتماً تكبر وتلد له أطفالاً كثيرين رآهم ثمة
في واحدة من برك الماء على حافة غير مزهرة، مختبئين في الماء وشمًا مشلوحه قريبهم، معفرة ولا
أثر للسكين في عنقها، لا رصاصة في أي من حلمتي ثديها، بيد أن ساقها مفتوحتان إلى أقصى
ما يسعهما، كأنها لائبة على من يشرع قضيبه ويأتيها....

النظرات (١٠)

المنفلوطي

. أراد داود باشا - أحد وزراء تركيا في العهد القديم - أن يتعلم اللغة العربية فأحضر أحد علمائها، وأخذ يتلقى عنه علومه عهداً طويلاً، فكانت نتيجة عمله ما ستراه.

سأل شيخه يوماً: ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرح به هذا التبريح الأليم؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الإنتقام لنفسه، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير؟ سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ويضرب الأرض بقدميه، فأجابه الشيخ: ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين، فلم يعجبه هذا الجواب، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية، فغضب عليه وأمر بسجنه، ثم أرسل إلى نحوي آخر، فسأله كما سأل الأول، فأجابه بمثل جوابه فسجنه كذلك، ثم ما زال يأتي بهم واحداً بعد واحد، حتى إمتلأت السجون، وأفقرت المدارس، وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها، ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد، فأمر بإحضارهم، فحضرُوا وقد عرفوا قبل الوصول إليه. ما يراد منهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحدق بعينه، فأجابه رئيس العلماء: إن الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال، فانبسطت نفسه قليلاً وبرقت أسارير وجهه وأقبل على محدثه يسأله: ما هي جنايته؟ فقال له: إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو، فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله - يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود - فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب وقال لرئيس العلماء: أنت أعلم من أقلته الغبراء، وأظلمته الخضراء، فاقترح عليّ ما تشاء. فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين، فأمر بإطلاقهم وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلوات.

(٥) الجزء الثاني ص 15-16، المكتبة العلمية الحديثة - لا توجد سنة للنشر .

الهدس^(٥)

ابراهيم الخليل

- إنك تبدأ الآن رحلتك الجديدة والقديمة يا ساكو.

تنده كالموجوع : آني، ديكران، فلا يجيب سوى صمت البوادي ورسوم التلول وعاقولها
وقندريسها البري، وجع يدفع وجعاً، وجرح يواسي جرحاً، من يرفأ هذه الجروح يا ساكو، من يبل
القلب الظمآن بغمر أو دوين الغمر؟ من ؟!

من وان وزيتون وتبليس وسيواس وخربوت وأورفة ومرعش، من تكرداغ، وبر: جيلك، وسكي
شهر، يبدأ حزنك الأرمني وضياحك الأرمني وموتك الأرمني ودمك الأرمني الذي بات أرخص
من التراب. من البيوت التي داستها أحذية الجندرمة، وأخلتها من ضحكات الفرح، ونور الأنس
والسرور، وتركتها للنهب والحريق وصلصال الدم، للنخوازيق والحراب والأعراض المهتوكة، للقميل
الذي ولد من عدل ومن ظلم، لحمى التيفوس التي حصدت بمناجلها سنابل الزرع الأرمني.
للجندرمة يرفعون رؤوسهم عالياً ويهتفون باسم أتاتورك العادل وتركيا الفتاة.

ثلاثية سبيل الشخص^(*)

عبدہ جبر

. تذكرت « الغوري » وغيره من السلاطين وحريمهم وما كانوا يفعلون مع حريمهم الكثيرات جداً، وقلت: يا لها من حياة حقيقية فقد كنت طوال عمري أودّ أن أفعل مثل هؤلاء السلاطين ولا أخرج من الحرمك أبداً بل أنام هناك طوال الوقت وأشرب الشيشة والمنزول وأفعل كثيراً وأسمع حكايات ألف ليلة وليلة وخصوصاً حكاية الجنية والملكين شهريار وشاه زاد وما فعلاه معها تحت الشجرة، وأسرح في بلاد خلق الله عندما أحب وأينما أكون وأخذ معي أجملهن وأذهب لأصطاد الغزلان في الغابات وأشويها وأكلها وأنام معهن أيضاً في الهواء الطلق، والبازي يحوم من حولي.

(*) ص 8- دار التنوير - بيروت - 1983

ثورة العرب^(*)

أسعد مفلح داغر

- نحن أيها السادة أتراك، وإني لأعجب من تسميتنا عثمانيين. فمن هو عثمان الذي نتسبب إليه؟ إنه تركي جاء من آلتاي واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي، فانتسابنا إلى أصله أشرف من انتسابنا إليه، ولقد خدعنا بجهل أسلافنا في الماضي فبئس الأسلاف الذين أنسونا قوميتنا، إنكم أيها الأعزاء ستلحقون بالجيش قريباً وستكونون أساتذة جنودنا الأبطال، فعلموهم أنهم ترك وأنهم إذا حاربوا العدو من أجل الترك وتحت العلم التركي ينتصرون عليه ويحرزون ما أحرزته البلجيكي من المجد والفخر وتأكدوا أن التركي خير لنا من الإسلام. وإن التعصب للجنسية من أكبر فضائل الهيئة الاجتماعية.

* * *

فقد عثر ضباط العرب سنة 1912 في بولايير على كتاب من أحد زعماء الاتحاديين إلى قائد اتحادي كبير جاء فيه: «عرضوا العرب لرصاص العدو، واعملوا على التخلص منهم لأن قتلهم يفيدنا، أما الكرد فاحتفظوا بهم لأنهم يلزمون لنا في بلاد الأرمن.»

(*) الطبعة الثانية. ص 145- مطبعة مطرانية الأرمن الأرثوذكس، حلب. ضمن منشورات نادي الشبيبة السورية

- اللجنة الثقافية. حلب 1989

عودة الروح^(١) توفيق الحكيم

وصل القطار أخيراً إلى محطة (دمنهو) فأطل محسن على الرصيف ووجد بانتظاره البربري
السفرجي والأسطى أحمد الحوزي وما كادا يتعرفانه حتى تعلقا بمركبة القطار وصاحا:

- حمد الله على السلامة يا بيه.

- شيل العفش يا بلال واسبق.

- والبيه الصغير.

- أنا أوصل البيه الصغير.. تفضل يا بيه.

وهكذا أنزل الفتى وسار بين الخادمين كالمستغرب، وكلمة (بيه) ترنّ في أذنيه رنيناً غريباً، غير
أنه لم يكره ذلك هذه المرة، وشعر بشعور وركب العربة ذات الجياد تتهاذى به وسط هذه المدينة
المتواضعة والناس على جانبي الطريق في المقاهي والدكاكين ترمقه، وكأنها تتساءل عن هذا الفتى
الراكب عربة الوجيه المعروف، وبلغ المنزل وإذا والدته تنتظره بأعلى السلم، فما إن رآته حتى
فنتحت ذراعها، وما إن رآها حتى اندفع إليها في حركة غريزية، وإذا هما متعانقان، والأم تلمع في
عينها دموع التأثر والفرح، وكلما فرغت من عناقه عادت إليه.

وأخيراً أخذت تفحصه من رأسه إلى قدميه، وتجسّه، وتلمس أعضائه كأنها تتفقد عضواً
عضواً، وفي النهاية ابتسمت وقالت:

- بسم الله ما شاء الله. إنت سمنت يا محسن.

ثم أدخلته إلى الردهة وأجلسته بجانبها، وطفقت تسأله عن مصر وعن عمته وأعمامه..
وعندئذ دخل أبوه فنهض محسن وهرع إليه يقبل يده ثم وقف حتى جلس أبوه فجلس
وحينئذ سأله أبوه:

- إيه يا محسن إزاي إمتحان وسط السنة.

فتململ الفتى قليلاً وقال:

- مفيش السنة دي امتحان وسط السنة. لغوه.

فقال أبوه في شيء من الدهش والأسف:

- لغوه إزاي، ما لهنش حق أبداً.

وظف بعدئذ يسأله عن الدرس وعن أساتذته وعن امتحان الكفاءة الذي سيتقدم إليه محسن هذا العام إلى أن تدخلت والدته قائلة لزوجها منتهزة:

- يا باي عليك، مش تصبر عليه لما يأخذ نفسه؟ أيوه إسأله الأول عن صحته وعن صحة أعمامه، إيه قلّة الذوق بتاعتك دي.

ثم نظرت إلى حذاء زوجها وقالت:

- برده لابسها.. مش قلت لك إقلع جزمته دي؟ ما يلقش بمقامك أبداً تلبس جزمة زي دي.. إنت عندك جزم كثير ليه بقا تلبس دي؟ إنت مركزك صغير في البلد؟

فأجابها الزوج وهو يخلعها:

- أنا نسيت. حاضر يا هانم.. ما تزعليش.

- يا علي.. يا علي..

فلقي نداءه بربري آخر، غير الذي رآه محسن في المحطة وكان لابساً قفطاناً أبيض، وتمنطقاً بحزام أحمر، فأمره البك الكبير بإحضار حذائه على عجل.

وجعل الفتى محسن عندئذ يجيل النظر فيما حوله من طنافس عالية ورياش فاخرة، ونقل بصره في أدب إلى والدته، ونظر إلى ما عليها من ملابس ثمينة.

وكانت والدته في تلك الأثناء تنظر إليه هي الأخرى فما لبثت أن قالت:

- لبسك مش عاجني يا محسن.

فغمغم الفتى بكلمات مبهمه، واستطردت الأم تقول:

- إنت ما طلعتش زيي أبداً!

وهنا تنحنح أبوه وقال:

- ولازي.

فالتفتت الزوجة إلى زوجها وقالت في تهكم:

- من إمتى يا حضرة العمدة الفلاح. إنت تنكر إني أنا اللي مدنتك وعلمتك الأبهة.

فأجاب زوجها متقهقراً:

- الله.. وأنا قلت حاجة؟ طبعاً إنت يا هانم تركية بنت أتراك فسكنت قليلاً ثم إنصرفت عنه إلى محسن وقالت:

- صحيح، شيء غريب، محسن ما طلعتش زيي.. من صفره كان يكي ويصرخ نهار ما أبعت له العربية الملاكي على باب المدرسة. فاكر؟!

فقال أبوه وهو يشدّ جواربه الحريية العالية:

- فلاح!.. تقولي له إيه؟..

فأطرق محسن لدى سماعه هذه الكلمة وقد أحس عاطفة كالازدراء لا يدري لنفسه أم لغيره.

القاهرة الجديدة^(١)

نجيب محفوظ

- وسارا في الطبيعة إلى اليخت، ولم يكن محجوب يحب صاحب اليخت وقد بدأ يخامره النفور نحوه منذ لبى دعوته إلى الفانتزيو، قرأ في عينيه الجميلتين آي الإعجاب بزوجته فامتعض وتميز من الغيظ ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضي بعين المقت والغضب.

وكان اليخت صغيراً ولكنه جميل أنيق، وكان مكوناً من طابقين. بالأول المقصورات، والثاني سطح مسور اصطفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة وفي المقدمة منه امتدت الموائد حافلة بما لذ وطاب وقد أمر «عفت بك» بالإبحار فرفعت المرساة، وأبحر اليخت ميمماً شطر الشمال. في هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقي صاعداً من وراء النخيل. هكذا بدأت الرحلة.

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقارنين، وراحوا يسمرون في جو لطيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيداً عنه في هالة من الإعجاب والمعجيبين فذكر أيام كان يطالعهما عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة، بيد أنه رآها الآن أبهى ما تكون جمالاً وسحراً، واستشعر الهوة العميقة التي تفصل بينهما، وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة فرأى علي طه - في حالتي سروره وحزنه - وعم شحاته تركي والوزير وسالم الإخشيدي ومخدعده بعمارة شليخر، ووجد نفسه يتساءل : أيفضل لو كانت إحسان له قلباً وجسداً في بيت زوجته هاديء، شريف، ولو كان موظفاً صغيراً بلا مجد، ولم يجد الجواب حاضراً، أجل كان طموحه قوياً كعاطفته، بل لعل طموحه أقوى، ولكن ما جدوى المفاضلة، وألقى بنظرة إلى النيل يتسلى ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ في الصعود والصفاء، كلما امتدت ظلمة الليل أذكت نوره وبهاءه، ولكن لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها، وكان يلذ له أن يقول : إن الهيام بالطبيعة مفسد للعقل ومصدر منذ الأزل للجهالات لا تزال نرسف في أغلالها وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ في الفجر للصلاة والعبادة؟ وكيف كان يقلب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو «والليل إذا يغشى» «والسماء والطارق» بصوت حان وعيناه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة، ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشباب من يعشق الطبيعة وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم في شغل عن الدنيا بأنفسهم وسمع أنه فيفي تتساءل في إغراء :

- لماذا لا نرقص؟

فقال علي عفت من فوره:

- ارقصوا إذا شئتم ولكن هل ترقصون بلا موسيقى؟

فقال أحمد عاصم :

- ابشروا لقد أحضرت معي موسيقى اليد.

وتصاعدت أصوات الاستحسان ودارت العيون لتصيد الأحباب، وتناول أحمد عاصم آله ولعب عليها وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها الراقصة ونهض الجميع للرقص إلا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه وعفت بك الذي آثر أن يجلس إليهما، وجعلوا يشاهدون الراقصين في صمت وإعجاب، ثم أعلن عفت بك إنكاره لجهلها الرقص وقال لإحسان :

- سأعلمك الرقص فإنه لا يجوز أن تجهليه .. ما رأيك ؟

فتمتعت وعيناها لا تفارقان الراقصين

- لا أدري.

- غريب من يجهل الرقص في الحفلة الرائعة، أليس هذا رأيك يا محجوب بك؟ فشعر محجوب بالخطر المحدق به وأراد أن يزوغ منه فقال بعد اكتراث :

- لا أظن.

فضحك عفت ضحكة عالية وقال:

- يالها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر.

وضحكت إحسان لضحكته وقالت:

- قد نتلمذ يوماً ما.

فلاح الحماس في وجه الشاب وقال بسرور نياض :

- في أي وقت تشائين.

ولازم محجوب الصمت متظاهراً بالاهتمام بمراقبة الراقصين وهو يكظم حنقه وثورته. إن الشاب الأحمق، التباه بجماله يتحفز للانقضاض على عرضه وإنه لفاعل إذا وجد غزوه، ولكن هيهات أن ينهزه فرصة، فليس لأحمق مثله أن ينبت في رأسه قرناً جديداً، لقد وهب رأسه للقرون الذهبية «قرون المجد والسلطان» ولكن ترى هل تستجيب لغزله؟ هل تلين هذه الفتاة الغامضة الفاتنة؟ وأحس أنياب الغيرة تنهش صدره.

ورقص الراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب، أو الملل، فكفَّ عن اللعب وانفرط عقد المتجاذبين فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام وكان البدر قد علا في السماء وانسكب نوره.. إلى مياه النيل بالابتسام وكان البدر قد علا في السماء وانسكب نوره إلى مياه النيل المتوجة فتقاذته ونثرته كاللؤلؤة يخطف الأبصار وتساءل البهض:

-- متى نفتح البوفيه؟

فرد عليه قرين :

- ليس قبل أن يرسوا اليخت إلى شاطئ الحديقة يا جائع ؟

فقال آخر :

- هل لكم في لعب الورق ؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح قبل أن يلهيهم عن صفوفهم وعادوا إلى السمر وانتبه محجوب من أفكاره على صوت الأستاذ حسني شوكت وهو يقول

- كيف لا يكون أمراً خطيراً؟ إن نجاح الحزب النازي في الوصول إلى الحكم أمر جدّ خطير .

فقال أحمد عاصم :

- ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يتلع هتلر.

- أنظر إلى الأفق، ألا ترى أن هتلر في عنفوان الشباب والرئيس في نهاية العمر ؟

- إذن سيتمخض الغد عن حرب ضروس.

- كلام معقول بيد أن فرنسا لا تترث حتى تستعيد ألمانيا قوتها وتتجمع للانقضاء عليها، وهنالك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان ولا تنس أن إيطاليا العظيمة تعدّ نفسها حامية النمسا فما هو إلا أن تتصافح هذه البلدان وربما انضمت روسيا لتضيق الحلقة الفلاذية رويداً رويداً حتى تخنق ألمانيا في النهاية وتقضي عليها القضاء الأخير.

- وانجلترا؟ هل تتغاضى عن خنق ألمانيا ؟

- ولم لا ؟

- إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا - أو غيرها - تسيطر على القارة الأوروبية. أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام، وكان على إطلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل بالسياسة العالمية، فاقترح على نفسه أن يعنى بمعرفة الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم الأمر، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عما حوله حتى لا يلاحظ أحد صمته، فغاب حقاً عن الحديث دقائق، ولما عاد بوعيه إلى الجلوس وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخلية دون أن يدري كيف، وسمع بعضهم يقول:

- أما مصر فيستطيع أي حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر.

- الواقع أن أي نظام من أنظمة الحكم يستحيل دكتاتورية إذا طبق في مصر.

- هذا وطن «ضربك شرف يا أفندينا» ..

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين :

- لن تظفر مصر باستقلالها ابداً .
- استبدت بها عادة حكم الأجنبي .
- فضحك عفت وقال:
- وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟ أما الزعماء فيتعاركون على الحكم وأما الشعب فغير أهل للاستقلال.
- ووجد محبوب الفرصة سانحة ليقول قولاً «أخلاقياً» وليحدث لنفسه سمة إيجابية، الأمر الذي أجمع على تحقيق حين فكر في الاشتراك في جمعية الإخوان المسلمين فقال مبتسماً:
- ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك ؟
- فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع:
- لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة.
- وأحدث قوله عاصفاً من الضحك أما محبوب فتضاعف مقتته له لا غضباً لوظيفته ولكن ثورة لكبريائه وذكر خطبة رنانة ألقاها والد عفت في مجلس الشيوخ عند مناقشة الميزانية، التي دافع بها عن الفلاح دفاعاً وطنياً مجيداً.
- فقهقه عفت وقال كالساخر:
- هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا متفق أنا ووالدي على أن أنجع سياسة مع الفلاح هي : السوط. وضحك الحاضرون ..

صباح الورد^(١) نجيب محفوظ

. ولما قامت ثورة يوليو مرت بآل سعادة بسلام، بل حل الوقف وأصبحوا أحراراً في التصرف في أملاكهم، وعلمت أن الصبي الصغير ابن البنت الجميلة الصغرى من الضباط الأحرار بل والمقرين، اختير لوظيفة في المخبرات وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان، واكتسب سمعة مخيفة لا تكون إلا لشیطان!. وجعلت أقارن بين ما يقال عنه من حقائق وأساطير وبين صورة صباه الجميلة الودیعة وأتساءل وأتعجب، ورحت أسأل أم أحمد عن رأيها في ذلك فأرسلت فقهتها العظيمة وقالت:

- صدق من قال إن الأتراك فيهم عرق جنون.

(١) ص ١٦ - مطبوعات مكتبة مصر، لا يوجد سنة النشر .

الشمس في يوم غائم^(٥)

حنا مينه

قالت مرة لوالدي:

- بيتنا مثل القلعة .

وابتسم والدي وأجابها :

- قلعة بكل معنى الكلمة... قنصلاتو .

وشرح يشرح مع تلمظ ظاهر للكلمة أهمية القنصلاتو ومجدها الغابر حين كان الباب العالي «طوب قابو سراي» في استانبول ذاتها ، يحسب حسابها وكانت السفن الحربية «قنصلاتو تابعتلرندن» تقترب من الميناء وتبتعد بإشارة منها، وكان الوالي بطربوشه وبسطونه يهتز لغضبيها ويأتمر بأمرها. أما المتصرف فكان يقبض راتباً منها، وترجع عساكره إذا دخل الذي تطارده بوابتها، كان «كركوزاً» خيطه في يد جدي وجاهلاً همهم أن يجمع المال للوالي، كما كان هم الوالي أن يجمع المال للسلطان. وكان السلطان حسبما قال والدي، يلزم جباته الولاية، والوالي يلزم جباية المتصرفيات، فيأخذ الملتزمون بجمع الأموال التي التزموا بها ثم يتفرون لجمع المال لأنفسهم ولم تكن آنذاك سجلات رسمية، يأتي أحدهم إلى المتصرف طالباً وظيفة فيدفع الثمن نقداً أو هدية ويقطع المتصرف طرفاً من طبق الورق أمامه ويكتب: «عتينا فلاناً في الوظيفة الفلانية» وبعد أيام يأتي شخص آخر طالباً نفس الوظيفة، ويكون المتصرف قد نسي فيقطع ورقة أخرى ويكتب: «عتينا فلاناً في الوظيفة الفلانية» فلا يكاد الأول يتسلم حتى تسلم، ولا يستطيع المراجعة بدون مال أو هدية.

قال والدي: «كانت الدنيا فوضى والفراكت في البحر وجدكم يأمر وينهي وهو جالس في هذا البيت .. في هذه القلعة، زمان ... رحمة الله على ذاك الزمان .»

رد قلبي^(١)

يوسف السباعي

كان الأمير اسماعيل يتفقد حدائقه الواسعة، المحيطة بقصره المشيد وسط أراضيه في إحدى الضواحي التي تقع على أطراف القاهرة في ضحا يوم جمعة من ربيع عام 1933 وبدا الأمير أو «أفندينا» كما تعود الكل أن ينادوه.. طويل القامة، مهيب الطلعة، أبيض الوجه أحمره، وقد وضع «مونوكل» في إحدى عينيه التي لا أظن سواها من عيون عباد الله من غير الأمراء بمسئطعة الإمساك به لحظة واحدة.

وقد منح الله عينيه - غير القدرة على الإمساك بالمونوكل - قدرة على إشعاع نظرات الكبرياء والترفع والتعاضم على نمط أصيل غير زائف ولا مفتعل، فهو بهذا الإشعاع والمونوكل والطربوش الأحمر الطويل المائل على أحد جوانب رأسه واللكنة الأجنبية الدخيلة على عربيته، والجمال التركية والفرنسية المتخلله حديثه بين آونة وأخرى، يبدو نموذجاً للأرستقراطية والسمو وطيب الأصل ورفعة النوع، كما تقاس بمقاييس ذلك الوقت.

وسار الأمير متمماً جولته يتبعه الرئيس عبد الواحد رئيس بساتين القصر أو «الباشجنايني» بجلبابه الصوفي الطويل الفضفاض، وعمامته التي التفت حولها الشال الأصفر، الذي يميز هذه الفئة، وكان أسمر الوجه، بارز عظام الوجنتين متين البنيان، صلب الجسد، ليس به ما يميزه كثيراً عن سواه من زملائه وأبناء طبقته.

وتوقف الأمير أمام مجموعة أخرى من الأصص.. وأشار بعصاه:

- وهذه البرميولا ليست كما يجب.. أنتوي عرضها؟

- سنتقي بعضاً منها لعمل إطار حول مجموعة السنابير.

وعاود الأمير السير يتبعه «الرئيس عبد الواحد» ويليها ركب من التوابع والخواشي وتلفت الأمير حوله كأنما يبحث عن شيء، وانتقلت عدوى التلفت منه إلى بقية الحاشية، وبدأت على وجوههم سيماء الحيرة والارتباك خشية أن يكون قد بدا للأمير نوع من التقصير في ناحية من النواحي، وأخيراً أفصح الأمير عما يبحث عنه. فتساءل:

- أين أنجي؟

وأُسرع بالإجابة رجل أسود أشبه «بالأغوات» قد ارتدى حلة سوداء هو إدريس أفندي، الخادم الخاص لأفندينا فقال.
- لقد بقيت خارج السوبة تنزه في الحديقة مع مربيته «دلبار».

(٥) يوسف السباعي - ردّ قلبي ج ١ - رواية - مكتبة الخانجي - القاهرة 1970

الخصوف^(١)

ابراهيم الكوني

كانت واحات الصحراء الكبرى منفى مناسباً اتخذها سلاطين الامبراطورية في الأستانة للتخلص من منافسيهم على السلطة. في ذلك العام دفع السلطان إلى طرابلس بفريق جديد من المنفيين الذين حامت حولهم الشبهات في التآمر على العرش ولما لم تثبت التهمة فقد نجت رؤوسهم من المقصلة وكان المنفى إلى الصحراء الكبرى في انتظارهم، ففاز الباشا المتهم بتدبير الانقلاب بولاية طرابلس فوراً، أما أتباعه فقام بتوزيعهم على بقية المدن والواحات النائية، وكانت واحة «آدرار» من نصيب سعادي الحائر على لقب «بك» وهو رجل كريه، بدين الجسم، يشهر أمامه كرشاً فخماً، ترافقه حاشية من الأتباع والمساعدين والجنود وابنته «الحسنة». دخل الواحة مع حلول المساء، فنصب معسكراً وأمر جنوده باستباحة الحقول، واجتياح الغابة، وانتزاع الخرفان من الفلاحين لتحضير وليمة. فسالت دماء عشرات الخراف في تلك الليلة، بل واستمرت عمليات النهب، التي أشرف عليها نفر من الانكشاريين مائدة الطعام، سكر سعادي من فوره فأمر بإحضار شيخ الواحة فوراً، أشرف بنفسه على سلخ جلده بثمان وأربعين جلدة عقاباً له على سوء الاستقبال كما برر الطاغية عمله الإجرامي في الصباح عندما صحا من السكر.

ولم يكتف هذا الوحش بجلد الشيخ الوقور وإنما أصدر «فرماناً» بعزله فوراً وتعيين عاشور الجاروف بدلاً عنه (وهو جد عبد الجليل الجاروف شيخ الواحة الحالي) ثم بدأ سعادي بك سلسلة من الإجراءات التنكيلية بالأهالي وفرض عليهم ضرائب قاسية وإتاوات مجحفة أفلست الكثيرين ودفعت بالبقية الباقية إلى مضاعفة العمل لدفع المصيبة وتغطية الضرائب التي اعتبرها البعض جزية كان أخرى لسعادي بك أن يفرضها على الروم لأنها لا تجوز على معشر المسلمين، وصل هذا الهمس إلى آذان سعادي على الفور فاعتبره تحدياً لسلطته ورأى فيه بؤادر للتمرد فأطلق جنوده يقتحمون الأكواخ والبيوت وأمرهم بجلد كل من تقع عليه يدهم ما لا يقل عن اثنتي عشرة جلدة ولم يستثن من هذا القمع حتى النساء والأطفال.

أدرك الأهالي أنهم وقعوا ضحية «رجل مريض» لا يعرف الرحمة، أعماه حقد السلطان عليه فدفعه للانتقام من أهل الواحة الأبرياء لكي يعوض الظلم الذي وقع عليه من سلطانه في الأستانة فكان يعد المآذب كل مساء ويلتهم مجموعة من الخرفان على العشاء ويرفع عقيرته بـ «أمان.. أمان» ثم يبدأ في سرد بطولاته المزعومة ضد الروم في القرم والبلقان، وكانت كريمته الحسنة

تومىء برأسها وترمقه بإعجاب كأنها تثني على هذه البطولات التي يعرف الجميع أنها مختلقة من البداية حتى النهاية، وقد تناقلت الألسن في الواحة شائعة تقول أن هذا السعادي بك على «علاقة آثمة» بكريمته تلك. وبرغم أن الرعب الذي يسيطر على الأهالي يمنعهم من تناقل الشائعات أو ترديدها إلا أن ذلك لم يمنع هذه الشائعة من التنقل والانتشار حتى عادت إلى مسامع «البك» نفسه وكم كانت دهشة الجميع بالغة عندما وجدوا سعادي يقهقه ملء شذقيه ويعلق ببرود «إجرامي»: «وماذا في ذلك؟ لماذا أترك هذا الملاك يفلت مني ليرقد في مخدع الأغراب؟»

افترست القشعريرة كل من سمع هذا التعليق الوحشي الذي استمر يردده في مجالسه دون أن يشعر بذرة خجل.

ويروق له أن يمهّد لأي عمل انتقامي يزعم القيام به ضد الفلاحين بقوله «هولاء الملاعين. إنهم من سلالة العبيد الذين قال عنهم المتنبي لا تشتري العبد إلا والعصاة معه» ثم يكمل الشطرة الثانية من البيت باللغة التركية، وكان يجب أن يثني على المتنبي ويردّد دائماً أنه أحسن شاعر برغم أنه لا يحفظ من شعره سوى الشطر الأول من هذا البيت الشهير ولا أحد يعرف عما إذا كان يحفظ أشعاراً للشاعر الكبير بلغته الأم..

* * *

وقد تمّ تشييد هذا السجن بسرعة فائقة، وسخر سعادي بك لهذا الغرض خيرة شباب الواحة معتمداً على حكمة أناضولية قديمة مفادها أن أفضل وسيلة لردع العصاة ونشر الطاعة بين الرعية هو إقامة السجون قبل الحصون وقبل تشييد المساجد والقصور، ويعتقد أن القائم مقام طبق هذه الحكمة حرفياً عندما جعل بناء تلك الدار المظلمة الخالية من النوافذ سابقاً على بناء قصره الذي بدأ التخطيط له وحفرت أسسه بجوار معسكره الحالي في الجهة الشمالية الغربية من الواحة. استقدم خبيراً تركياً متخصصاً في المعمار جاء خصيصاً من بلاد الأناضول لتنفيذ المهمة في الماتحة الرملية. ويحكى أن مائدة القائم مقام في تلك الليلة كانت من السخاء ظلت تتناقلها الأفواه ردحاً طويلاً من الزمن، فنحرت الذبائح وتضاعدت روائح الشواء وتدفقت أنهار اللاقبي، وأهم ما ميز احتفال تلك الليلة مزاج سعادي بك الذي كان من الأريحية بحيث أمر بتوزيع شرائح اللحم على الفقراء وأجبر كل من وقعت عليه عينه أن يشاركه باحتساء ماء الحياة (هكذا تعود القائم مقام أن يسمى النبيذ) ويساهم في فرح استرداد أموال المسلمين من الكفرة الأغراب الذين يمارسون السحر، ويؤكد شهود العيان أن تاريخ معاقرة الشيخ عاشور الجاروف للخمر يعود لتلك الليلة بالذات. إذ أجبره القائم مقام مشاركته الكأس. وفي رواية أخرى أن سعادي ثمل حتى فقد هيبته ووقاره وقفز فوق جسد الشيخ وأمسك بلحيته ودس فوهة القارورة في حلقه بالقوة ويبدو أن مفعول هذا السائل الشيطاني قد نال إعجابه فرقص وغنى ووقع على الأرض مرتين. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من الشائع رؤية هذا الشيخ وهو يعود على ظهر حمارته وهو يدندن ألحاناً محرفة ويردد الأهازيج بلغة قيدها شيطان الخمر، ولم يعد غريباً أن يراه أهل الواحة ملقى تحت شجرة نخيل في الغابة فاقد

الوعي وقد أغرق نفسه في بركة من القيء وفي قول آخر من البول!..

بلغت غبطة سعادي بالذهب حدّاً جعله يبالغ في التواضع حتى أنه سرد قصص بطولاته في حرب البلقان ليلتها وهو جالس على النطع في مواجهة موقد النار متفضلاً بين الحين والآخر بتوزيع قطع اللحم والكبدة على الحاضرين مردداً الحديث الشريف «خادم القوم سيدهم» وقد لاحظ الجميع بما فيهم الحاشية المتدينين كيف أن سعادي بك لا يغرّم بترديد الأحاديث الشريفة والاستدلال بآيات القرآن الكريم إلا في لحظات التجلي عندما يلعب به الخمر المشؤوم وبالطبع لم يستطع أحد أن يتولى نصحه للتخلي عن هذه العادة.

تسربت من بعض أفراد الحاشية معلومات تؤكد نية القائم مقام القيام برحلة عاجلة إلى استانبول لتقديم جزء كبير من الكنز للسلطان مشفوعاً بفروض الطاعة حسب التقاليد المتبعة طمعاً في الحصول على منصب كبير، ويقال أنه أقسم اليمين أن يظفر بمنصب والي طرابلس نفسه مقابل هذه الرشوة. والواقع أن أحداً لم يتغرب أن يلجأ سعادي بك إلى هذه الحيلة المنتشرة بين الولاة نظراً لما عرف عن الرجل من تعطش للحكم وحب للمناصب، وربما كانت هذه النية المزعومة مجرد دعاية ردها أفراد الحاشية الذين لم يتمكنوا من التخلص من بعض رذائل الحاشية التي تعودت هناك - في بلاط الباب العالي - أن تردد الشائعات وتحيل المكائد كأبي حاشية عرفتها بلاد الأناضول.

المصدر نفسه: ص 100 - 101

ولكن حدثت مفاجأة قلبت الواحة رأساً على عقب وكانت بداية لنتورات مثيرة لم تشهدها الواحة المسالمة من قبل. فقد مات القائم مقام. وجد ميتاً في فراشه في الصباح بعد سهرة سخية رتبها خصيصاً لتكون بمثابة حفل الوداع حضرها الأصدقاء والأعيان والمقربون من أفراد الحاشية فشاءت الأقدار أن تكون هذه الوليمة «حفل وداع» إلى الدار الآخرة بدل «حفل وداع» إلى الأستانة.

رافق وفاة سعادي بك هروب ابنته مع عشيقها الإنكشاري واختفاء الذهب من الصندوق الحديدي الذي تعود القائم مقام أن يضعه بجوار مخدعه. وتؤكد بعد أيام أن تلك الفتاة الفاجرة مسؤولة عن مصرع أبيها. إذ دست له السم في قدح الخمر في تلك الليلة الساهرة وقبل أن يتحرك الموكب الذي كان مقرراً أن ينطلق في الفجر بساعات قليلة ثم اختفت مع عشيقها واختفى الذهب معهما...

المصدر نفسه ص 104

وفي نفس الموعد أسفر هذا الاجتماع الأخير عن اختيار ذلك الشيخ ويدعى محمد سليم ويبدو أن القدر اختاره كي ينال حتفه بعد ثلاثة أيام بالضبط حيث وجد مقتولاً بطعنة سكين في صدره فاستولى نوري بك على المنصب بعد قيامه بمذبحة صفى فيها معارضييه من الفريق الآخر وبالع في القمع فزاد في الأتاوات على القوافل، وضاعف الضرائب المفروضة على المزارعين. وأنزل العقوبات بالناس لأتفه الأسباب وأوكل للشيخ عاشور الجاروف مهمة جديدة مخجلة أضافها لمهامه السابقة، استدعاء الفتيات العذاري لخدعه سواء بالرضى أو بالرشوة أو بالقوة، وقد بلغت به

البجاجة أن وصف هذا العمل الإجرامي بأنه «تحسين للنسل» سوف يشكره عليه أهل الواحة في المستقبل عندما يرون الحسناوات البيضاء وهن يتبخترن في أزقة الواحة الضيقة وقد جرى الدم التركي في خدودهن.

ولم يستح أن يجلس مع الشيخ عاشور في الأمسيات ليتشاوروا في وضع قوائم الفتيات المرشحات لزيارة مخدعه فأدرك الأهالي كم كانت رذائل سعادي بك التي لا تعدو هيامه بابنته وبسرده بطولاته في حربي القرم والبلقان محتملة إلى جانب رذائل «البك» الجديد.

المصدر نفسه ص 106 - 107

وبالطبع فإن أنباء هذه الانتفاضة زحفت إلى الشمال حتى بلغت مسامع الوالي في طرابلس ومضت في رحلتها فركبت البحر أو طارت على جناح الريح (وردت هذه التعبيرات المتهكمة بخط جميل مما يؤكد ضلوع المراكشي في صياغتها) فطرقت الباب العالي في الأستانة فملأت قلوب الولاة الجدد بالرعب وجعلتهم يجمعون على أن هذا المنفى مسكون بالأرواح الشريرة، فزهّدوا في القدوم إلى الواحة خاصة وأن الحروب كانت قد أنهكت الامبراطورية وجعلت السلطان يولي اهتمامه بمواقع أخطر وأهم من العصيان في واحة مغمورة في الصحراء. وهكذا عاشت واحة «ادرار» فترتها الذهبية...

المصدر نفسه ص 107 - 108

مرثية التاريخ والجذور (من ديوان بكائيات من مراثي ارميا)^(١) كمال أبو ديب

وأنا وريث القبائل والواحات، والقواد الترك والباشا..
يفتض بأنبوب نرجيلته البكرات، ييكي عاجزاً..
وريث الأفندية يجلدون بسياطهم جلود الفلاحين..
ويأخذون نساءهم على التناير وجوافي المصاطب..
وريث الربع الخالي أنا
أحمل الصحراء على كتفي..

* * *

ثمة عينا جدّي..
تموتان جوعاً، والطواحين..
تسحق ثم البلوط والسنديان
والباشا يعلف حصانه الأخضر بة..ح..
العيون الشاحبة..
ثمة سامراء، مسلة تيمورلنك، وجزرة
الفرات
وصهيل خيول الترك...

المصدر نفسه - من قصيدة «مرثية وجه وصورته المتشكلة بعد 5 حزيران»

مختارات من الأدب العالمي

الطريق إلى غريكو - مذكرات كازنتزاكيس^(١)

نيكوس كازنتزاكيس

. نقول في كريت: مرحباً بالمصيبة حين تأتي وحدها، ذلك أنها نادراً ما تجيء وحدها ففي اليوم التالي كانت السماء صافية تماماً، بالأمس كانت غاضبة وقد أهلكت معظم الناس، أما اليوم فتضحك، وطاف المالكون بكرومهم، العنب كله قد تلف، وهنا وهناك ما تزال تظهر كمشات منه غارقة في الطين، وعند الظهر تماماً عاد والدي مسرعاً من كاسترو، لقد جاءه أحد أصدقائه في الصباح الباكر وهمس شيئاً ما في أذنه ثم رحل، وانتقل الكلام بأن المسيحيين قد قتلوا أحد الأغوات البارزين في إحدى القرى، كان الأتراك ثائرين، والمسيحيون يسلمون أنفسهم. كنا على أبواب ثورة أخرى، وراح الأتراك يتسابقون إلى « ميغالو كاسترو » بحثاً عن الأمان وراء الجدران الفينيسية.

كنت أمشي في كرمنا مع أمي وأختي نجمع آخر العناقيد التي كانت ما تزال على الدوالي وكان الحز في عزه والهواء يلفح، وبغثة سمعنا صرخات وأصوات نباح من الطريق، كان هناك حشد هائل يعبر، الحمير محملة بقصع العجين والأباريق، والنساء التركيات، ووراءها كان الرجال المعممون يخبون مسرعين في الأوحال بعضهم حفاة، وبعضهم بأحذية دون نعال، وهم يخورون دون كلام في سيرهم الحثيث نحو كاسترو.

وغمغمت أمي: « الكلاب التركية » وحملتنا تحت إبطيها وأدخلتنا، وتشبثت بركبتها وسألتها لم يركضون يا أمي؟ ماذا يريدون؟ ولم ترتجفين؟ « فرتبت على شعري » يا إلهي فلتشمل ابني بنظرتك، ما أرهب أن يولد المرء كريتياً! ».

فتحنا النافذة قليلاً ورحنا نتطلع، كان الحشد يسرع من بعيد، ثم اختفى وراء أشجار الزيتون، وعاد الطريق إلى هدوئه.

. فلنذهب، بسرعة علينا أن نصل قبل المغيب. قال والدي.

أمسكت أمي بأيدينا، وأخرج والدي مسدسه من تحت الوسادة، تفحصه، كان محشواً، ألقاه في جيبه ثم سار خلفنا.

كانت الشمس على وشك أن تغرب، حين مررنا من البوابة الحصينة ولكن في الأزقة كان يبدو وكأن الظلام قد حل، كان الناس يركضون مسرعين والأبواب توحد والأمهات يظهرن لينادين

أطفالهن من الشوارع ورأتنا جارتنا فطوم ولم تليّ علينا تحية المساء.
جلس والدي في مكانه المعهود على الأريكة في الزاوية قرب النافذة المطلة على الدار. وقفت
أمي أمامه تنتظر، كانت تعلم أنه سيصدر الأوامر. أخرج كيس تبغ ودرج لفافته ببطء وتكاسل،
ثم ودون أن يرفع عينيه. قال: لا يخرجن أحد من البيت.
والتفت إليّ عابساً: أنت خائف؟
فأجبت: لا.

- وماذا لو حطم الأتراك الباب، ماذا لو فتحوا البيت وذبحوك؟
ارتعشت واستطعت أن أحس بالشفرة على حلقي، كنت أريد أن أصرخ أن نعم أنا خائف
لكن عيني والدي كانتا مثبتتين عليّ فخبجت، وبغته انتفخ صدري وأحسست أن قلبي يمتليء
بمسالة الرجال فقلت: حتى لو ذبحوني لن أخاف.
- عظيم. قال والدي وأشعل لفافته.

في الصيف الماضي حين ذهبت إلى قريتنا لرؤية جدي وهو يموت نمت مع أحد أخوالي في
حقل بطيخ، وبغته قبل أن أغفو بقليل سمعت صوت « كرررر، كرررر، كرررر » من حولي صوت
تكسر أشياء غريبة، التصقت بخالي خائفاً وسألته: ما الذي يصدر هذا الصوت المتكسر؟ أنا
خائف، فأدار خالي ظهره لي حائفاً لأنني أيقظته وقال: نم يا ابن المدينة، أهى المرة الأولى التي
تسمع فيها صوتاً كهذا؟ إنه البطيخ وهو يكبر. وبشكل مشابه في هذا اليوم حين تركزت عينا
والدي عليّ أحسست بقلبي يكبر ويطقطق.

« لميغالو كاسترو » أربع بوابات حصينة، كان الأتراك يغلقونها كل يوم عند الغروب
 ويفتحونها مع الشروق وما من أحد يستطيع الدخول أو الخروج من المدينة طوال الليل
وبهذا وقع المسيحيون الذين فيها في المصيدة، كان في وسع الأتراك أن يقوموا بمجزرة
خلال الليل طالما أن البوابات مغلقة ومرتجة، ذلك أنهم الأكثرية في المدينة ولديهم أيضاً
الحامية التركية.

كانت هذه خبرتي مع أول مجزرة، فبعد أيام قليلة، وللمرة الأولى، رأى عقلي الطفولي وجه
الحياة الحقيقي وراء القناع الجميل للبحر والحقول الخضراء والدوالي المثقلة بالعناقيد وخبز القمح،
وابتسامة الأم وجه الحياة الحقيقي الجمجمة.

وفي هذا الوقت أيضاً، سقطت بذرة في أحشائي، بذرة قدر لها فيما بعد أن تزهر وتثمر عيني
الثالثة، العين الداخلية، عين صافية مفتوحة ليلاً نهاراً لا تعرف خوفاً أو أملاً.

جلست وأمي وأختي متلاصقتين ومتمترسين داخل بيتنا، وكنا نسمع الأتراك الهائمين في
الشارع يشتمون ويهددون ويحطمون الأبواب ويذبحون المسيحيين. سمعنا نباح الكلاب
وصرخات الجرحى وحشرجات الموت وهديرأ في السماء كما لو أن الهزة الأرضية تتقدم، وقف

والدي وراء الباب ينتظر والمسدس معه محشو، وأذكر أنه كان يمسك بيده حجراً مستطيلاً يسميه «المن» أو المشخذ، كان يشخذ عليه سكيناً طويلة ذات مقبض أسود، ورحنا ننتظر، قال لنا: إذا حطم الأتراك الباب ودخلوا فإن في نيتي أن أذبحكم بنفسي قبل أن تقعوا في أيديهم . أمي وأختي وأنا، جميعنا وافقنا، ونحن الآن ننتظر.

أعتقد أنني كنت سأرى روحي وهي تنضج خلال تلك الساعات لو أن اللامرئي صار مرئياً، وأدركت أنني في غضون ساعات قليلة بدأت أتحول مباغته من طفل إلى رجل.

وهكذا مر الليل وجاء الصباح، وهذا الهدير، وانسحب الموت مبتعداً. فتحنا بابنا بهدوء ومددنا رؤوسنا خارجاً، عدد من نساء البيوت المجاورة فنحن نوافذهن بهدوء. وتلصصن، كنّ يتفحصن الشارع وفي تلك اللحظة مرّ بائع الكولوري التركي ذلك الذي له صوت صغير وحاد ولا شعر في وجهه، كان ينادي بنغمه الرتيب على كعكاته المرشوشة بالسمسم والقرقة التي يحملها على صينية تنكية واسعة فوق رأسه، أية فرحة تلك، بدا كأن كل شيء يولد من جديد، وبدا أننا نرى للمرة الأولى السماء والغيوم والصينية التنكية المحملة بالكولوري الشهية، اشترت لي أمي واحدة ومضغتها بمتعة لا توصف.

وسألت أمي: هل ذهبت المجزرة ؟

وأخافها سؤالي فقالت: اهدأ، اهدأ يا بني، لا تذكر اسمها فقد تسمعك وترجع .

إنني أكتب الآن كلمة «مجزرة» ويقف لها شعر رأسي لأنني حين كنت طفلاً لم تكن هذه الكلمة عبارة عن عدد من الأحرف الأبجدية المتجاورة بل كانت هديراً هائلاً وأقداً ترفس أبواباً ووجوهاً كالحة تحمل السكاكين بين أسنانها ونساء يرتجفن في كل مكان من الجوار. ورجالاً يحشون الأسلحة وهم راكعون وراء الأبواب. بالنسبة لنا نحن الذين كنا أطفالاً في كريت في ذلك الحين هناك كلمات أخرى عديدة تمتاز أيضاً بالدم، كلمات صلب عليها شعب بأكملهم: الحرية، القديس مينا، المسيح، الثورة.

مصير الإنسان الذي يكتب مصير قسري وتعي، وذلك عائد لطبيعة عمله وهذا يعني أن يحول جيشانه الداخلي إلى سكoon، فكل كلمة صدفة صلبة تحتوي على قوة انفجارية عظيمة ولكي تكتشف معناها يجب أن تدعها تنفجر في داخلك كقنبلة لكي تحرر الروح التي تحتجزها .

مرة كان هناك حاخام يدلي بوصيته ويودع زوجته وأطفاله بالدموع كلما ذهب إلى الكنيسة لبصلي لأنه لم يكن يعرف ما إذا كان يخرج من الصلاة حياً وقد اعتاد أن يقول «حين ألفظ كلمة ما فإن هذه الكلمة تمزق قلبي، يجمدني الرعب فلا أعرف ما إذا كنت سأستطيع القفز إلى الكلمات التالية: ارحمني....».

آه من يستطيع قراءة قصيدة بهذه الطريقة أو قراءة كلمة مذبحة أو حرف من اسم المرأة التي يحب - أو هذا التقرير الذي كتبه إنسان كافح طويلاً في حياته ولم يستطع أن ينجز إلا القليل.

في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذني والدي من يدي قال «تعال» وخافت أُمي «إلى أين تأخذ الصبي، لم يغادر مسيحي بيته بعد».

وكرر والدي أمره: «تعال» وفتح الباب وخرج.

وسألته: إلى أين نذهب؟ وكانت يدي ترتجف في راحته الضخمة، تطلعت إلى الشارع طولاً وعرضاً، كان خالياً إلا من امرأتين قرب الزاوية تغسلان على الفيحة. كان الماء قد صار أحمر .
- هل أنت خائف؟ .

- نعم.

- ليس هذا هاماً. ستعود .

درونا عند المنعطف وتوجهنا نحو بوابة الميناء، ومررنا ببيت كان الدخان ما يزال يتصاعد منه وبيوت أخرى كانت أبوابها محطمة والدماء ما تزال على العتبات وحين وصلنا إلى الساحة الرئيسية ذات النبع المنحوت في هيئة أسد وشجرة الدلب الضخمة على حافته، وقف والدي وقال: انظر. وأشار بيده.

نظرت إلى شجرة الدلب وأطلقت صرخة، كان هناك ثلاثة رجال مشنوقين ما زالوا معلقين عليها يتأرجحون واحداً قرب الآخر. وكانوا حفاة ولا لباس عليهم إلا مناماتهم وألسنة خضراء قائمة كانت تتدلى من أفواههم ولعجزتي عن تحمل المنظر حولت رأسي وتشبثت بركبة والدي، إلا أنه أمسك رأسي بيده وحوله نحو شجرة الدلب .

- انظر. قال أمراً من جديد .

وامتلأت عيناï بالمشنوقين .

- طالما أنت حي - أسمع؟ - لا تجعل هؤلاء المشنوقين يغيبون عن نظرك.

- من قتلهم؟

- الحرية فليباركها الله.

لم أفهم وبعينين جاحظتين حملقت إلى الأجساد الثلاثة التي كانت تتأرجح ببطء بين الأوراق الصفراء على شجرة الدلب.

ألقي والدي نظرة حوله وانصت، كانت الشوارع خالية فالتفت إلي:

- أأستطيع أن تلمسهم؟

- لا. صحت خائفاً.

- تستطيع. تعال.

اقتربنا، ورسم والدي شارة الصليب بسرعة أكثر من مرة ثم قال لي أمراً: المس أقدامهم. ولمست برؤوس أصابعي جلودهم الباردة القاسية، كان ندى الليل ما يزال عالقاً عليها .

وجاءني أمر والدي من جديد: قبلها. قدم احترامك. وحين رأى محاولتي للإفلات والهرب حملني تحت ذراعيه ورفعني ثم أحنى رأسي وقسرنى على الالتصاق بالقدم الصلبة .
أنزلني ولم تقوَ ركبتي على حملي فانحنى ونظر إلي قائلاً: كان هذا لمساعدتك على التعود .
ثم أخذني من جديد بيدي وعدنا إلى البيت، كانت أمي واقفة وراء الباب تنتظر بقلق :
- أين ذهبتما بحق الله؟ سألت وهي تمسك بي بشغف وتقبلني. فأجاب والدي: «ذهبنا لنقدم فروض الاحترام.» وألقى علي نظرة واثقة.

تقرير إلى غريكو - مذكرات كازانتزاكيس^(*)

نيكوس كازانتزاكيس

كان مطر خفيف يهطل، والمآذن البيضاء والسرو الأسود يخترقان الضباب مثل صواري مدينة غارقة، القديسة صوفيا والقصور والجدران الملكية نصف المهدمة كانت غارقة في المطر الصامت القانط، تجمعنا عند مقدم السفينة ورحنا نجهد أن تخترق نظراتنا الضباب الكثيف لكي نرى . شتم واحد من رفاقي: «عليها اللعنة !.. العاهرة !.. تنام مع الأتراك» وعيناه مليئتان بالدموع . وتمتم آخر: عبر السنين سيأتي وقت تعود فيه إلينا مرة أخرى لكن قلبي لم يتأثر، لو أنني مخرت هذه المياه الأسطورية في مناسبة أخرى لا لتهب عقلي بالخرافات والأغاني الشعبية مع الرغبات القوية ولأحسست بدموع حارة كبيرة تذرف من أيقونة العذراء المباركة على راحتي، لكن المدينة الأسطورية كلها في هذا اليوم بدت مثل صورة للرجبة جداً، ومستحيلة جداً، مثل مخلوق مصنوع من الضباب والخيال. ظللنا يومين نحقق إلى القسطنطينية عن بعد، منتظرين أن يهدأ البحر لننطلق وكنت مسروراً لأن المطر منعني من رؤيتها، ومسوراً لأن الحراس الأتراك الضخام منعونا من مغادرة السفينة ووضع أقدامنا على الأرض المتركة^(**).

(*) الجزء الثاني ، ترجمة: ممدوح عدوان. دار ابن رشد، بيروت. 1983

(**) اي التي أصبحت تركية .

الحرية أو الموت (*)

نيكوس كازنتزاكيس

رجل متوسط العمر، ذو لحية شقراء متماسكة وعينين براقتين وحشيتين مستديرتين كالبيض، ورأس تحتويها لفائف عمامة تركية عريضة بيضاء تركت أذناه فيها علامتين حيث لا تكاد تغادر رأسه حتى يكون مهياً على الدوام للدخول بها إلى الجنة، ذلكم هو «أفندينا» .. كان منذ سنوات مضت قد زار «مكة» ومنذ تلك الأيام المقدسة امتلأ عقله بحرّها وعطشها وباللهيب والفرع وعاد إلى (ميجالوكاسترو) ليصبح درويشاً في إحدى التكايا التي كان أحد أسلافه يوماً ولياً من أوليائها، وظل ردحاً من الزمن يستقبل عدداً من الأطفال الأتراك يعلمهم القراءة والكتابة، يضربهم أحياناً ويضربونه حتى كان يوم شج فيه رأس ابن أخت نوري بك .. ابراهيم وكانت نهاية المدرسة.

وكانت التكية قرية من كنيسة (القديس ميناس) ساحة منبسطة مستطيلة مزروعة بالكرنب في أقصى نهايتها ثلاثة أقباء صغيرة خربة، وفي وسطها يقوم قبر الولي، قبر خشبي ذو شاهد قائم من الرخام تعلوه عمامة خضراء محت الأمطار والشمس الكلمات المذهبة المنقوشة فوقه، وحول القبر وقرىاً منه مقاعد صغيرة وكبيرة يجلس فوقها المريدون كل يوم جمعة، يحدقون في الولي ويدخنون النرجيلة، ويحتسون القهوة التي تعدّها لهم قارئة التعاويذ «حميدة مولا» والدة أفندينا، أما العمامة فكانت فارغة من الدخان وكان المريدون يضعون العملات النقدية في التكية، ولم يكونوا يطلبون الكثير مثلما يفعل المسيحيون كان يكفيهم فحسب، أن يطلبوا الطعام الطيب والمرأة الطيبة والشجاعة الفائقة في الدنيا وفي الآخرة معاً، ومن ثم كانوا يرمون بهداياهم في العمامة من أجل الولي الشفيع .

وكان أفندينا يجلس القرفصاء في الفناء كل يوم عند شروق الشمس وقد وضع فوق ركبته قرناً ضخماً، ويظل يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف في نشوة ثم يبدأ في الترتيل، فإذا كان البرد شديداً قفز واقفاً وبسط ذراعيه ودفن راسه بين كتفيه وبدا يهتز كال دراويش وهو ينفت بغمّة ويدق الأرض بقدميه حتى يبعث الدفء في جسده، وعند الظهيرة، وعندما يقرصه الجوع كان يجري نحو وسط الفناء من أقصاه إلى أقصاه في هياج وقد تصبب عرقه وليس فوق جسده سوى سرواله الواسع والعمامة فوق رأسه، وكان الجيران يتجمعون لمشاهدته من خلال النافذة التي تطل على الشارع، بعضهم يضحك والآخرين يحسون بالأسف والرتاء من أجله ويقولون له : - بحق الله

ماذا دهاك يا أفندينا، فكان يصيح فيهم على الفور: - ثمة لهيب في داخلي أيها الجيران .
وعندما يعهد بالأمر إلى أمه العجوز ويخرج هو إلى الطريق، كان الأطفال اليونانيون يقذفونه
بالأحجار فكان يعدو بأسرع ما تستطيع ساقاه. كان الطريق يبدو أمامه وكأنه النهر، يود لو يلقي
بنفسه فيه ولكنه لم يكن يجرؤ فيرتد مرتعشاً لعجزه عن السباحة .

كان الكابتن (ميخائيليس) يدعو أفندينا في كل مرة يعد فيها جلسة شراب فقد كان يحب
دائماً أن يكون ثمة في كل جلسة عنصر تركي لا خطر منه وكان أفندينا يتلقى الدعوة في خوف
ولهفة معاً ويظل يحسب عدد الشهور التي مرت منذ جاءه (شاريتوس) لآخر مرة في التكية
وهمس في أذنيه قائلاً: - عمي الكابتن ميخائيليس يبعث إليك بتحياته ويسألك أن توافيه في
القبو.

وطوال العام كان أفندينا يتحرق شوقاً إلى لحم الخنزير والخبز الأبيض والسجق والخمر، ولكن
الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير، ولا أن يرفع
بصره إلى عيني امرأة ولو أن ذلك حدث لأصابته الرعشة جسده، وقد حدث مرة أن كادت له
امرأة شابة لا تستحي فتظاهرت بأنها وقعت في غرامه وساعتها ارتقى فوق الأرض وقد علا الزبد
فمه ولكن متعة واحدة فقط بقيت له في دنياه، متعة تحمل معها الخطيئة، ولكنها متعة ثمينة دعوة
الكابتن ميخائيليس له كل ستة أشهر، ليشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير، وليموّن كيانه الهزيل
للسنة أشهر القادمة .

وقد تعود أن يقول له في كل مرة « - بحق ما أومن به يا كابتن ميخائيليس هددني ضع سكيناً
فوق عنقي وضح في وجهي: التهم لحم الخنزير، وعبّ من هذه الخمرة أو أقتلك، أجبرني على
ذلك يا كابتن ميخائيليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة، وهكذا.. كان يأكل ويشرب وينطق
بقاحش القول مما منع نفسه عنه طوال الستة أشهر الماضية، كذلك كان يكشف ما كان يعرفه
عن جاره.. وهكذا كان يسمى القديس «ميناس» فلم يكن يفصله عنه سوى حائط وكان بمقدوره
أن يراه كل ليلة يخرج من الكنيسة ممتطياً صهوة جواده فينتابه الذعر ويدفن راسه في الوسادة حتى
إذا أصبح الصباح سرق الزيت من مصباح جده ليملاً به سرّاً قنديل القديس ميناس المسيحي .

(*) ص 58 - 59، ترجمة: سعد زغلول نصار، مراجعة: محمد فتحي. الهيئة المصرية العامة للكتاب - النيايح،

القاهرة، 1976

المسيح يصلب من جديد(*)

نيكوس كازنتراكيس

. في اليوم التالي وبعد أن انتصف النهار تقريباً عاد الآغا من « سميرنا ». لم يكن وحده، كان وراءه غلام تركي جديد ممتطياً صهوة مهر كستنائي. كان الغلام خبيث النظرات، فظ الطباع فيه خلق الذكر الصغير، لم يكن يعض لباناً، ولم يكن يغني « العالم حلم » بل كان دائماً جوعان عطشان، يصرخ ويسب ويتوعد ويتدل على الآغا ويأمره، والآغا العاشق المسكين يلتهمه بعينين نهمتين ويتجاوز عن كل نزواته، كان اسمه ابراهيم ويناديه تدليلاً براهيماكي، يبلغ الخامسة عشرة من عمره، له شفتان مكتنرتان يخطهما زغب كثيف.

نقب الآغا الأرض بحثاً عنه حتى استدى إليه في ضاحية سيئة السمعة من ضواحي « سميرنا »، ترى كل بيت فيها يعلق فانوساً أحمر عند الباب علامة عليه تميزه، كان الغلام يبيع بذور عباد الشمس بعد تحميصها، وعوازل من المطاط يستخدمها الرجال لمنع الحمل وأسماكاً مشوية وزهور ياسمين يجمع كل هذا مختلطاً يبعثه في سلة واحدة ويعرض بضاعته على الناس وترى الضاحية مع الغسق وقد باتت مزاراً تغذ إليه مواكب الرجال شباباً وشيوخاً، يفدون إليها من كل أرجاء المدينة بحثاً عن لحظات يستمتعون فيها باللذة وينسون معها كل هموم يومهم، وتقف النسوة على عتبات بيوتهن مخضبات الوجوه بطريقة فاضحة أنصاف عراة وعلى شفاههن ابتسامة تستثير الشهوة، عندما وقع نظر الآغا على براهيماكي شغف به حباً فدنا منه وراوده عن نفسه، وساوم الغلام ثم اتفقا في نهاية الأمر، واشترى الآغا للغلام مهراً كستنائياً، وحلة جديدة من فاخر الثياب وساعة فضية ذات سلسلة وزجاجة مسك وكيساً به باقة من زهور القرنفل والقرفة وأخذه بعد ذلك إلى الحمام حيث استحجم هناك ومزج ماء الحمام بزيت عطري ثم اصطحبه إلى حلاق ليقص له شعره ويعطره بماء اللافندر وأخيراً أسلمه إلى يد واحد من أصدقائه القدامى، وهو شيخ تركي يعمل (خوجه) ليعلمه بعض الحيل.

وبهذه الطريقة حصل الآغا في النهاية على براهيماكي نظيفاً معطراً مدرباً واستقبلت « مارثا » المحظي الجديد بتأفف وحدثته بنظرة من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم نذت عنها ضحكة ساخرة في شماته وحدثت نفسها:

- ستكون نهايتك على يد هذا اللقيط يا آغا

وتوسط الآغا الفناء وسألها وهو يترجل عن بغلته:

- ما الأخبار يا مارثا؟ هل من وفيات أو زيجات؟ ألا زال الشيخ بطرياركاس والقسيس جريجوريس على قيد الحياة؟ ألم يتضارب الروميون؟ ألم يفقأ كل منهما عين الآخر؟ أخال أنني غبت أعواماً طويلاً والتفت إلى براهيمائي وقال:

- هذه هي الأم مارثا عبدتنا المخلصة.. هي امرأة طيبة وربة بيت ممتازة كتوم أمينة، تعيها حديثها الصغيرة ولكنك ستألفها.. افعل بها ما تشاء اضربها، اقتلها، ضاجعها فهي لك وامتعض براهيمائي، ووضع يده فوق حذبة العجوز وأغرق في الضحك.. ثم قال:

- ماذا عساي أفعل بها؟ إنها ناقة وأنا أهديها لك.

وتركهما ليتفقد مسكنه الجديد.

وقال الآغا:

- لا تعيبي بكلامه يا مارثا إنه مهر صغير، لذلك تريه يندفع ويعض ولكن اهديني أنت واحتمليه وأنا أيضاً سأهدأ معه وأحتمله صبراً يا مارثا، صبراً غداً سيتعلم.

وعاد براهيمائي إلى الفناء وسأل الآغا:

ألا توجد حسناوات في قريتك هذه؟ لا بد أن تدعوهم يوماً للرقص هنا أراهن وأنتقي من بينهم من تروقني. وقفز الآغا وقال:

- اسمع ولا كلمة من هذا.. هل تفهم ما أقول؟ كل من في هذه البلدة روميون ولا أريد مشاكل.. الزم مكانك.

وقال المهر الذي لا يعرف معنى الحياء وهو يضحك بصوت عال:

- بل هن اللاتي يلزمن مكانهن فوق حجري، أعدي المائدة أيتها العجوز الحذاء فإني جائع.

وتنهّد الآغا إذ تذكر حبيبته « يوسوفاكي » كان له فم ولكن لا يتكلم، تقول له: غننا يا يوسوفاكي فيغني، أشعل لي غليون فيشعله، هيا إلى الفراش فيذهب طائعا. أما هذا فهو الشيطان في جلد إنسان ولكن ما العمل؟ بيد أن هذا الحيوان له سحره وفتنته أيضاً.

وقال:

- لك ما شئت يا ابراهيمائي، كل شيء سيكون معداً، ولكن صبراً قليلاً، هيا يا مارثا اذبحي

لنا دجاجة.

وبعد ساعة جلس الآغا ومهره إلى المائدة وأكلا وشربا ما شاء لهما من الطعام والشراب ثم دخلا إلى حجرتهما وأغلا عليهما الباب، ما الذي حدث داخل الجدران الأربعة. لا أحد يعرف، ولكن مع المساء خرج الآغا من حجرته راضياً، منهك القوى، منتفخ العينين.

جسر على نهر درينا^(١)

إيفو أندريتش

فلما رأى عابد آغا أن التحقيق يجري بطيئاً بطيئاً ولا يبشر بالوصول إلى نتيجة، خرج من الزريبة بحركة من عيل صبره، وأطلق من فمه سيلاً من الشتائم، وخرج وراءه المأمور متبختراً، وتبعهما رجال الدرك .

كان النهار يطلع. إن الشمس لم تشرق بعد، لكن الأفق كله كان مضيئاً. وبين الروابي يرى المرء سحباً تنتشر لفائف طويلة بلون البنفسج القاتم، وبين السحابات سماء صافية راتقة تكاد تكون خضراء. وعلى الأرض الرطبة تتمدد غمام من الضباب المنخفض تخرج من بينها رؤوس الأشجار المثمرة مع أوراقها المتشعبة المصفرة. إن عابد آغا يصدر أوامره وهو ما يزال يضرب بسوطه الصغير ساق جزمته. يجب الاستمرار في التحقيق مع المجرم، وخاصة فيما يتصل بشركائه، ولكن يجب أن لا يتجاوز تعذيبه الحدود، فقد يموت، ويجب أن يعد كل شيء ليرفع على الخازوق حياً في ظهر ذلك اليوم نفسه، ويجب أن يتم رفعه على الخازوق في أعلى موضع من السقالات حتى تراه المدينة كلها، وحتى يراه جميع العمال على ضفتي النهر. يجب أن يهبط مرجان كل شيء، وأن يمضي المنادى يعلن في جميع أحياء المدينة أن في وسع الناس أن ترى على الجسر عند الظهر كيف تكون نهاية أولئك الذين يخربون البناء ويجب أن يجتمع هنالك جميع الذكور من السكان، أتراكاً ونصارى، أطفالاً وشيوخاً.

إن النهار الذي يطلع هو نهار يوم الأحد، وفي يوم الأحد يعمل العمال كما يعملون في سائر أيام الأسبوع، ولكن المراقبين أنفسهم كانوا في ذلك اليوم ذاهلين، فما إن طلع الصباح حقاً، حتى انتشر نبأ إلقاء القبض على المجرم، وأنه عذب وأنه سيقدم عند الظهر. فإذا الحالة الروحية التي كانت تخيم في الزريبة، وهي حالة من تحفظ وتهيب، تنتشر في جميع المكان الواسع الذي يحيط بالبناء. إن العمال المسخرين يعملون الآن صامتين، ويتحاشون أن ينظر بعضهم إلى بعض، ويحذق كل منهم في العمل الذي أمامه كأن هذا اليوم هو بداية العالم ونهايته.

وما إن أُرُفت الساعة الحادية عشرة حتى كان سكان المدينة، ومعظمهم من الأتراك، قد تجمعوا على السفح قرب الجسر، وتسلق على كتل الصخر الكبيرة التي كانت هنالك معدة لأن تنحت. العمال يضطربون حول ألواح طويلة من الخشب الضيق، حيث توزع عليهم كرات من الخبز لتسد

رمقهم. إنهم ينظرون فيما حولهم صامتين مذعورين، وهم يعضغون طعامهم. وظهر عابد آغا بعد قليل يخفزه طوسون أفندي، ومعلم العمارة أنطوان، وعدد من وجهاء الأتراك. ووقفوا جميعاً في مكان مرتفع جاف بين الجسر والزرية التي كان فيها السجين المحكوم عليه بالإعدام. ومضى عابد آغا مرة أخرى إلى الزرية، فأبلغوه هنالك أنه قد تم إعداد كل شيء: كان هنالك خازوق من السنديان، يبلغ طوله حوالي أربع أرشينات⁽¹⁾، حاد كما ينبغي أن يكون، قد ألبست ذروته بالحديد، نحيل ضامر مدهون بالشحم. وعلى السقالات سمّرت أوتاد، بينها سيّبت الخازوق ويحصر، وكان ثمة مطرقة من خشب، لدق الخازوق وغرزه، وكان ثمة حبال، وكل الأشياء الأخرى التي يحتاج إليها.

كان المأمور مضطرباً، قد أصبح بلون التراب، واصطبغت عيناه بحمرة. إنه حتى في هذه اللحظة لا يطبق النظرة الملتهبة التي يرشق بها عابد آغا.

- اسمع جيداً .. إذا لم يتم كل شيء كما ينبغي أن يتم، إذا جعلتني أضحكة أمام الناس، فلا تظهرن أمامي بعد الآن، لا أنت ولا العجري، هذه البعرة من بعر الماعز.. لسوف أغرقكما في نهر درينا إغراق الكلاب العمياء.

قال عابد آغا ذلك، ثم التفت إلى العجري الذي كان يرتعش، فأضاف يقول له بصوت لين: - هذه ستة دنائير أجراً لك، فإن بقي حياً إلى المساء نقدتك ستة أخرى. فانتبه. ومن على مئذنة الجامع الرئيسي في مركز المدينة، دوى صوت الخجا حاداً وواضحاً، فانتشر القلق في صفوف الناس المتجمعين، وما هي إلا لحظة حتى فتح باب الزرية، واصطف عشرة من رجال الدرك صفين يضم كل منهما خمسة، وبينهم راديسلاف، عاري القدمين عاري الرأس. ها هو ذا يتقدم سريعاً منحنيّاً على عادته، لكنه لا يباعد ساقيه، ولا يبدو عليه أنه ينخل دقيقاً. إنه يمشي بخطى قصيرة، مشياً غريباً، يكاد يقفز بساقيه الجريحتين قفزاً، والدم يخرج من حفر في أصابع قدميه محل الأظافر، وهو يحمل على كتفه خازوقاً طويلاً أبيض حاداً. ووراءه يسير مرجان، وعجريان آخران سيساعدانه في تنفيذ الحكم. وفجأة ظهر المأمور (لا يدري أحد من أين نبع) ممتطياً صهوة حصانه الأحمر الضارب إلى سمره، وسار في طليعة هذا الموكب الذي كان عليه أن يقطع مائة خطوة حتى يصل إلى أولى السقالات.

مد الناس أعناقهم، ونهضوا على رؤوس أصابعهم ليروا الرجل الذي دبر المؤامرة ونظم المقاومة وأحدث تخريباً في البناء، فما كان أشد دهشتهم حين رأوا المظهر البائس النافه لهذا الرجل الذي كانوا يتخيلونه على صورة أخرى، ما من أحد منهم كان يعرف لماذا يتوآب الرجل هذا التوآب المضحك، ولماذا يسير هذا السير المتقطع فما من أحد منهم كان يرى تلك الحروق التي أحدثتها السلاسل في جسمه، فنقدت في صدره كأخزمة كبيرة، وغُطيت الآن بقميصه وفروته المصنوعة من جلد الخروف لذلك بدا لهم جميعاً أبأس وأنفه من أن يقوم المأثرة التي تقوده الآن إلى الموت. وكان الخازوق الأبيض وحده يضيء على المشهد روعة مشثومة، ويلفت إليه جميع الأنظار .

فلما وصلوا إلى المكان الذي تبدأ عنده أعمال ركم الأرض، نزل المأمور عن حصانه، وأسلم خادمه اللجام بحركة متعاطفة مسرحية، ثم اختفى بين الآخرين في الطريق الموحد المنحدر الذي يهبط نحو الماء. وبعد قليل، أصبح في وسع الناس أن يروه مرة أخرى يظهر على ذلك النظام نفسه فوق السقالات، ويصعدون في بطء وحذر. وعلى الممرات الضيقة المصنوعة من أوتاد وألواح، كان رجال الدرك يحيطون براديسلاف إحاطة تامة، ويحاصرونه محاصرة كاملة، حتى لا يقذف بنفسه إلى النهر. كانوا يسرون على هذا النحو سيراً بطيئاً، وما زالوا يصعدون حتى وصلوا أخيراً إلى القمة. وهناك كانت تمتد فوق الماء فسحة من ألواح الخشب بحجم غرفة متوسطة، فعلى هذا المكان، فوق مسرح مرتفع، وقف راديسلاف، والمأمور، والفجر الثلاثة، بينما ظل رجال الدرك الآخرون مبعثرين حوله خلال السقالات.

كان الناس يتحركون على السفح ويدلون أمكنتهم. إن مائة خطوة تفصلهم عن هذه الألواح، ففي وسعهم إذن أن يروا كل شخص وكل حركة، لكنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الكلام ولا أن يميزوا التفاصيل. وكان الجمهور والعمال على الضفة اليسرى أبعد من ذلك عن المسرح ثلاث مرات، وكانوا يتحركون ما استطاعوا إلى الحركة سيلاً، ويدلون مزيداً من الجهد ليرهقوا السمع وينعموا النظر غير أنهم كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا شيئاً، حتى إن ما كانوا يرونه بدا في أول الأمر تافهاً لا يشوق، لكن المشهد بلغ من الفظاعة في النهاية أنهم أشاحوا بوجوههم جميعاً، وهرع كثير منهم يعودون إلى بيوتهم نادمين على أنهم جاءوا .

حين أمر راديسلاف بأن يستلقي، تردد لحظة في أول الأمر، لكنه لم يلبث أن تقدم من المأمور دون أن ينظر إلى الفجر ودون أن ينظر إلى الدرك، كأنهم لا وجود لهم، تقدم من المأمور فيما يشبه المسارة، كأنه واحد من ذويه، وقال له بصوت خافت أصم :

- اسمع، أستحلفك بحياتك وأخوتك أن تقدم لي هذا المعروف: أخرقني بحيث لا أتألم ككلب.

فانتفض المأمور، وصرخ في وجهه كأنما ليدفع عن نفسه هذه الحادثة المسرفة:

- امش أيها النصراني.. أنت، يا أيها الشجاع الذي يخرب بناء السلطان، تأتي فتتضرع كامراً.. سوف يتم كل شيء كما أمرنا وكما استحققت.

فزاد راديسلاف خفض رأسه، بينما اقترب الفجريان منه، وأخذوا ينضوان عنه فروته وقميصه. وظهرت في صدره الجروح التي أحدثتها السلاسل، حمراء متورمة، فلم يزد الفلاح على ما قاله شيئاً، بل رقد كما أمر، متجهاً بوجهه إلى الأرض. فتقدم الفجريان وشدا يديه إلى ظهره أولاً، ثم ربطا كل ساق من ساقيه بحبل، وأخذ كل منهما يشد الحبل إلى جهته، فنباعد ساقاه تباعداً كبيراً، بينما كان مرجان يضع الحازوق على قطعتين قصيرتين من الخشب بحيث يصبح رأس الحازوق بين ساق الفلاح. وبعد ذلك أخرج مرجان من جيبه سكيناً عريضة قصيرة، وركع قرب الرجل الممدد، ومال عليه ليقطع قماش سرواله بين الفخذين، وليوسع الفتحة التي ينفذ منها

الخازوق إلى الجسم. ومن حسن الحظ أن هذا الجزء الرهيب من عمل الجلال لم يستطع أن يراه المتفرجون، وإنما رأوا الجسم الموثق يرتعش تحت الضعنة السريعة القصيرة، ويرتفع بعض الارتفاع كأنه يريد أن ينهض، لكنه ما لبث أن سقط فجأة، فطرق الألواح طرْقاً أصم. حتى إذا فرغ العجري من عمله هذا، نهض واثباً، فتناول مطرقة الخشب من الأرض، وأخذ يدق بها الطرف الأدنى المدور من الخازوق طرْقاً بطيئاً محسوباً. وكان يتوقف قليلاً بين كل طرقة وطرقة فينظر أولاً في الجسم الذي ينفذ فيه الخازوق وينظر ثانياً إلى العجريين الآخرين فيحضرهما.. على أن يشدا الحبلين شداً رقيقاً بلا هز، وكان جسم الفلاح يتشنج غريزياً وقد تباعد ساقاه، فكلما نزلت المطرقة بضربة جديدة، انحنى عموده الفقري وتقوس، لكن الحبلين يشدانه ويعيدانه إلى وضعه.

كان الصمت على الضفتين قد بلغ من العمق بحيث أن الناس كانوا يسمعون الطرقات ويسمعون صداها يترجع في مكان ما على الضفة الصخرية المنحدرة. وكان أقربهم يستطيعون أن يسمعوا الفلاح وهو يضرب الأرض بجبينه، وأن يسمعوا صوتاً آخر ليس بالأنين ولا بالنحيب ولا بالحشجة، ولا هو أي صوت من أصوات البشر كائناً ما كان نوعها. لقد كان يخرج من الجسم الممتد المعذب صرير أو صريف كأنه صوت سياج من الأوتاد بقرع بالأرجل، أو كأنه صوت شجرة تكسر. والعجري يمضي إلى الجسد الممتد بين كل ضربة وأخرى فيميل عليه، ليرى هل يتقدم الخازوق في الاتجاه الصحيح، حتى إذا تأكد من أنه لم يجرح أي عضو من أعضاء الحياة، عاد إلى مكانه يتم عمله.

كل هذا كان يُسمع ويرى من على الضفة ضعيفاً، لكن الأرجل كلها كانت ترتعد، والوجوه كلها كانت تشحب، والاصابع كلها كانت تتجمد.

وتوقفت الضربات خلال اللحظة. لقد لاحظ مرجان أن مشط الكتف الأيمن قد توترت عضلاته وارتفع جلده. فاقرب بسرعة، وأحدث في موضع الانتفاخ شقاً على صورة صليب، فخرج من الجرح دم شاحب، كان قليلاً في أول الأمر، ثم ما انفك يتزايد. وما هي إلا ضربتان أو ثلاث ضربات خفيفة محاذرة، إذا رأس الخازوق يبدأ في الظهور من الموضع المشقوق. وظل مرجان يدق بمطرقته إلى أن أصبح رأس الخازوق في مستوى الأذن اليميني علواً.

لقد أدخل الخازوق في الرجل كما يدخل السيخ في الحروف لا فرق بين الأمرين إلا في أن الخازوق لم يخرج من الفم، بل خرج من الظهر، كما أنه لم يصب الأمعاء ولا القلب ولا الرئتين بكبير أذى، وعندئذ رمى مرجان المطرقة، واقترب، ففحص الجسد الساكن، ودار حول الدم الذي كان يتساقط قطرة قطرة من موضعي دخول الخازوق وخروجه ويتجمع بركاً صغيرة على ألواح الخشب. وقلب العجريان لحسم المتخدر فصار ظهره على الأرض، وأخذاً يربطان الساقين إلى أسفل الخازوق، وفي أثناء ذلك كان مرجان يفحص الرجل ليرى ألا يزال حياً، وينعم النظر في هذا الوجه الذي ازداد حجمه على حين فجأة فأصبح أعرض وأكبر.. كانت العينان جاحظتين، قلقتين، غير أن الحاجبين ما يزالان ساكنين، وكان الفم فارغاً، والشفتان متصلبتين متقبضتين،

والأسنان البيضاء، ملزوزة. لقد أصبح الرجل لا يستطيع التحكم ببعض عضلات وجهه، لذلك كان وجهه يبدو أشبه بقناع. لكن قلبه ما يزال يخفق خفقاناً أصم، وما تزال تخرج من رئتيه أنفاس قصيرة متسارعة. وأخذ العجريان ينهضانه كما ينهض خروف في سفود، وكان مرجان يصيح بهما أن انتبها ولا تهزا الجسم، وساعدهما هو نفسه في ذلك، فوضعا الطرف الأسفل الغليظ من الخازوق بين وتدين، وثبتا ذلك كله بمسامير كبيرة، ثم دعماه من الخلف على ذلك المستوى نفسه بقطعة قصيرة من الخشب سمروها بالخازوق وبأوتاد السقالات.

فلما انتهى العجر من مهمتهم، تراجعوا قليلاً إلى وراء، وانضموا إلى رجال الدرك، ولم يبق على تلك الفسحة الخالية إلا الرجل المخوزق، عالياً مقدار ذراعين، منتصباً، بارز الصدر عاريه إلى الحزام. وكان الرائي يستطيع من بعيد أن يرى الخازوق داخلاً في جسمه، وقد ربطت به ساقاه، بينما شدت يده إلى الظهر. لذلك كان يبدو للناس أشبه بتمثال محلق في الهواء، على ظهر السقالات، فوق قمة عالية مطلة على النهر....

وتراكضت دمدمات على الضفتين، وماجت في صفوف الجمهور حركة مضطربة، بعض الناس خفض بصره، وبعضهم أسرع يعود إلى بيته دون أن يلتفت، وأكثرهم ظل ينظر، دون أن ينطق بكلمة واحدة، إلى هذه القامة الإنسانية، المعروضة في الفضاء وقد تصلبت وانتصبت على نحو غير طبيعي. لقد جمد الذعر أحشاءهم وكانت سيقانهم تترنح تحتهم، لكنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا أنفسهم من هذا المشهد، ولا أن يحولوا عنه أبصارهم.

وبين هذا الجمع المذعور تسللت إيلينكا المجنونة، تنظر في عيني كل واحد، وتطيل النظر فيهما، عسى أن تستدل بهما على المكان الذي قُتل فيه ابناها ودفا .

واقرب المأمور ومرجان واثنان من رجال الدرك، من الرجل مرة أخرى، وأخذوا يفحصونه عن كتب. كان يسيل على الخازوق خيط نحيل من دم. أما الرجل فما يزال حياً، ولم يغم عليه: جنباه يرتفعان ويهبطان، وشرايينه تخفق على رقبتة، وعيناه تستديران ببطء لكنهما لا تثبتان، ومن بين أسنانه الملزوزة تخرج دمدمة يميز سامعها في شيء من العناء كلمات متقطعة :

- أتراك .. أتراك .. أتراك على الجسر... افطسوا كالكلاب... موتوا كالكلاب...

كذلك كان يئن الرجل وهو في أعلى الخازوق .

وجمع العجر أدواتهم، وهبطوا نحو الشاطئ على السقالات. ونزل في الوقت نفسه الدرك ورئيسهم .. فراجع الناس أمامهم وأخذوا يتفرقون، ولم يبق ثمة إلا الصبية الصغار، حطوا على كتل الصخر أو على الأشجار، ينتظرون شيئاً آخر ولا يدركون أن الأمر قد انتهى، وأن كل امرئ قد نال جزاءه، ويتساءلون عما سيحدث لهذا الرجل الغريب الذي يحلق فوق الماء، كأنما أوقف وهو يهم أن يشب إلى النهر .

اقرب المأمور من عابد آغا، وأنباه أن كل شيء قد تم على ما يرام. وانتهى إلى ما كان يقدر له، وأن السجين ما يزال حياً، وسيظل حياً، لأن أعضائه لم تمس، فلم يجب عابد آغا بشيء،

حتى ولا بنظرة، وإنما أوماً بيده أن يؤتى له بحصانه، وأخذ يودع طوسون أفندي والمعلم انطوان، وأخذ الناس يتفرقون، وكان صوت المنادى يعلن في أرجاء المدينة أن الحكم قد نفذ، ويهدد بعقاب كهذا العقاب، بل بعقاب أشد من هذا العقاب، كل من تسول له نفسه أن يفعل ما فعله الجاني.

ووقف المأمور مضطرباً على السفح الذي خلا من الناس فجأة. إن خادمه يمسك حصانه من الجماء، ورجاله ينتظرون أوامره. أحس أن عليه أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع أن ينس بكلمة، لأن انفعالاً قوياً قد نشب في نفسه وملأ جوانب قلبه. ففي هذه اللحظة فقد تذكر كل ما لم يستطع أن يتذكره قبل ذلك لانصرافه إلى إعداد تنفيذ الحكم.. في هذه اللحظة فقط تذكر تهديد عابد آغا له بأن يخوزقه حياً إذا هو لم يستطع القبض على الجاني. صحيح أنه نجا من هذه الكارثة، ولكن لم يكن بينه وبينه إلا قيد شعرة، وقد نجا منها في آخر لحظة. إن ذلك الرجل المنتصب هنالك، على السقالة، قد أعمل كل قواه في الليل، خفية، من أجل أن تقع الكارثة عليه هو. ولكن ها هي ذي الآن قد انعسكت. إن المأمور هو بين جميع الناس الشخص الوحيد الذي ينظر إلى الرجل المعلق موثقاً حياً فوق النهر، فتملؤه هذه النظرة بذعر ساحق وفرح أليم في آن واحد، ذعر يشب في نفسه إذ يتصور ما كان يمكن أن يقع له، وفرح يطير بلبه إذ يرى أن النازلة لم تنزل عليه هو، وأن جسمه ما يزال بخير وأنه ما يزال يستطيع أن يتحرك حراً. كان وهو يتصور هذا كله يشعر بقرصات حارقة تنتشر قوية عارمة في صدره، وتبلغ ساقيه وذراعيه، وتدفعه إلى أن يحرك رجله، وأن يضحك وأن يتكلم، كأنما ليقنع نفسه بأنه لا يزال في عافية وأنه يستطيع أن يتحرك طليقاً، وأن يتحدث وأن يفهمه صاحباً، وأن يغني إذا شاء، وألا يدمدم بلعنات عاجزة وهو في أعلى الخازوق، ينتظر الموت على أنه الحظ السعيد الوحيد الذي يمكن أن يهبط عليه.

إن يديه تتحركان على غير إرادة منه، وإن ساقيه تهمان برقص، وهذا فمه يفتح فتخرج منه ضحكة متشنجة، وتندفق منه كلمات غزيرة من تلقاء نفسها:

- ها ها ها... راديسلاف؟ يا جنّ الجبل، لماذا تصلبت هذا التصلب كأنك جثة؟ لماذا لا تواصل تخريب الجسر؟ لماذا تدمدم وتئن؟ غنّ يا جنّ... هيا ارقص ... يا جنّ...

شده رجال الدرك واضطربوا حين رأوا رئيسهم يرقص مباعداً ذراعيه، ويغني ويضحك مقهقهاً، ويغص بكلمات غريبة، بينما يخرج من حافتي شفتيه زبد أبيض.

وحتى حصانه رشقه، من جهته، بنظرات وبسبى ...

الفناء الملعون^(٥)

إيفو أندريتش

كان كراكوز دائماً يُمقت المتهمين السياسيين ويفضل أن يتصارع مع مائة مجرم وجانح كبيراً وصغاراً من عالم الإجرام الجنائي على أن يكون له أيّ اتصال مع مذهب سياسي واحد. كان جسده يقشعر عند سماعه بأخبارهم، لقد تحملهم مكرهاً في فئاته وعدّهم «عابرين». لكنه في حياته لم يرغب في العمل معهم. كان يتحاشاهم وكأنهم مرضى مصابون بمرض سار شديد العدوى، وكان يحاول التخلص بسرعة من كل ما هو سياسي وكل من أتى على صلة بهذه الصفة. كان يتوتر مستغرباً من هذا السجين الذي اقتيد من مدينة «سميرنا». إنه من عائلة تركية رفيعة، سارت معه جنباً إلى جنب صناديق مليئة بالكتب والمخطوطات، وليس مؤكداً أهو مجنون أم عاقل؟ ذلك أن المجانين وكل ما يتصل بهم يزرعون في نفس كراكوز خوفاً رهيباً وقرفاً غريزياً.

(٥) ص 69 ترجمة: د. وليد السباعي. منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1993 .

الفناء الملعون^(١)

إيفو أندريتش

إنها حكاية الأخوين الأزلية بشكلها الرسمي والجديد

فمنذ أن وجد العالم والحياة تتوالد تلك الحكاية من جديد وبغير انقطاع في هذه الدنيا، إنها حكاية الأخوين المتنافسين أحدهما الأكبر، كان الأذكى والأقوى والأقرب إلى العالم والحياة الحقيقية، وكل ما يتصل بالناس ويربطهم ويحركهم، رجل ينجح في كل ما يقوم به، ويعرف في كل لحظة ماذا يجب أن يفعل وماذا لا يجوز، ما الذي يمكن طلبه من الآخرين ومن نفسه وما الذي لا يمكن. أما الأخ الأصغر فهو على النقيض منه، رجل بعمر قصير وحظ عاثر، وخطا الخطوة الأولى، إنسان تذهب مطامحه دائماً بعكس ما يجب وفوق ما استطاع، وفي خلافه مع أخيه الأكبر، والخلاف هنا لا مفر منه يخسر منذ بدايتها .

وقف الأخوان وجهاً لوجه حينما مات أبوهما السلطان الفاتح محمد الثاني عام 1481 في أحد أيام شهر أيار في أثناء إحدى غزواته الحربية. كان الأخ الأكبر بيازيد قد أكمل الرابعة والثلاثين من عمره، والأصغر جم ما كاد يستهل الرابعة والعشرين. كان بيازيد حاكم أماسيا ومركزها على البحر الأسود. وجم حاكم كرامانيا في قونية. كان بيازيد أسمر اللون، طويل القامة محني الظهر قليلاً، متمالك النفس، محباً للصمت، وكان جم ضخماً أشقر الشعر، قوي البنية نفوراً وقلقاً، مع أن جم كان شاباً فقد كَوّن في قصره في قونية دائرة من العلماء والشعراء والموسيقيين.

وكان هو نفسه يكتب أشعاراً جيدة. وكان إضافة إلى ذلك سباحاً ماهراً رياضياً وصياداً. «رأسُ نضْرُ كما يقولون» لا حدود لمعارفه وهواياته، وبشكل بات معه النهار قصيراً، فأخذ من الليل والنوم قدر ما استطاع حتى يطبل يومه. وكان يجيد اليونانية ويقرأ بالإيطالية أيضاً

وكان بيازيد من أولئك الذين يندر أن يتكلم الناس عنهم قرناً، شجاعاً ومهراً في الرماية والحرب. ولم يكن الابن الأكبر والأكثر خبرة فقط وإنما كان، وبرغبة شديدة، الأعرف بأمور امبراطورية أبيه الكبيرة، الأعرف بقوانينها ومراسيمها، وبمصادر دخلها وعلاقاتها مع العالم الآخر. كان من أولئك الذين يفكرون في شيء واحد ويعملون شيئاً واحداً في كل لحظة من لحظات النهار، شيء هو الأهم والأكثر ضرورة وفائدة.

وفي التسابق على العرش الشاغر كان بيازيد الأسرع. والأمهر. وكان له جم أنصار بعدد أوفر

في القصر وفي الجيش (كان جميعهم يعلمون أن السلطان محمد الفاتح نفسه كان يميل إلى ابنه الأصغر ويرغب في أن يكون خلفاً له) لكن رجال بيازيد كانوا أفضل تنظيمًا وترابطًا، فعملوا بصورة أسرع، ووصل بيازيد أولاً إلى استنبول واحتل السلطة. وبدأ فوراً بتهيئة الجيش ضد أخيه الذي كان مع جيشه في الطريق من كرامانيا باتجاه استنبول. وصل جيش جم بإمرة قائده كديك باشا إلى بورصة، مركز السلطة العثمانية الأزلي، مدينة خضراء جميلة.

واقفة على منحدرات جبال عالية، وتهيأ للحرب. كان جيش بيازيد يقف في السهول بإمرة قائده إياس باشا. وابتدأت المفاوضات وكان لدى كل أخ من الإثباتات ما يدعم حقه وأفضليته. كان بيازيد الأكبر والأكثر استقراراً، استقبل واعترف به حاكماً في استنبول. وكان جم قد أسس حقوقه على إثباتات أخرى. لقد ولد بيازيد إبان حكم جدهما مراد الثاني حينما كان أبوهما ولياً للعهد فقط زمن أم أصلها جارية. وولد جم حينما أصبح الأب محمد الثاني سلطاناً وكانت أمه من عائلة أمراء من صربيا، ولم يكن السلطان محمد في أثناء حياته يصرح أن العرش بعده لابنه الأصغر، بل كان يعبر أن ابنه الأصغر هو الأقرب له، وهو في قرارة نفسه قد حدد العرش له. وقد أدت قدرة الباشوات التي تغذيها طاعة صادقة أو أهداف أنانية إلى إثارة الأخوين وتحريض أحدهما على الآخر. وكما يحدث عادة. فإن كلاً من الأخوين قد وجد في كل ما يحيطه تأكيداً كافياً لرغبته. وما أصر عليه، وإيماناً جازماً بحقه وقوته.

وفي ظروف كهذه لم تتمكن المفاوضات أن تؤتي ثمارها، لقد طلب جم حصته من السلطنة في آسيا، لكن ردّ بيازيد الهادي كان أن السلطنة واحدة وغير قابلة للتقسيم، وأنه لا يمكن أن يكون هناك سوى سلطان واحد. وعرض على أخيه الانسحاب مع الحرم إلى القدس ليعيش هناك بأمان بفضل مبالغ كبيرة من النقود وسيدفعها سنوياً. لكن جم لم يرغب ولو بسماع ذلك. فحدثت الحرب. وكان بيازيد قد نجح قبل ذلك في دس أحد رجاله وهو المدعو يعقوب بك بين مستشاري جم، وهكذا خسر جم الحرب واستطاع بشق النفس أن يحافظ على رأسه ويهرب إلى مصر، حيث استقبله هناك بترحاب والي مصر، والذي كان اقتتال الأخوين بالنسبة إليه هدية من السماء. وقد حاول جم بمساعدة والي مصر أن يجرب حظّه مرة أخرى، لكنه انهزم ثانية، ووجد نفسه من دون جيش على شواطئ آسيا الصغرى مع نفر قليل من رجاله المخلصين، (وبقيت زوجته وأمّه مع ثلاثة أولاد قاصرين في مصر) وهكذا، قرر جم لشعوره بالهزيمة ولادراكه ما ينتظره لو قبض عليه الهرب إلى جزيرة رود لطلب اللجوء من السلطة المسيحية هناك.

كانت جزيرة رود التي حاصرها محمد الثاني قبل عدة سنوات حصاراً لم يشعر عن شيء يحكمها أحد المذاهب الكاثوليكية القوية المسماة جواتينا وأمراء القدس، الذين يدينون بمذهب القديس يوحنا. وعُدّت مركزاً مالياً ومخلصاً للعالم الغربي المسيحي ومشهوراً عنده. وكان جم يعرف أولئك الأمراء من وقت سابق حينما أجرى معهم بعض المفاوضات بأمر من أبيه السلطان فيما مضى. وقد أرسل إليهم يرجوهم إلجاءه. وبما أنهم كانوا ينتظرون ذلك بفارغ الصبر أرسلوا

إليه فوراً سفينة خاصة حملته من الشاطئ مع حاشيته البالغة حوالي ثلاثين شخصاً ونقلتهم مباشرة إلى جزيرة رود واستقبل هذا الثائر والمنافس على العرش استقبالا سلطانياً رسمياً عند المعلم الكبير ممثل مذهب الأمراء د. أويسون « بيرد أبوسون » وكل الأمراء الرسميين، بل والشعب كله. وأكد المعلم الكبير لجم ضمان الحرية واللجوء السياسي وتفاهما بأنه سيكون من الأفضل أن ينتقي جم فرنسا وطناً يعيش فيه، ريثما يساعده الحظ على العودة إلى تركيا سلطاناً. وهكذا أرسل جم مع حراسه وحاشيته إلى فرنسا. وابتدأ د. أويسون العمل على كل المحاور والجهات ليستغل هذا الأمر التعيس أفضل استغلال لصالح طبقته ومذهبه، للمسيحيين عامة، بل ولمصلحه الشخصية، وكان واضحاً لديه أية رهينة تلك التي بين يديه. وحينما وصل إلى فرنسا لم تترك له الحرية، بل احتُجز، بعكس ما قطع له من عهود، في مدن قاسية كانت تخضع لطبقة أمراء القدس.

حول « أخي السلطان » حيك عديد من المؤامرات الخبيثة وطرحت حسابات كثيرة شاركت بها كل حكومات أوروبا فيها. والبابا بل والسلطان بيازيد نفسه. وهكذا رغب ملك هنغاريا ماتيا كوفين والبابا انيوكتتيا السابع في أن يُسلم جم لهما حتى يستخدماه وسيلة في الحرب ضد تركيا وبيازيد الثاني. لكن بيرد. أويسون الخبيث احتفظ بهذا العبد الثمين تحت سلطته وابتدأ التهديد بواسطته بطريقة ماهرة وعلى كل الجهات، تهديد بيازيد وسلطان مصر والبابا. وكان بيازيد يدفع له مبالغ طائلة هي ظاهرياً لتكون مصروفاً لجم، وفي الحقيقة ليحتفظ به ولا يسلمه للآخرين. وقد وعد البابا بيرد. أويسون هذا برتبة كاردينال إذا سلمه « جم ». وعرض عليه سلطان مصر مبالغ طائلة. ولم تتوقف أم جم التعيسة التي تعيش في مصر عن العمل في سبيل إطلاق سراح ابنها، مرسلة مبالغ كبيرة لجم. لكن كل تلك النقود كانت تبقى عند المعلم الكبير.

لقد استمر التكالب على أخي السلطان، واستمرت اللعبة الرقيقة ل د. أويسون ثماني سنوات وخلال ذلك كانوا يقودون جم من بلدة فرنسية محمية بدقة إلى بلدة أخرى ودائماً تحت حراسة أمراء القدس المشددة. وكانوا يجردونه ببطء من حاشيته، حتى لم يبق له في النهاية سوى أربعة - خمسة رجال من تلك الحاشية، وقد باءت كل محاولات الهرب والخلاص من أيدي أمراء القدس الكفار بالإخفاق. وفعل السلطان بيازيد كل ما بوسعه للتحرر من الضغط الذي كان يمارسه عليه كل العالم المسيحي بواسطة أخيه ذي الحظ العاثر الذي أضحى وسيلة في يد ذلك العالم. كان يستخبر عن أخيه من ملوك دوبروفنيك وملوك نابولي، ويستمر باتصالاته مع بيرد. أويسون ويقوم أمامه بتراجمات كبيرة ومن كل الأنواع. وعلى الرغم من كل ذلك كانت مصالحهما تتضارب على نحو ما. فرغبة د. أويسون هي الإحتفاظ بجم أطول وقت ممكن تحت سلطته ليهدد بواسطته قليلاً كل العالم. وكان المهم بالنسبة لبيازيد أن يتواجد أخوه منافسه في سجن أمين وليس على رأس جيش ما يزحف ضد تركيا.

وفي السنة الثامنة من إقامة جم في فرنسا، كان ذلك عام 1488 وصلت الحرب الدبلوماسية

حول شخصية جم إلى قمته حيث وصل المبعوثون إلى باريس من كل الجهات، وكان لديهم وظيفة رئيسة واحدة: شخصية جم، كان مبعوث بيازيد رجلاً يونانياً مسيحياً اسمه انطونيو ريريكو، عرض على ملك فرنسا ورجال قصره مبالغ طائلة، سراً، وعلناً عرض عليهم السلطة على القدس حالما ينتصر بيازيد على سلطان مصر ويفتح تلك المدينة، وعرض عليهم الهدايا الثمينة التي يرغب فيها رجال القصر ونساؤه. وفي الوقت نفسه أرسل ملك هنغاريا ماتيا كورفين وفداً على مستوى ممتاز يطالب بأخي السلطان لنفسه، وذلك لإمتلاك حظ أوفر من النجاح في حال هجومه على بيازيد، وكان أهم الوفود وفد البابا انيوكونتيا الثامن الذي على كهولته ومرضه لم يكن لينصرف عن مقاصده في حثّ الحكام المسيحيين على شن حرب صليبية ضد تركيا. ولهذا كان بحاجة إلى امتلاك أخي السلطان، السلطان المتمرّد تحت سلطته لاستخدامه وسيلة.

لكن المعلم الكبير من جزيرة رود كان يتجاوز أهدافه دائماً. ونجح في فرض رأيه على ملك فرنسا: أن يسلم جم للبابا. وفي شهر شباط 1489 يتم تحميل جم مع مرافقة صغيرة على قارب متجه إلى طولون. وبعد سفر صعب طويل يصلون إلى ستيفيناكيكار حيث ينتظرهم وفد كبير من البابا. ويدخل جم إلى روما محاطاً بعدد جيد من التابعين حيث يخرج لاستقباله الكاردينالات وكل رجال قصر البابا جنباً إلى جنب مع الممثلين الدبلوماسيين. وكان جم وكل تابعيه بلباس شرقي غني التطريز وقد امتطوا صهوات خيول أصيلة وفي اليوم التالي استقبل البابا بكل تهذيب وإحترام الأمير التركي الذي طال إنتظاره في قاعة الاستقبالات الخاصة. وقد رفض جم الإنحناء أمام البابا كما يفعل كل الناس الآخرون، بل تعانق معه وكأنهما ندان متكافان، وحاكم تجاه حاكم.

وأصبح بيرد. أويسون كاردينالاً. ولم تحصل طبقته على الإعتراف بها فقط وإنما على امتيازات أخرى حقيقية ومكاسب كبيرة من البابا.

وبعد عدة أيام استقبل البابا جم في قاعته الخاصة. وهناك تكلم بصراحة وانفتاح. فصرح جم أن أمراء جزيرة رود قد خدعوه. وأنهم احتفظوا به حتى الآن في الحجز. ورجا البابا أن يتركه ليذهب إلى مصر، حيث تقيم أمه وعائلته، كان حديث جم انفعالياً إلى درجة طفرت فيها الدموع في عيني البابا الذي واسى جم بكلمات رقيقة، لكن ذلك كله لم يتعد حدود الكلام، واستمرت اللعبة الدبلوماسية الكبيرة حول جم، واشتدت. حيث يعلن البابا حملته لتكوين جبهته من الملوك المسيحيين ضد تركيا.

وكان من المفروض أن يلعب جم في تلك الحملة الصليبية دوراً هاماً فكان الفاتيكان القفص الذهبي له. وقد طلب ماتيا كورفين تسليم جم له لحملة ضد تركيا. وبالمثل فعل والي مصر، فعرض فدية مقدارها ستمائة ألف ليرة ذهبية ومبلغ ستين ألفاً أخرى من أم جم إذا سُلم لهم. وفي عام 1490 مات ماتيا كورفين. وكان موته ضربة قاصمة لفكرة الحملة المسيحية العامة ضد بيازيد. وعندما علم بيازيد أن جم قد أصبح تحت سلطة البابا، أرسل مبعوثه الخاص إلى روما،

واستقبله البابا في قاعة الاستقبالات، وهناك تم إكتشاف كل كذب وافتراء د. أوبيسون وظهرت مبالغ النقود التي كان يتسلمها من بيازيد جليلة بوضوح، وطلب بيازيد من البابا الاحتفاظ بجم عنده وبالشروط التي إحتفظ بها أمراء رود به، أي مع بعض التراجعات السياسية و/40000/ ليرة ذهبية سنوياً. وحتى يستطيع دفع مبلغ /120000/ ليرة ذهبية عن ثلاث سنوات مقدماً فقد كان لدى المبعوث، لكن بصفته سلطاناً، ومع التشريعات الرسمية كاملة. وجلس مصالباً رجله فوق عرش خاص، يحيطه مرافقوه، وبجانبه أحد الكاردينالات. وقد ركع المبعوث أمام جم - السلطان، وسلمه رسالة وهدايا أرسلها إليه أخوه. حيث قرأ الرسالة في أذن جم، ومن دون أن ينظر جم إلى الهدايا، سلمها لمرافقيه ليتقاسموها بينهم.

ولم يتوقف البابا انيوكنتيا الثامن عن العمل لتكوين جبهة ضد تركيا. ونفذ بيازيد خطه ضد هنغاريا والبندقية. وفي خضم ذلك كله لعبت شخصية جم دوراً كبيراً. فأرسل السلطان للبابا «الرمح الذي طعن به السيد المسيح على الصليب» وبقياً من عظامه الثمينة، طالباً منه شيئاً واحداً فقط: أن يحتفظ بجم أسيراً، وألا يسلمه لأي شخص آخر. وطلب البابا من بيازيد عدم مهاجمة أوطان المسيحيين، وإذا ما حدث فسوف يستغل جم، واضعاً إياه على رأس الحملة الكبرى ضد تركيا.

وفي تلك الأثناء مات البابا انيوكنتيا الثامن. وفي فترة انتخابات البابا الجديد سجن جم في قلعة القديس أنجل احتياطياً لضمان أكيد. وقد انتخب الكاردينال الحالي رود ريكو بورجيا باباً جديداً. وهو المعروف باسم البابا اسكندر السادس. وبدأ أن زمناً أفضل سيحين بالسلطان غير المتوج للامبراطورية التركية. ذاك أنه تصادق مع أمناء البابا، وأصبح يتحرك بحرية أكبر وشارك في الإحتفالات، وقد ظهرت شخصية جم في تاريخ الحوادث والرسائل ورسوم الفنانين الحديثين، وكأنه رجل في الثلاثين من عمره بدا وقد تجاوز الأربعين، أكثر بدانة، قائم الوجه، مسدل الجفن الأيسر تماماً، هكذا ليبدو « كرجل يصوب على هدف » مترهلاً، معقداً صارماً تجاه الخدم، مستسلماً لشهواته، خصوصاً للشراب، الذي يبحث فيه عن المنام والنسيان.

وفي تلك الأثناء حدث بين الحكام المسيحيين الغربيين اشتباك جديد وكبير. فقد زحف ملك فرنسا الشاب كارلو الثامن بجيوشه على إيطاليا ليحتل مملكة نابولي، التي افترضها من حقه. وأكد بنفسه أنه سيقود جيوش الجبهة المسيحية إلى هناك في حرب صليبية ضد تركيا. ويفعل البابا كل ما بوسعه ليوقف زحفه ودخوله إلى إيطاليا، وفي تلك الأثناء يجري اسكندر الرابع محادثات مع بيازيد، بل ويطلب منه المساعدة ضد ملك فرنسا ويرسل له بيازيد المبلغ المتفق عليه وهو /40000/ ليرة ذهبية مصكوكة في البندقية ليكون مصروفاً سنوياً لجم. وفي رسالة خاصة يعرض عليه /300000/ ليرة ذهبية ليسلمه جثة جم، وتمكن أعداء البابا في إيطاليا من ضبط هذه الرسالة وأعلنوها على الملأ.

ويدخل كارلو الثامن إيطاليا ويفتح بسرعة البلد إثر البلد. وفي آخر يوم من عام 1494 يدخل

روما. ولم يبق أمام البابا أي طريق آخر سوى التفاهم مع الفاتح الشاب بأقل ما يمكن من الخسارة والدمار. وكان أحد مطالب كارلو أن يسلمه البابا أخا السلطان، الذي يعزم هو الآخر استغلاله في الحرب ضد بيازيد أيضاً. واتفقا أن يصطحب كارلو معه جم في حملته ضد نابولي، وفيما بعد ضد تركيا، لكن البابا طلب من ملك فرنسا إعطائه ضماناً أكيدة بأن يعيد إليه الأسير الغالي بعد انتهائه من الحرب. وعقد معه اتفاقاً خاصاً لتبقى الـ 40000/ ليرة ذهبية التي يرسلها السلطان له في المستقبل.

وسلم البابا جم لملك فرنسا في قاعة الاستقبالات أمام شهود كثيرين ومعه حاشيته قليلة العدد. وحينما أبلغ البابا قراره هذا لـ جم، صرَّ جم بأنه عبد، وبأنه سواء لديه من الذي يحتفظ به أسيراً، أهو البابا أم ملك فرنسا.

وحينما انطلق كارلو متجهاً لمواجهة ملك نابولي قاد معه جم وحاشيته، مصطحبين ابن البابا جيار، وهو كاردينال من البندقية بوصفه رهينة، لكن جيار الخبيث هرب في الطريق. ومرض جم، ولم يستمر مرضه سوى عدة أيام، حيث مات في كابري قبل أن يصلوا إلى نابولي. وكان قد أوصى رجال حاشيته الذين قضوا معه كل سنين الأسر بنقل جثته إلى تركيا من كل بد، حتى لا يستغله الكفار وهو ميت، وأملى عليهم رسالة موجهة إلى أخيه بيازيد يرجوه فيها أن يسمح لعائلته بالعودة إلى استنبول، وأن يكون رحيماً بأولئك الذين اتبعوه باخلاص في أسرهم الطويل. وقد أمر كارلو أن يحنط جسد جم، وأن يوضع في صندوق رصاصي، تناقلت الألسن فوراً خبراً مفاده أن البابا قد سمم جم، وأنه قد سلمه مسموماً إلى الملك. وأسرع مجلس الشورى في البندقية لإخبار بيازيد فوراً بموت جم رغبة منه في أن يكون أول من يزف تلك البشرى المفرحة إلى السلطان القادر.

انتهت حملة كارلو الثامن نهاية بائسة، وعاد كارلو إلى فرنسا حيث مات بعد فترة قصيرة. وبقي جسد جم في حوزة ملك نابولي. وقد جرت الكثير من المراسلات حول جسد الميت. لقد ابتز ملك نابولي بيازيد وأرسل البابا أسكندر السادس مطالباً بحصته. لكن ملك نابولي استولى على الفائدة كلها واحتفظ بها لنفسه. لقد خدمه ذلك الجسد الميت في عقد اتفاق مناسب جداً مع السلطان وفي شهر أيلول 1499 سلم الجسد الميت أخيراً إلى بيازيد الذي دفنه باحتفال جنائزي في مقبرة بورصة، حيث يدفن عادة الحكام الأتراك.

الأخوة كارامازوف^(١)

دوستوفسكي

- بالمناسبة، لقد قصّ علي بلغاري في الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون في بلاده «بلغاريا» إلى أنواع شديدة من القسوة بغية إرهاب الشعوب السلافية التي يخشون أن تثور عليهم ثورة شاملة. فهم يحرقون القرى، ويذبحون السكان، ويعتصبون النساء والأطفال، ويسمّرون بعض السجناء من أذانهم بسياج، فيدعونهم هنالك طول الليل، ثم يعودون إليهم في الصباح ليشنقوهم، أمور تفوق الخيال، يقال أحياناً أن الإنسان «حيوان كاسر» إلا أن في هذا القول إهانة للحيوانات لا داعي لها، فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر في القسوة أبداً. وهي لا تتفنن في قسوتها تفنن الإنسان. النمر يكتفي بتمزيق فريسته والتهامها، إنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمر أحداً من أذنيه بسياج، ولو قدر على ذلك، وأولئك الأتراك يتسلون خاصة بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً، إنهم تارة ينتزعون بالخناجر صغاراً من أرحام أمهاتهم، وتارة أخرى يرمون رضاعاً إلى فوق ويتلقفونهم بالحراش على مرأى من أمهاتهم بعد حضورهن أهم عنصر من عناصر هذه المتعة ولقد حفظت ذاكرتي على الخصوص مشهداً وصف لي: أم ترتجف جزعاً وهلعاً وفي يديها طفل رضيع، وأترك يحيطون بها، ويتخللون لعبة صغيرة، إنهم يلاعبون الطفل، ويلطفونه، ويسلّونه، ويضحكونه، والطفل سعيد، فهي هو يضحك، وفي تلك اللحظة، يصوّب إليه أحد الأتراك مسدسه، ينفجر الطفل ضاحكاً، ويمدّ يديه الصغيرتين ليتناول المسدس، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد، فينطلق الرصاص ويهشم جمجمة الطفل، أليس هذا فناً في الواقع؟ بالمناسبة يقال أن الأتراك يحبون الحلوى..»

الدرويش والموت^(٥)

ميشا سليموفيتش

. إنني شيخ لتكية الطريقة المولوية أكثر الطرق عدداً وأنقاها، وتقع التكية التي أعيش فيها عند نهاية البلدة بين صخور سوداء مرتفعة تحجب رؤية السماء على اتساعها وتبقى شريطاً فوقها يشبه رحمة البخيل وذكرى الطفولة في تصورهما للسماء الضخمة الواسعة. لا أحبها. تلك الذكرى تعذبني شيئاً فشيئاً، لقد كانت بمثابة الفرصة مرت دون أن أغتنمها وإن لم أدر صورتها وإنني في غير وضوح أقارن الغابات الخضراء التي تعلو بيت والدي كما أقارن الحقول والحدائق حول البحيرة بمضيق الصخور الذي حبست فيه أنا والتكية ويخيل إلي أن هناك تشابهاً كبيراً بين المضائق في نفسي والمضائق من حولي.

هذه التكية جميلة وواسعة وتقع على شاطئ جدول ينساب بين صخر الجبال كما تحيط بها حديقة ذات أزهار وكروم تتسلق فوق الشرفة ولها ردهة جميلة يسودها هدوء يزيد من إحساسنا به سماع رقرقة المياه التي تجري بقربها.

وقد كانت في الماضي حريماً للأجداد ثم أهداها إلى الطريقة المولوية رجل موسر يدعى « علي جانيتش » لتكون مجمعاً للدراویش وملجأ للفقراء من الآثام والشرور وارتدت بذلك ثوب الشرف الذي ترتديه الأماكن المقدسة على الرغم من أننا لم نستطع على وجه التمام أن نبعد عنها أشباح الشباب فقد كان يخيل إلينا أحياناً أنهم يطفن هنا وهناك وأن رائحتهم تصل إلى أنوفنا.

(٥) ص 12، ترجمة: د. حسين عبد اللطيف وأحمد سمائلوفيتش - منشورات قطاع الكتاب والتوزيع والإعلان، طرابلس - ليبيا، الطبعة الثانية 1981 .

مايريك (أميمتي)^(١)

هنري فيرنوي

- ابتدأت الأمسية بقراءة هذه البرقية المكتوبة بالرموز وقد أرسلها الوحش التركي إلى جميع الحكام .

في ذلك المساء، في ردهة، سائر مسرحها سوداء، اجتمع نحو ألفين من الذين نجوا من هذه المذابح، لكي يحيوا ذكرى موتاهم، جميع هؤلاء الذين نجوا بأعجوبة، وقد بدت وجوههم رصينة محزونة، وهم مدهوشون لأنهم لا يزالون أحياء، في حين أن كل شيء قد خطط ونظم تنظيمًا محكمًا لإفنائهم. أصغوا صامتين إلى صوت شاعر أرمني طاعن في السن.

كنا في 24 نيسان 1927 . كنت في سن السابعة، تردّد والدي كثيرًا في أن يذهب بي إلى تلك الأمسية، ولكن لم يستعمل قط في أسرتي امتياز الراشدين لفرض قرار بأمر اعتباطي «تبقى في البيت ولا تجادل».

عرضت علي خالتي أنا بلطف أن تؤانسنني ولوحت والدتي بشبح خطب كثيرة طويلة وأشارت كأيانه إلى صغر سني، وبموجز العبارة كانت رائحة نهبي القاصرين تفوح في الهواء، في ذلك المساء، قاومت بمالي من سلطة أولتني إياها مطالعاتي الحديثة ، كنت قد تركت مدام دي سيغور ومكتبته الوردية اللون لألتحق يوماً بصحبة السيد جول فيرن، فما تلك القصة التي كانوا يريدون إخفاءها علي؟

- اعلم يا منتشيس أنني لست على يقين من أن طائرک الرمادي سيلقى وهو يسقط أذرع مركب أبيض، في القصة التي ستروى لك، فإذا وعدتني أنك لن تبكي، فهل؟
فكرت طويلاً، أسأكون قادراً على تبديل قلبي السريع الإنكسار قلباً من البرونز، أجببت بصوت كله عزم وثبات :

- لن أبكي .

جلست إلى ريع كرسي مشدوداً إلى والدي، وراء صفوف من الأجساد الكتف منها بلزق الكتف، فرأيت المسرح من خلال فجوة صغيرة جداً بين جمجمتين. وتكلم بعض الرجال على قصة أشبه بنهاية العالم، شعب يحيا بسلام في أرض أجداده، وجحفل دبّ فيه التعصب، وتوحش، وسكر بالذبح فانهاه ذات يوم مشؤوم على مدن ذلك الشعب وقراه وريفه المشرق.. ثم

ساد سكون تام سكوت الموت، ولم يبق سوى حقول رماد وخراب وأرض محروقة وأيام أحد أصبحت غير مجددة بكنائسها التي أشعلت منها النار.

وراء الستار الأسود الذي أسدل على المسرح علامة على الحداد، رأيت أشباح الشهداء بوجوهها التي حرثتها السياط، وأطفالاً حطمت جماجمهم على الصخور ومأساة أمهات بقرت بطونهن، وصبايا انتحرن ليفلتن من الهوان، والفرات يجرف ألوفاً من الجثث المقطعة إرباً إرباً.

طغاة مهووسون في هذيانهم لإقامة الجامعة التركية وحلمهم بامبراطورية عثمانية تشمل آسيا، ذلوا العقبة الأولى في طريق أحلامهم التوسعية، الأرمني هذا المسيحي الشرقي من كنيسة رسولية، والذي لا ينكر دينه، لابدّ من إبادته ليترك للفاتح الهمجي أرمينيا بلا أرمن.

(*) ص 61- 62 ترجمة الأب: يوسف قوشقجي. الناشران: دار الحوار - اللاذقية ونادي الشبيبة السورية - اللجنة الثقافية (حلب). 1992

الأيام الأربعون لجبل موسى^(١)

فرانز ويرفل

أغلق كيليكيان الساعاتي محله باكراً عند منتصف النهار لكنه ما كاد يجلس إلى مائدة الطعام حتى انقضت مجموعة من الرعاع على باب المحل، وكانت زوجة كيليكيان القوقازية ممشوقة القامة، شقراء الشعر، وما كادت تحضر الصحن حتى نهض وانطلق زوجها الذي أصبح وجهه شاحباً ليفتح باب الدكان، وانطلق سر كيس في أثر والده إلى الدكان الذي اكتظ بالرجال مجموعة من قوات الصاعقة التابعة للسلطان عبد الحميد وكان قائد المجموعة شاباً مورداً الوجه ابن أحد المسؤولين وكان الشيء الملفت للنظر في هذا الشاب التركي الميداليات والنياشين الكثيرة والغريبة المبعثرة هنا وهناك على صدره بينما واصل رجاله الأكراد عملهم بإفراغ محتويات الدروج في أكياس ثم زمجر الشاب في وجه الساعاتي: إنك مراي وتقرض النقود، جميع الأرمن الخنازير مرايون وقارضو مال. أنتم أيها الخنازير القذرون مسؤولون عن تعاسة شعبنا.

أشار المعلم كيليكيان بهدوء إلى الطاولة التي يعمل عليها وعليها المنظار الكبير والملقط ونوابض وقال: ولماذا تدعوني مرايياً؟

- «كل الموجودات هذه تستخدمها لتستتر على مصك للدماء».

ولم يستمر النقاش أكثر من ذلك، إذ سرعان ما انطلقت رصاصات في الغرفة الضيقة الواطئة وللمرة الأولى شتم المعلم سر كيس رائحة البارود المنبعثة من البندقية وفي البداية لم يفهم كنه ما حدث عندما شاهد أباه ينحني على الطاولة ويسقطها على الأرض معه ودون أن ينبس بكلمة انسحب سر كيس إلى البهو ووقفت أمه الشقراء واجمة وظهرها للحائط ولم تجرؤ على التنفس وكانت تضم إليها ابنتيها الصغيرتين البالغتين من العمر سنتين وأربع سنوات وكانت عيناها مثبتتين على المهدي الذي يستلقي عليه وليدها وكان ميسروب البالغ من العمر سبع سنوات يحذق بجشع إلى قطعة الكباب التي كانت لا تزال على الطاولة وعندما أطبق الرجال المسلحون عليهم، أمسك سر كيس أحد الصحن ورماه في الهواء فأصاب قائدهم المنتفخ الوردى، وأطلق صيحة في الهواء وكأنه أصيب بقبلة يدوية وتناثر مرق اللحم على ثيابه ثم تبعه الإبريق الفخاري وبدأ الدم يسيل من أنف زعيم المجموعة لكن ذلك لم يمنعه من حث رجاله بصيحات مجنونة، ووقف سر كيس الصغير وهو يحمل سكين مطبخ أمام أمه لحمايتها ورمى أحدهم بنفسه بسرعة وجبن على المهدي

وخطف الطفل الذي كان يطلق صيححاته في الهواء وهشم جمجمته بالحائط، دفن سر كيس وجهه في جسد أمه الذي تشنج ثم بدأ سيل الطلقات المنبثقة من المسدسات العديدة تنهال على المرأة والأطفال الأربعة وغطت الغرفة سحابة كثيفة من الدخان . إلا أن سر كيس لم يصب بأية رصاصة وكان أول من لقي حتفه ميسروب البالغ من العمر سبع سنوات وتعلق جسد الفتاتين الصغيرتين وهما متدليتان في ذراعي أمهما التي ظلت ممسكة بهما، كان وجهها المستدير صلباً جامداً وأصاب إحدى الرصاصات ذراعها اليمنى ثم ثقت رصاصات كتفها وكانت لا تزال منتصبه ومتمسكة بطفليها وعندما أصابت رصاصتان أخريان وجهها سقطت إلى الأمام وانحنت فوق سر كيس الذي ما زال متشبثاً بها وأخذ الدم المنساب من أمه يتدفق فوق شعره. وغطته بجسدها وبقي ساكناً تحت جسد أمه الدافئ الذي كان يتنفس بصعوبة، لكنه لم يعد يتحرك أبداً، وثقت أربع رصاصات أخرى الحائط وشعر قائد المجموعة بأنه أنجز مهمته بنجاح وصاح:

- تركيا للأتراك ...

(*) ترجمة: خالد الجبيلي . 1995 . منشورات دار الحوار - اللاذقية واللجنة الثقافية لنادي الشبيبة السورية - حلب .

أعمدة الحكمة السبعة^(١)

لورانس

وعند زاوية المطار في الطرف الجنوبي من المحطة ولجت إلى داخل المدينة، كان يوجد هناك أكواخ قديمة يدور حولها الرجال، فعمد أحدهم وهو جندي سوري إلى إلقاء أسئلة عن قوانا لمعرفة مدى قوة «الحكومة» حيث نعيش وقد كان - كما لاحظت - من أولئك التائقين إلى الهرب من الجيش التركي وهو يبحث عن وسيلة آمنة لذلك، ولكننا استطعنا أخيراً أن نتخلص منه ونتابع سيرنا وتجسسنا، غير أننا ما كدنا نبتعد حتى سمعنا صوتاً ينادي بالتركية ولما حاولنا تجاهل ذلك، أسرع أحد الرقباء وأمسكني بذراعي قائلاً:

- «البليك يطلبك» لم يكن هناك مجال للهرب أو العراك لكثرة الشهود، ولذلك أطعت وتبعت الرقيب بينما بقي فارس حيث هو دون أن ينتبه إليه أحد.

وراء السور كانت تقوم أبنية المعسكر، قادني الرقيب إلى أمام أحدها حيث كان يجلس ضابط تركي قدمني إليه بعد أن أجرى معه حديثاً طويلاً بالتركية، سألتني الضابط عن اسمي قلت:

- أحمد بن بكر، شركسي من القنيطرة.

- أنت فراري !

- نحن الشركس لا نخضع للخدمة العسكرية .

وعلى الأثر فغرفاه صارخاً:

- كذاب. خذه شاويش حسن وافعل اللازم حتى يرسل البليك في طلبه. اقتادوني إلى قاعة كبيرة فيها عدد من الجنود الوسخي الثياب، ثم انتزعوا مني حزامي وخنجري وأمروني بالاعتسال ثم قدموا لي شيئاً من الطعام، بقيت هناك طول النهار رغم كل محاولاتي الخروج بأي ثمن، وكل ما فعلوه لأجلي هو محاولة تطميني وقولهم بأن حياة الجندي ليست بالسوء الذي أظن. وبعد ذلك قالوا قد تحصل على إذن بالخروج غداً إذا أشبعت في هذا المساء رغبات البليك. بدا لي أن هذا البليك هو الحاكم الناهي وأضافوا قائلين: «إذا لم يكن راضياً فسترسل إلى مدرسة المشاة في بعلبك» تظاهرت بالبله وسعيت جهدي لإخفاء شخصيتي.

وخلال السهرة جاء ثلاثة رجال في طلبي فظننت أن الفرصة قد جاءت كي أهرب ولكن ظني خاب، وبقي الحراس ممسكين بي ونحن نجتاز الممر ثم الخطوط الحديدية لنصل إلى دارة من

طابقين يحرسها عدد كبير من الجنود. أدخلوني إلى غرفة البيك في الطابق الأول، وكان ساعتئذٍ ممتدداً فوق سريره في ثياب النوم، يرتجف ويتصبب عنه العرق كأنه مصاب بالحمى. لم يرفع رأسه ساعة دخولنا وكل ما فعله أن أومأ للحراس بالخروج ثم عاد إلى صمته بعد أن أشار إلي بالجلوس قبالة على السجادة وبعد برهة رفع رأسه وبدأ يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم طلب إلي أن أقف وأستدير، فأطعت، وإذا به يأخذني بين ذراعيه عنوة فتملصت بعد أن تبينت غايته، ووقفت قبالة يملأني الجبور لاكتشافني بأنني كنت نداءً له في العراك على الأقل.

أخذ «البيك» عندئذٍ يلاطفني ويتغزل بقوامي ولون بشرتي الأبيض واستدارة قفائي، ثم وعدني بإعفائي من الخدمة العسكرية والسخرة مجزلاً لي العطاء... كل هذا مقابل إشباع رغباته الجنسية الشاذة ولما قابلته بالعناد والصمم غير لهجته وأمرني بخلع سروالي وعندما لحظ ترددي انقض علي فرددته، عندئذٍ صفق بيديه منادياً الحارس الذي دخل فوراً وأوثق ذراعي ببعضهما، في هذا الوقت كان «البيك» يكيل لي الشتائم المقدعة، ثم أمر الحارس بتمزيق ثيابي ففعل. وعلى الأثر ظهرت آثار إصابتي الأخيرة بالرصاص والشظايا، فاعتري البيك الدهول، ولكنه سرعان ما استعاد رشده وعاد إلى التطلع النهم إلى جسدي العاري. عندئذٍ عيل صبري فهجمت عليه وضربته بركبتي على بطنه فتراجع ليرتمي على السرير مزمجرأ من الألم فيما كان الحارس يستغيث برفاقه ورئيسه، دخل هؤلاء وأوثقوا لي رجلي بعد يدي، ولما لم يعد في إمكاني القيام بآية حركة استأسد البيك من جديد وبصق في وجهي متوعداً، بعد ذلك غرز أطافره في عنقي ثم أسنانه، وبعد ذلك قبلني ولما أشبع رغبته هذه استل حربة الحارس وأخذ ينكزني بها، فصرخت من الألم فيما كان الدم يسيل على فخذي وقد بدا على البيك أنه مغتبط جداً بما يفعل.

إيليا كازان يتحدث(*)

إيليا كازان

كازان: ...

- اليونان الأناضوليون بشر مشيعون بالرعب، كانت أسرة والدي من وسط آسيا الصغرى، من مدينة تدعى «كيسري» وهم لا ينسون أبداً أنهم جزء من أقلية، كانوا محاطين بالمذابح الدورية أو أعمال الشغب، فجأة يخلق الأتراك أزمة ثم يقتلون الكثير من الأرمن أو ينطلقون بجنون ويقتلون الكثير من اليونانيين، كان اليونانيون يظلون في بيوتهم، كانت واجهات البيوت مسدودة بمتاريس والنوافذ مغلقة بألواح خشبية، ما تزال إحدى الذكريات الأولى في ذهني حين كنت نائماً في سرير جدتي وهي تحكي لي قصصاً عن القتل الجماعي للأرمن، وكيف خبأت مع جدي الأرمن في قبو بيتها، كان الأرمن أكثر حيوية، تاريخهم حافل بقدر أكبر من الشجاعة والتمرد، وكان اليونانيون أكثر مكرراً فلم يتمردوا ولذلك لم يتعرضوا للقتل بهذا القدر.

كان اليونانيون يتكلمون اليونانية في بيوتهم، ولكن في الخارج في السوق حيث يعمل الرجال، وتتسوق النسوة يتكلمون التركية. أنا ما أزال أتكلم اللغتين، بمعنى استخدم لغة الظالم والمظلوم بنفس الدرجة من الإتقان، عدت إلى كيسري عام 1960 حين كنت أحضر لفيلم «أمريكا سميرنا» لقد أراني الأتراك أنقاض بيت جدتي وبقره، وأتذكر أن الأتراك أنزلوا دلواً صغيراً وأخرجوا بعض الماء لشربه، كان أبيض جداً، حليبي اللون تماماً، خفت أن يكون ملوثاً، تركت لهم بعض المال ليقوموا بإصلاح البئر، عاملوني بأكثر قدر من الود والصداقة، أحب الشعب التركي كثيراً إلا أنني أعتقد أنهم لم يسمحوا لليونانيين أن ينسوا أنهم كانوا أقلية، من جهة أخرى كان اليونانيون ينظرون إلى الأتراك باستعلاء. كانوا يعتبرونهم رجوشاً، حيوانات تنقصها الحضارة والتهذيب والعراقة.

(*) ص 7 - 8 ، إعداد: ميشيل سليمان - ترجمة: محمد جمول. منشورات وزارة الثقافة السورية - المؤسسة

العامة للسينما. دمشق. 1993

البُلطة^(هـ)

ميخائيل سادو فيانو

ما إن خلق الرب الأرض حتى أقامها على موازنة حكيمة، فأغدق على كل جنس من البشر بعطيه ينفرد بها :

ألهم الغجري براعة العزف على القيثارة.

وأفضى إلى الألمان بسرّ صناعة الحديد.

واصطفى موسى من بين اليهود وناداه وأمره قائلاً:

- أما أنت فستكون كاتب الشريعة وحتى تدق الساعة تلقون من العذاب والاضطهاد أشكالاً وألواناً، ولقاء ذلك سأجعل المال يتدفق في أيديكم.

وأشار بأصبعه يستدعي المجري، واختار له طرفته من بين أكوام الهدايا المقدسة إلى جانبه ومدّها إليه قائلاً:

- حذاء راكب الخيل ومهمازه هما لك خذهما، ولك أيضاً هذا الزيت لتدهن به طرف شاربك فيلمع، سيكون من شيمتك الغرور، وحب اللهو في المآدب مع الخلان.

ولما جاء دور التركي قال له :

- فرزت لك الحماقة وعوضتك عنها بسلطان لك ممدود بحد السيف.

(هـ) ص 15 ترجمة: يحيى حقي. منشورات الكتاب الجديد - القاهرة. 1972

فهرس المحتويات

7	مدخل عام
9	1- في الميثولوجية
11	2- في التاريخ
17	القسم الأول - صورة التركي في الأدب العربي الحديث
19	الفصل الأول - المملوك من الحرسى إلى أمير الأمراء
23	جرجى زيدان: عروس فرغانة
26	أحمد بن طولون
28	شجرة الدرّ
32	استبداد المماليك
35	المملوك الشارد
36	الإنقلاب العثمانى
42	محمد سعيد العريان: على باب زويلة
45	قطر الندى
50	محمد فريد أبو حديد: الأمير بدر الدين بيلىك
53	الفصل الثانى - مقدمات للعصر الحديث
55	عبد الكرىم السبعائوى: العنقاء
61	الرئيس عبد الناصر: فى سبيل الحرية
69	أمين معلوف: صخرة طانيوس
73	الفصل الثالث - الغول
75	افتتاحيات
77	مدخل
78	توفىق يوسف عواد: الرغيف
84	نادىا الغزى: شروال برهوم «أيام من سفر برلك»

87	جبران مسعود: جدتي «قصص من صميم لبنان»
91	هاني الراهب: الرباء
93	توفيق فياض: البهلول
97	عبد الكريم محفوظ: الطريق إلى الشمس «تشرقة آل المر»
100	فائز الغصين: المذابح في أرمينا
103	فيصل خرتش: أوراق الليل والياسمين
106	نهاد سيريس: رياح الشمال - سوق الصغير - 1917-
110	نبيل سليمان: مدارات الشرق «الأشعة»
114	ملحق
115	الفصل الرابع - بقية... من نشوة الماضي
116	مدخل عام
118	توفيق الحكيم: عودة الروح
124	بيرم التونسي: مقامات
125	عبد الحكيم قاسم: الأخت لأب
128	ابراهيم المرجاني: ثائر من بلدي
132	عبد السلام العجيلي: جيل الدربةكة
136	نجيب محفوظ: المرايا
138	القيء
139	همس الجنون
141	القاهرة الجديدة
149	السراب
151	الثلاثية (بين القصرين - قصر الشوق - السكرية)
155	من تجليات الصورة عند حنا مينة
158	يوسف السباعي: رد قلبي
161	يوسف القعيد: الحرب في بر مصر
165	ابراهيم الكوني: الحسوف
168	ملحق
169	القسم الثاني: صورة التركي في الأدب الحديث
171	الفصل الأول: باشوات وعبيد
173	نيكوس كازا نتراكيس: الطريق إلى غريكو
177	الحرية والموت
181	المسيح يصلب من جديد

186	إيفو أندريتش: جسر على نهر الدرينا
193	الفناء الملعون
197	تيودور دوستوفسكي: الأخوة كارا مازوف
199	راسين: بايزيد
202	اسماعيل كاداره: الحصن
205	ميرسيا مكدير موت: رسول الحرية
208	ميخا سليموفيتش: الدرويش والموت
211	الفصل الثاني: ميراث الدم .. دائماً
213	مداخلات صغيرة بمثابة المقدمة
215	هنري فيرنوي: مايريك (أميمتي)
218	فرانز ويرفل: الأيام الأربعون لجبل موسى
221	لورنس: أعمدة الحكمة السبعة
223	ميودراك بولاتوفيتش: رجال بأربع أصابع
226	ماريو بوزو: العراب
227	بيلي هيز: قطار منتصف الليل
229	ميشال كليرك: فئران الأنابيب «البخشيش»
231	خاتمة
233	نصوص مختارة
235	جرجي زيدان: عروس فرغانة
236	أحمد بن طولون
237	محمد سعيد العريان: على باب زويلة
238	الرئيس عبد الناصر: في سبيل الحرية
239	أمين معلوف: صخرة طانيوس
240	توفيق يوسف عواد: الرغبة
243	نادية الغزي: شروال برهوم «أيام من سفر برلك»
244	جبران مسعود: جدتي
245	هاني الراهب: الوباء
246	عبد الكريم ناصيف: الطريق إلى الشمس «تشرقة آل المر»
248	فائز الغصين: المذابح في أرمينيا
249	فيصل خرتش: أوراق الليل والياسمين
250	نهاد سيريس: رياح الشمال (السوق الصغير)
252	رياح الشمال 1917-

253	نبيل سليمان: مدارات الشرق «الأشعة»
255	المنفلوطي: النظرات
256	ابراهيم الخليل: الهدس
257	عبده جبير: ثلاثية سبيل الشخص
258	أسعد مفلح داغر: ثورة العرب
259	توفيق الحكيم: عودة الروح
262	نجيب محفوظ: القاهرة الجديدة
266	صباح الورد
267	حنا مينة: الشمس في يوم غائم
268	يوسف السباعي: رد قلبي
270	ابراهيم الكوني: الخسوف
274	كمال أبو ديب: بكائيات من مرثي ارميا
275	مختارات من الأدب العالمي
277	نيكوس كازنتزاكيس: الطريق إلى غريكو (مذكرات كازنتزاكيس)
283	الحرية أو الموت
285	المسيح يصلب من جديد
287	إيفو أندريتش: جسر على نهر الدرينا
293	الفناء الملعون
300	دوستويفسكي: الأخوة كارا مازوف
301	ميشا سليموفيتش: الدرويش والموت
302	هنري فيرنوي: مايريك (أميمتي)
304	فرانز ويرفل: الأيام الأربعون لجبل موسى
306	لورانس: أعمدة الحكمة السبعة
308	إيليا كازان: إيليا كازان يتحدث
309	ميخائيل سادوفيانو: البلطة
311	فهرس المحتويات

هذا الكتاب

إنها «صورة التركي» في وعي الآخر. تلك التي تحاول هذه القراءة النقدية أن تمسك بألوانها وتتابع ارتسام خطوطها وملامحها وتجلياتها، كما عكستها كتابات الأدباء المعاصرين في نثرهم، سواء عرباً كانوا أم من غير العرب. ولكن لماذا التركي؟! وفي هذا الوقت بالذات؟

سؤال جدير بالاهتمام، وتساؤل مشروع، فالأتراك جيران قريبون، والأتراك تربطنا بهم روابط قديمة ومتنوعة على علاقتها، والأتراك كموضوع في الأدب والحياة لهم حضور، وطباع مميزة، لذا فالإغراء والجاذبية لهما حصة كبيرة في تناولهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أجد أن مثل هذه القراءة النقدية تسدّ نقصاً في المكتبة العربية وفي حوارنا مع «الآخر» فلا وجود اليوم لقراءات مشابهة في الشخصيات «الأقوامية» رغم ما نراه من إضاءات تراثية عند الجاحظ والهمداني وابن فضلان تمس الموضوع.

يرفد كل ذلك ما ترسمه لنا الذاكرة، ذاكرة أكثر من شعب وأمة اكتوت بنار الإحتلال التركي إبّان انسياح تلك الجموع من العشائر البدوية الشرسة كقطعان متدافعة من مواطنها في آسيا الوسطى مثيرة الرعب والخراب لتقيم امبراطورية من الجماجم والدم بحدّ السيف. وتؤكد على حقيقة واحدة .. وترسم صورة واحدة في كل تجلياتها...

المؤلف



أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuab/>

نادي الشبيبة السورية - اللجنة الثقافية - حلب - ص.ب. 3699

دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية - اللاذقية - ص.ب. 1018 - هاتف 422339 - 412935

